

أحمد عبد الهادي



أحمد عبد الهادي

فيلسوف الأدباء
وأديب الفلاسفة



0098707

Bibliotheca Alexandrina

١٩٩٧

أبو حيان التوحيدي

فيلسوف الأدباء . وأديب الفلاسفة

تأليف

أحمد عبد الهادي

دار الثقافة للنشر والتوزيع

٢ شارع سيف الدين المهراني - الفجالة

ت : ٥٩٠٤٦٩٦ القاهرة

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ نَسْتَعِينُ ، وبِالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّكَ نَسْتَلْهِمُ التَّوْفِيقَ كَمَا
يَقْتَضِيهِ الدِّينُ : أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ قَالَ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيُّ :
إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا
فِي يَوْمِهِ ، إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ : لَوْ
غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَنَ ، وَلَوْ زِيدَ
كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ ، وَلَوْ قُدِّمَ
هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ ، وَلَوْ تُرِكَ هَذَا
لَكَانَ أَجْمَلَ ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ
الْعِبَرِ ، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ
النَّقْصِ عَلَى جُمْلَةِ الْبَشَرِ .

وقال ابن حزم الأندلسي :

المؤلفاتُ سبعةٌ لا ثامنَ لها :

* فهي إما شئٌ لم يُسبقِ المؤلفُ فيه فيستخرجه ،

* وإما شئٌ باطلٌ أو خاطيءٌ فيصحّحه ،

* وإما شئٌ مستغلقٌ فيشرحه ،

* وإما شئٌ مسهبٌ فيختصره ،

* وإما شئٌ متفرّقٌ فيجمعه ،

* وإما شئٌ منثورٌ فيرتّبه .

الإهداء

إلى مَنْ حاولوا إخفاء جُهدِي . لهم أطروحتي الغراء أُهدي
فقدُ كاشفتُ فيها كلَّ ساعٍ . لنور حقيقةٍ بهُدى ورُشدٍ
ولم أدلجُ (*) حفيًا بالدياجي . لأقلب كلَّ محمودٍ لصدِّ
ولم ألحظُ أبا حيَّانَ هذا . وجوديًا كتفنيدي المجدِّ
لهذا لم أكنُ ممَّن دعوهم . لحفل الزيف بل حفلِ التعدي
ولكنِّي أقمتُ له احتفالاً . بما في ذا الكتاب من التحدي
فها هو ذا كتابي فاقرؤوه . وهبوا ما استطعتم للتصدي

المؤلف / أحمد عبد الهادي

في ١٥/١٠/١٩٩٥

(*) أدلج سار بالليل والدياجي . جمع داجية وهي الظلمة .

المقدمة

- * من هو أبوحيان التوحيدى ؟
- * اختلاف المؤرخين فى تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ومكان مولده.
- * الاختلاف على مَنْ وجه إليه أشهر كتبه « الإمتاع والمؤانسة »
(لماذا كان المرجح هو أبو عبدالله بن سعدان ؟)
- * الاختلاف على المقصود بابن العميد فى كتابه (مثالب
الوزيرين)
- * موضوعات الدراسة وينابيعها .

المقدمة

من هو أبوحيان التوحيدى :

هو على بن محمد بن العباس ، وكنيته أبوحيان ، ولُقِبَ ^(١) بالتوحيدى لأن أباه كان يبيع نوعاً من التمر يبيدُ اسم التوحيد ، ويرى ابن حجر العسقلانى أن هذا اللقب يحتمل أن يكون نسبة إلى التوحيد الذى هو الدين لأن المعتزلة كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، ولكن أباحيان لم يعرض لهذا اللقب فى كتاب من كتبه ولم يُشير أبوحيان من قريب أو بعيد إلى نسبه أو نسب أسرته .

وأضيف إلى هذا فأقول . لعل كثرة مناجاته لله تعالى وتسايحه وتحاميده لله تعالى فى كتابه الإشارات الإلهية جعلهم يطلقون عليه لقب التوحيدى خاصة وأن له نزوعاً إلى التصوف ومخالطته المتصوفة ، وله رسالتان فى الصوفية وفى أخبار الصوفية .

وأبوحيان التوحيدى واحد من عمدة ^(٢) الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى ، وهو عصر ازدهار الثقافة والآداب والفنون بل كان ربيعها وشبابها الناضر وفيه بلغت الفلسفة شأواً عظيماً ، ويعتبر أبوعثمان الجاحظ عميد الأدب العربى فى القرن الثانى أول من تتلمذ التوحيد عليه ، من قراءاته لمؤلفاته حتى أن بعض النقاد قال عنه إنه الجاحظ الثانى ، لأنه كان شاهد عصره . أى مسجل القرن الرابع كما كان الحال بالنسبة للجاحظ فى القرن الثانى .

على أن دور التوحيدى لم يكن مجرد نقل آداب وفلسفة القرن الرابع ، بل كان البوتقة التى انصهرت فيها تلك العلوم والآداب والفنون والقضايا الفلسفية فهو كأمّة النحل التى تجود علينا برحيق سائغ شرابه ، فيه شفاء للناس أجمعين .

وهو أحد أولئك العلماء والأدباء الذين أصيبوا فى حياتهم ^(٣) بالبؤس والشقاء ، وظلّ حياته يجاهد ويكافح فى التأليف واحتراف الوراقة والنسخ وجوب الأقطار ، يقصد

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى ج ١ ص ٢٢ - سلسلة قادة الفكر فى الشرق والغرب .
(٢) خيرى شلبى - أبوحيان التوحيدى - ربيع الثقافة العربية ص ٥ ، ٦ (توفى الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ مكتباته تحمل سمات القرن الثالث) والنصف الأول من القرن الثالث .
(٣) د. أحمد أمين وأحمد الخيلى - مقدمة كتاب الإشاع والموانسة لأبى حيان / ج

الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحظَ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يعترف بذلك في بعض كتبه على نحو أربعين درهماً في الشهر أو مائسواً جنيهن بسعر اليوم تقريباً ، بينما كان من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوفير ، وليس منهم من يدانيه علماً أو يجاريه أدباً . قصد ابن العميد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم ... ومدح وأطرى ، وبكى واشتكى وهدد وأوعد فلا نفعه مدحه ولاذمه ، ولا إطراؤه ولاهجاؤه .. فإن استفاد بشئ مما عاناه فإنما هو الأدب بما كتب وألف .

وكان قبل وبعد اشتغاله بالأدب ^(١) نسخاً وورقاً مهنته نسخ الكتب بخطه الجميل ، وحافظته العجيبة تؤكد أنه نسخ كل المخطوطات في رأسه قبل أن ينسخها على الورق ، وكان من عشاق المجالس والندوات الثقافية المنتشرة في عصره ، وتلمذ على يد أبي سليمان المنطقي الفيلسوف الكبير وأبي سعيد السيرافي أحد كبار النحويين والمتكلمين والشيخ على بن عيسى الرُماني وأبي أحمد بن يعقوب (مسكويه) وغيرهم .

ويبدو أن شخصية التوحیدی كانت منسحقة تماماً على المستوى الاجتماعي إلى الحد الذي يجعل منظره منفراً للسادّة وعلية القوم الذين يخالطهم ، فهو لا يملك الهندام الذي يؤهله لمجالسة هؤلاء لولا تفضّل ذوي الفضل عليه ، ومساعدته للوصول إلى مجالس الأمراء والوزراء ومن هؤلاء الذين ساعدوه في ذلك صديقه أبو الوفاء المهندس .

يضاف إلى زراية مظهره عدم تزوّده بأخلاق عالية تعدل علمه وأدبه . ولو أنه كان كذلك لصار نادرة زمانه ، ومثلاً عالياً في عصره ، لكنه كان كما وصفه ياقوت الحموي « سخيّف اللسان ، قليل الرضا عند الإساءة إليه والإحسان ، الذمُّ شأنه ، والتّلبُّ دكّانه ، وكان مع ذلك محدوداً محارفاً (محروماً) يتشكّى صرف زمانه ، ويبكى في تصانيفه على حرمانه » .

ومن هذا القبيل في الشكاية من الفاقة والحرمان ^(٢) شكواه إلى صديقه أبي الوفاء المهندس . حيث يقول . "خلّصني أيها الرجل من التكف ، أنقذني من لبس الفقر ، أطلقني من قيد الضّر ، اشترني بالإحسان ، اعتبّدني بالشكر ، استعمل لسانى بفنون المدح ، اكفني مؤونة الغداء والعشاء" .

(١) خيرى تلى - أبوحيان التوحیدی - ربيع الثقافة العربية مرجع سابق ص ٨ ، ١١ .

(٢) د محمد الحرفى - أبوحيان التوحیدی ج/ ١ مرجع سابق ص ٧٤

(٣) الامناع والمؤاسة لآنى حيان ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ح ٣ .

"إلى متى الكُسيرة اليابسة، والبُقيلة الذاوية، والقميص المرقع، وياقلىُ درب الحاجب، وسذابُ درب الرّواسين (الحاجب والرّواسين مكانان وياقل وسذاب شخصان فقيران) الى متى التّأدّم بالخبز والزيتون، قد والله بَحّ الحَلْقُ، وتغيّر الخُلُقُ : اللَّهُ اللَّهُ، فى أمرى، اجبرنى فأئننى مكسور، اسقنى فأئننى صدّ، أغثنى فأئننى ملهوف، شهّرنى فأئننى غُلْفُ، حلّنى فأئننى عاطل .

قد أذلنى السفر من بلد الى بلد، وخذلنى الوقوف على باب فباب، ونكرنى العارف بى، وتباعدننى القريب منى" .

اختلاف المؤرخين فى تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ومكان مولده :

لم يختلف المؤرخون فى تعليل لقبه فحسب، بل اختلفوا فى تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته ومكان مولده . يقول الدكتور الحوفى « كثيرا مانجد عُسرا فى الكشف عن مولد عالم أو أديب أو عظيم من القرون الخالية لأن الناس لم يكونوا يقيّدون مولد أبنائهم كما نفعل الآن، ولقد يرتبط مولد الشخص بحدث جَلَل، يعيّن زمن استهلاله على هذه الأرض .

أما وفيات هؤلاء العلماء ^(١) والأدباء فقلّما تُجهَل، وإن حدث فيها اختلاف لأنهم كانوا قد اشتهروا لكنّا فى تاريخنا لأبى حيان تلقى عشرين : عُسرا فى توقيت مولده، وعُسرا فى تعرّف وفاته « ويعلل الكاتب ذلك بقوله « كأنما اتفق الناس على إهماله ميتاً كما أهملوه حياً، وكأنما أبى حظّه المهضوم إلّا أن يلازمه فى الحياة والموت » .

وقد حدد السندوبى ناشر كتاب أبى حيان «المقابسات» بأن تاريخ ميلاده هو سنة ٣١٢ هـ معتمداً فى ذلك على ما ذكره ياقوت الحموى فى معجم الأدباء اذ ذكر ان أباحيان كتب رسالة الى القاضى أبى سهل على بن محمد يعتذر فيها عن إحراق كتبه وأرّخها سنة أربعمائة وقال فيها « وبعد فقد أصبحتُ هامةً اليوم أوغد »، فأئننى فى عشر التسعين (بين الثمانين والتسعين) وهل بعد الكبرّة والعجز أمل فى حياة لذيذة» . وهذا يعنى أنه قد مات بعد عام أربعمائة هجرية . بينما ذهب السيوطى إلى أنه توفى سنة ٣٨٠ هـ . وسبق السيوطى ما ذكره أبو العباس زركوب فى كتابه (شيرانامة) من

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى ج/١ ص ٢٢ .

أنه سمع أباه يقول : إنه رأى مقبرة أبي حيان مكتوباً عليها إنه توفي سنة ٣٦٠ هـ ،
 وذهب القزويني إلى أن أبا حيان قد مات في عام ٤١٤ هـ متفقاً في ذلك مع رواية (١)
 الشيخ أبي الحسن بن أحمد شيخ مشايخ عصره . فقد ذكر أنه رأى أبا حيان في منامه
 فسأله . ما فعل الله بك ؟ فقال . غفر لي على رغبتي . وفي اليوم التالي طلب من
 أصحابه أن يحملوه إلى شيراز فزار قبر أبي حيان وصلى عليه ، وأمر بوضع لوح
 على قبره مكتوب عليه . هذا قبر أبي حيان التوحيدي توفي سنة ٤١٤ هـ . ويستنبط
 مما سبق أن الخلاف بين المؤرخين في وفاة أبي حيان يقع فيما بين سنتي ٣٦٠ ، ٤١٤
 هـ وهما سنتان بعيدتان بعدا شاسعا وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على إهمال
 تاريخ وفاة هذا العلم الذي تهتم به اليوم المجتمعات الأدبية والفلسفية في كثير من دول
 العالم المتحضر ، وتقيم المهرجانات احتفاءً بذكره . *

رأينا كيف أن المؤرخين قد اختلفوا في زمن ميلاد أبي حيان التوحيدي واختلفوا في
 سنة وفاته وهم قد اختلفوا أيضا اختلافاً بيناً في جنسيته « فهو عند ياقوت (٢)
 شيرازي الأصل ، وقيل نيسابوري ، وقال بعد الفضلاء إنه واسطي - قدم بغداد فأقام
 بها مدة ومضى إلى الرى » . فهل هو فارسي الأصل كما يقول ياقوت ؟ ونقل عنه ذلك
 السيوطي والسندوبي والدكتور زكي مبارك ؟

أم أنه عربي الأصل كما ذكره الأستاذ محمد كرد علي في كتابه « أمراء البيان »...؟
 ولعل رأي الأخير أصوب من آراء غيره للأسباب التالية :

١ - لم يُشَرَّ أبو حيان في مؤلفاته من قرب أو من بعد أنه كان يُمتُّ إلى فارس
 بسبب ، أو يتصل لديها بنسب .

٢ - إن اسمه بلقبه وكنيته يدل على عربيته فهو أبو حيان على بن محمد بن العباس
 التوحيدي .

٣ - إن صاحب كتاب شيراز نامه وهو فارسي (٣) ذكر أن أبا حيان بغدادى وقدَّ
 على شيراز .

٤ - ثم إن أبا حيان صرَّح بأنه يجهل الفارسية .

(١) رواية أخرى رواها أبو العباس أحمد زركوب - انظر المرجع السابق ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

٥ - تعصّب للعرب وردّه على الشعوبية يؤكد أصله العربى فقد مدح العرب فى جاهليتها وإسلامها ، وأثنى على أخلاقها وطباعها ولغتها وعجب أشد العجب من الجيّهانى إذ سبّ العرب وحط من قدرهم فرد عليه التوحيدى رداً مفحماً .

الاختلاف على من وجهه إليه أشهر كتبه^(١) : (الإمتاع والمؤانسة)

لقد اختلف المؤرخون فيمن وجهه الى أبى حيان الأسئلة التى أوردّها فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وردّ عليها على مدى سبع وثلاثين ليلة ، وكانت فى شتى أمور المعرفة . وكذلك اختلفوا فى الشخص الذى طلب من أبى حيان أن يدوّن مادار فى هذه المناقشات بدقة ولا يترك منها شاردة ولا واردة إلا سجّلها .

أمّا عن الاختلاف الأول فقد اختلفوا فيمن دار بينه وبين أبى حيان ذلك الحوار فى أمور شتى ، على مدى سبع وثلاثين ليلة ، ومن هو الوزير الذى طرح أسئلته عليه والذى أُقْب بالعارض وكان معاصراً لأبى حيان ، ومنع أن أغلبهم رأى بأن المقصود بأبى عبدالله العارض هو وزير صمصام الدولة البويهى فى سنة ٣٧٣ هـ ، أى أنه أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان ومع هذا فقد رأينا القفطى فى كتابه « أخبار الحكماء » يذكر بأنه الوزير أبو الفضل^(٢) عبدالله بن العارض الشيرازى ، كما اختلف القفطى ثانياً مع المؤرخين فى الشخص الذى كلّف أبا حيان بتدوين ذلك الكتاب فذكر أنه أبو سليمان المنطقى بينما المشهور هو صديقه أبو الوفاء المهندس .

وللتدليل على أن المقصود بالوزير أبو عبدالله العارض هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان نورد النقاط التالية

لماذا كان المرجح هو أبو عبدالله بن سعدان ؟

يقول الدكتور أحمد أمين فى مقدمه كتاب الإمتاع والمؤانسة « لقد بحثت^(٣) فى مظان (اسم أبى عبدالله العارض) فلم أوفق » إلى العثور عليه ، وقبل ذلك عنى المرحوم أحمد زكى باشا بالسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظّه حظى .

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان - مقدمة الكتاب - ص (ى ، ك) ووردت الليالى فى الكتاب أربعين ليلة .
(٢) قلت : أبو الفضل بن الحسن الشيرازى استورده مع الدولة البويهى بعد وفاة وزيره أبو محمد الحسن بن هارون المهلبى سنة ٣٥١ هـ . وأعتقد أنه لم يلق بالعارض ولم يتصل به أبوحيان فى ذلك الوقت (المؤلف) .

(٣) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان - مقدمة الكتاب (أحمد أمين وأحمد الزين) ص هـ ، و

وأخيراً رجّحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى . واستند الكاتب إلى الأسباب التالية :

١ - أنه ورد فى صدر كتاب الإمتاع والمؤانسة ما ذكره أبو حيان على لسان صديقه أبى الوفا قوله « إنك لما انكفأت من الرى إلى بغداد فى آخر سنة ٢٧٣ هـ مغيطاً من ابن عبّاد ، وعدتْك صلاح حالك ، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبى عبد الله العارض الوزير » ونحن إذا رجعنا إلى من استؤزر فيما بين سنة ٢٧٠ وسنة ٢٧٥ هـ وهى الفترة التى انكفأ خلالها أبو حيان من الرى إلى بغداد ، لم نجد وزيراً يكفى بأبى عبد الله إلا الوزير أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان الذى استؤزره صمصام الدولة فيما بين سنتى ٢٧٣ ، ٢٧٥ هـ .

٢ - جاء فى أثناء الإمتاع والمؤانسة من أن أباحيان ^(١) قصّ على الوزير أنّه سمع رجلاً على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقیة الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة البويهى - وهو الذى صلبه - « سبحان الله عضد الدولة تحت الأرض وابن بقیة فوق الأرض » فلما سمع الوزير ذلك قال استأذنت الملك فى دفن ابن بقیة فدفن وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقیة دفن فى عهد صمصام الدولة . وهذا يؤدى بنا إلى الاعتقاد بأن الوزير المذكور هو ابن سعدان .

٣ - من المعروف أن أبى حیان كان متصلاً بالوزير ابن سعدان وألف له كتابه : « الصداقة والصديق » قبل تحمل ابن سعدان أعباء الدولة ، فهذا يعنى أنه هو الذى دار بينه وبين أبى حيان الحوار الذى سجّل فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

٤ - ذكر فى كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أصدقاء أبى عبد الله ^(٢) العارض الوزير مما يؤكد أنه ابن سعدان، وأصدقائه هم . ابن زرعة وأبو الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازي وبهرام وابن شاهويه .

٥ - جاء فى كتاب الإمتاع والمؤانسة أن الوزير سأل أبى حیان عما يقول الناس فيه فقال له « سمعت بباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشطّ ، فلما نزل الوزير ليركب الزيزب صاحوا وضجوا ، وذكروا غلاء القوت ، وعوز الطعام وتعذر الكسب ، وغلبة الفقر ، وأنه أجابهم بجواب مرّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرّم » وهـ الأوصاف كلها تنطبق كما ذكر أبو شجاع فى كتابه « ذيل تجارب الأمم » على حاد جرت لابن سعدان .

(١) المرجع السابق ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ذ .

الاختلاف على المقصود بابن العميد في كتابه « مثالب الوزيرين » :

قد اتصل أبوحيان أول ما اتصل بالوزراء في عصره بابن العميد ثم بابن عبّاد وذكر ياقوت الحموي في معجم الأدباء أن ابن العميد هذا هو أبو الفضل بن العميد وأن أباحيان ألّف في ثلّبه وثلب ابن عباد كتابه (مثالب الوزيرين) أو (أخلاق الوزيرين) ثم نقل عن ياقوت من جاءوا بعده كابن خلّكان والسيوطي والسندوبي .

ولكن في كتب أبي حيّان وفي الصفحات التي نقلها ياقوت من كتاب «مثالب الوزيرين» نجد أمراً يسترعى النظر ، ويجعلنا نرجّح ترجيحاً بقرب من اليقين أن المقصود ليس ابن العميد المشهور أي ليس أبا الفضل بن العميد «الذي قيل في حقه بدأت الكتابة بعبد العميد وانتهت بابن العميد» وإنما المقصود هو الابن أي أبو الفتح بن العميد ، فقد اتصل أبوحيان بأبي الفتح بن العميد الذي ورّث لمؤيّد الدولة وقتل سنة ٣٦٦ هـ غير أن أباحيان لم ينل ماكان يأمله من ابن العميد وذلك قبل أن يتصل بالصاحب بن عبّاد الذي تولّى الوزارة لمؤيّد الدولة بن بويه بعد أبي الفتح بن العميد (أي من سنة ٣٦٧ الى سنة ٣٧٣ هـ) ثم قفل أبو حيّان عائداً الى مدينة السلام (بغداد) بعد أن خاب أمله في الصاحب بن عبّاد كما ذكر ذلك بقوله « فارقت بابه سنة سبعين وثلاثمائة راجعاً إلى مدينة السلام بغير زاد ، ولاراحلة ولم يعطني في مدة ثلاث سنين درهماً واحداً ولا ماقيمته درهم واحد » .

ونرى كما يرى الدكتور الحوفي أن المقصود هو أبو الفتح وليس أباه أبا الفضل بن العميد نظراً لما أوضحناه آنفاً للأسباب التالية

١ - أن أباحيان كان إذا ذمّ ابن عباد يقول . الصاحب بن عبّاد ^(١) بينما كان إذا ذمّ ابن العميد لايقول : أبو الفضل بن العميد ، أي لايغني أبا الفضل بالذمّ لأنه إذا عناه قال . ذو الرئاسة أو الأستاذ الرئيس ، أما الذي كان يذكر مثالبه فهو أبو الفتح ويذكره بابن العميد مجرداً من كنيته .

٢ - وهو قد يذكر أبا الفضل بن العميد هكذا بكنيته في معارض أخرى غير معارض الذمّ التي كان يعنى بها أبو الفتح ، وكان يفرق بينه وبين أبيه بالطريقة السابقة .

٣ - وكذلك إذا كان يعنى الأب يصّرّح باسمه هكذا « هذا من رسالة لبعض - من انتجع الرئيس أبا الفضل بن العميد » .

(١) د. أحمد محمد الحوفي - أبوحيان التوحيدى ج ١/ ص ٤٣ ، ٤٤

٤ - ولو أن أبا الفضل بن العميد كان مقصوداً في مثالب الوزيرين لما ذكره أبوحيان بالرئيس أو ذى الرئاسة في أى موقف من المواقف ، لكن الذى كان يعنى بالثلب أبا الفتح ويذكره مجرداً بآبن العميد .

٥ - ثم إن العداوة التى تحدت عنها أبوحيان فى كتابه (مثالب الوزيرين) لم تكن بين صاحب بن عبّاد وأبى الفضل بن العميد ، ذلك لأنّ الصاحب كان يعمل كاتباً لأبى الفضل فى أيام وزارته أى لم يكن وزيراً حينئذ ، وكان مخلصاً لأبى الفضل ولم يكن يغار منه .

٦ - وأبوالفضل بن (١) العميد أو ذو الرئاسة تولى الوزارة فى عهد ركن الدولة ابن بويه وتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، فخلفه ابنه أبوالفتح أو ذو الكفائتين حيث وزر لركن الدولة ثم لابنه مؤيد الدولة ، وقتل أبوالفتح سنة ٣٦٦ هـ .

ثم تولّى الوزارة لمؤيد الدولة البويهى (من سنة ٣٦٧ الى سنة ٣٧٣ هـ) الصاحب بن عبّاد ، إذ استوزره مؤيد الدولة وحكمه فى أمواله وهو الذى لقّبه بالصاحب أيام إمارته لأنّه كان يطحبه ويأنس به ، وقيل : إنه سُمي بالصاحب (٢) لأنه صحب أبا الفضل بن العميد (الملقب بالرئيس والمكئى بذى الرئاسة).

فلما مات مؤيد الدولة سنة ٣٧٣ هـ وتولّى الحكم أخوه فخر الدولة مكّن للصاحب ابن عبّاد فى الوزارة وبقي فيها مقدّم الكلمة إلى أن مات سنة ٣٨٥ هـ . بعد أن قضى فى الوزارة ثمانى عشرة سنة - وشهراً واحداً .

وبذلك يتضح أن أباحيان التوحيدى قد اتصل بأبى الفتح بن العميد ثم اتصل بعده بالصاحب بن عبّاد وكتب فيهما كتابه (مثالب الوزيرين) وهما الوزيران اللذان تولّى أولهما الوزارة لركن الدولة ثم لابنه مؤيد الدولة (فترة وجيزة) وتولى ثانيهما الوزارة لمؤيد الدولة ثم لأخيه فخر الدولة .

موضوعات الدراسة وينابيعها :

أما النهج الذى نهجته فى هذه الدراسة فهو نهج بسيط ومنطقي ، واضعاً نصب عينى ماسيتكلّفه القارئ لهذا الكتاب من جهدٍ لاستيعابه ، وأقصد به القارئ العادى لا الدارس المتخصّص ، ولذا فقد عمدت إلى السهولة والإيضاح ما استطعت إلى ذلك

(١) المرجع السابق

(٢) اسمه إسماعيل بن عبّاد انظر المرجع السابق ص ٥٤ .

سبيلا ، وسلكتُ في ذلك مسلك التفرّيع الأفقى للدراسة ، وإن كان الدراسون الأكاديميون يفضلون التفرّيع الرأسى - فالطريقة الأفقية لهذه الدراسة هى خير وسيلة لاستيعابها والإفادة منها .

فبعد هذه المقدمة قسمت الكتاب إلى أربعة أجزاء أفقية متوازية .

١- **الجزء الأول:** وتعرضتُ فيه لعصر أبى حيان السياسى والعلمى والأدبى ، فتكلمت عن نشأة دولة بنى بويه التى عاش الكاتب فى ظلها ، وتحدثتُ عن ملوكها ووزرائها ومدى اهتمامهم بالأدب والأدباء ، وتعرضتُ أيضا لدراسة الحالة العلمية والثقافية ودخول الفلسفة اليونانية كمكوّن جديد للثقافة العربية ، وتحدثت عن تحصيل أبى حيان لثقافة سابقه ومعاصريه ، وتأثره بفلسفة عصره ، واستيعابه لعلوم الفقه واللغة والنحو والتصوّف ، وحفظه الواسع لعلوم الدين والأدب . شعراً ونثراً ، كما تحدثت عن تأثره بمدرسة ابن العفيد.

٢- **الجزء الثانى:** وتحدثتُ فى هذا الجزء عن معالم حياة أبى حيان التوحيدى وصلاته بوزراء عصره كأبى الفتح بن العميد ، والصاحب بن عباد (فى الرى)، وأبى عبدالله بن سعدان (فى بغداد) .. وعشتُ مع فلسفته التى استقاها من أساتذته الفلاسفة فى عصره كأبى سليمان المنطقى وابن مسكويه ، ومن جمع بين الدين واللغة والفلسفة كأبى سعيد السيرافى ثم أوضحتُ كيف كان أبوحيان فيلسوف التوحيد ورائد علم النفس التحليلى .

٣- **الجزء الثالث:** وعنوانه أبوحيان التوحيدى (ماله وماعليه) وفيه تكلمتُ عن الذين طعنوا فى عقيدته ورموه بالزندقة ، والذين دافعوا عنه وعدّوه أحد المتصوّفين فى ذلك العصر ، كما تحدثت عن واقعة وضع رسالة سلفية لم تظهر إلّا من كتاباته وهى تتصل بالصحابة رضوان الله عليهم ، وتحدثت عن الذين اتهموه بوضعها والذين قالوا بصحتها ، وتكلمت عن أمانته فى النقل والتحريّ فى الرواية، ودافعتُ عنه ضدّ من قال عنه إنه كاتب وجودىّ ظهر فى القرن الرابع .

٤- الجزء الرابع وهو الخاص بالحديث عن مؤلفاته ، فأوردتُ مؤلفاته التى ذكرها ياقوت فى معجمه ، وتحدثتُ عن ثلاثة منها باستفاضة ، بقدر استطاعتي ، وهى الهوامل والشوامل ، والإمتاع والمؤانسة - ومثالب الوزيرين ، وختمتُ الكتاب بالحديث عن خصائصه الفكرية والفنية ، وعقدت مقارنة بينه وبين كتاب عصره .

وقد استقيتُ هذه الدراسة من ينابيع محدودة ومصادر معدودة ، وهى :

- ١ - لأبى حيان التوحيدي — الهوامل والشوامل - والإمتاع والمؤانسة - والإشارات الالهية . (ولم يتيسر لى الاطلاع على غيرها من مؤلفاته) .
- ٢ - لأبى منصور الثعالبي - يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر .
- ٣ - لأبى المحاسن جمال الدين بن تغرى بردى - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . (وقد استعنت بهذا المرجع لتتبع تاريخ دولة بنى بويه) .
- ٤ - للدكتور / أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدي (جزان) وهو أهمها جميعا .
- ٥ - للدكتور . حامد حفنى داود - الآداب الإقليمية فى العصر العباسى الثانى .
- ٦ - للأستاذ القاص الأديب . خيرى شلبى - أبى حيان التوحيدي / ربيع الثقافة العربية .

٧ - لياقوت الحموى : معجم الأدباء (الجزءان الرابع عشر والخامس عشر) .

هذا عدا بعض الكتابات التى توفرتُ عليها فى جريدة أخبار الأدب..

ولعلك تعجب - أيها القارئ الكريم - إذا علمت أن هذه الدراسة قد كُتبتُ فى فترة وجيزة من الوقت ، ويستلزم كتابة مثلها أضعاف الوقت الذى كُتبتُ فيه ، كذلك فإن مصنفها لم يكن لديه الإلمام الكافى بشخصية أبى حيان التوحيدي قبل تأليفه هذا الكتاب ، ولقد وفقه الله تعالى ، فى هذه العجالة من الوقت ، وأمكنه تقديم هذا المؤلف المتواضع فى الموعد المحدد له أملا أن يلقى قبولا واستحسانا ، وتشجيعا ورضوانا ، ذلك أننى كنت أضغُ نصب عيني حينما شرعت فى كتابته ابتغاء وجه الله تعالى ، والكتابة فى أديب فيلسوف متعدد الجوانب ليس بالأمر اليسير ، لاسيما فى هذا الوقت الوجيز الذى أعدتُ فيه هذه الدراسة ، وهذا بالتالى يعرضُ الكاتب الى أحد أمرين . إما إلى استطراد مُملٍّ ، أو إيجاز مُخلٍّ ، وإما إلى استيفاء جانبٍ على حساب جوانب

أُخْرِى ، ولَمَّا إلى اقْتَبَاسٍ غير مَوْفَّقٍ ، أو إخبارٍ غير مُحَقَّقٍ ، فَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَحْسَنْتُ فَبِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَسَأْتُ فَهُوَ تَقْصِيرُ مَنْى أَوْ نَسِيَانٍ ، وَلِذَا فَإِنِّى أَسْأَلُ الْمَغْفِرَةَ مِنَ الرَّحْمَنِ ، وَهُوَ أَهْلُ الْعَفْوِ وَالْإِحْسَانِ .

وليعذرني القارئ الكريم - الذى أجعله دائماً نُصَبَ عَيْنِي - فى الإطالة إذا كان المَقَامُ يَقْتَضِي ذلك ، لِأَنِّى أَقْصِدُ مِنْ هَذَا أَنْ أَتَحَمَّلَ دُونَهُ عِبَاءَ الاسْتِحْوَازِ عَلَى مَوْلَفَاتِ أَبِي حِيَانٍ وَقِرَاعَتِهَا قِرَاءَةً مَتَأَنِّيَةً ثُمَّ أَقْدِمُ لَهُ أَهَمَّ مَا فِيهَا - مَا اسْتَطَعْتُ إِلَى ذَلِكَ - حَتَّى أُجْنِيَ الثَّمَرَةَ الْمَرْجُوءَةَ مِنْ تَأْلِيفِ هَذَا الْكِتَابِ .

ولهذا السبب عمدتُ إلى التنويه إلى نقاطٍ تستحق التأكيد فى أكثرَ مِنْ موضوع ، كذلك فَإِنْ عَرْضِيَ لِلْمَحَاوِرَاتِ الْفَلَسْفِيَّةِ أَوْ الْقَضَايَا الْمُسْطَقِيَّةِ أَوْ الْأَسْئَلَةِ الَّتِي يَطْرَحُهَا أَبُو حِيَانٍ وَالْأَجُوبَةُ الَّتِي يَتَلَقَّاهَا مِنْ أَسَاتِذِهِ مَسْكُوهٍ - بِطَرِيقَةِ الْحَوَارِ الْمُبَسَّطِ - إِنَّمَا أَرَدْتُ مِنْ ذَلِكَ التَّسْهِيلَ وَالتَّيْسِيرَ ، وَتَحَمَّلُ عِبَاءَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمَصَادِرِ ، وَلَيْسَ فِي هَذَا إِسْهَابٌ وَلَا إِسْفَافٌ .

ولقد تقدمت بهذا العذر للقارئ الكريم حتى لا يقول قائل (متفلسف أو متعالِم) . لماذا هذه الإطالة ؟ ولماذا هذا العرض ؟ ولماذا هذا الإسراف ؟ ولماذا هذا التكرار ؟ ولماذا هذا الحوار ؟ إن كل هذا موجود فى الكتب والأسفار . وحتى لا يتسرع بهذه الأسئلة التى تدلُّ على فطنته ورسوخ قدمه فى العلم ، فَإِنِّى أَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ مَقَالَهُ الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِيَّ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِقُصُورِ الْإِنْسَانِ عَنْ بُلُوغِ مَرْتَبَةِ الْكَمَالِ فى التَّأْلِيفِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُ ابْنِ حَزْمٍ الْأَنْدَلُسِيِّ الَّذِي لَخَّصَ لَنَا فى إِيْجَارٍ أَنَّ التَّأْلِيفَ لَا يَتَعَدَّى سَبْعَةَ مَجَالَاتٍ وَلَمْ أُورِدْ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ فى أَوَّلِ هَذَا الْكِتَابِ اعْتِبَاطًا ، وَلَكِنْ لِيَرْجِعَ إِلَيْهِمَا الْمُتَسَائِلُ قَبْلَ أَنْ يَطْرَحَ تَسْأُولَهُ .

والله ولى التوفيق ،،،

أحمد محمد عبد الهادى

منشئة البكرى فى ٢١ مايو سنة ١٩٩٥

- ١ -

عصر أبي حيان

عصر أبي حيان السياسي والعلمي والأدبي

أولاً : عصره السياسي

من هم بنو بويه ؟

ثانياً : عصره العلمي والأدبي

ثالثاً : الحالة الثقافية

رابعاً : صلة أبي حيان بمنشئ الكتابة الديوانية

عصر أبي حيان

نقصد بعصر أبي حيان عصره السياسى ثم عصره العلمى والأدبى وأخيراً الثقافة فى عصره .

أولاً ، عصره السياسى :

عاش أبوحيان ^(١) فى القرن الرابع الهجرى ، وفى هذا العصر انفرط عقد الخلافة العباسية وتفككت عراها ، وتششت سملها وتحولت من خلافة إسلامية مترامية الأطراف إلى دول وأمم شتى ففى ذلك العصر تلاحظ الآتى .

- ١ - استيلاء ابن رائق على البصرة وواسط .
 - ٢ - استبداد البريدى بالأهواز .
 - ٣ - استقلال بنى بويه بفارس والرى والجبل وأصفهان من ٣٢٠ إلى ٤٤٧ هـ .
 - ٤ - انفرد الديلم بطبرستان وجرجان وكرمان .
 - ٥ - قيام الدولة السامانية فى خراسان وماوراء النهر (من ٢٦١ إلى ٣٨٩ هـ) - وخلفتها الدولة الغزنوية بالهند وأفغانستان (٣٥١ - ٥٨٢) وأقام بنو حمدان ملكهم فى الموصل وديار بكر ومضر وريقة (من ٣١٧ إلى ٣٩٤ هـ)
 - ٦ - استقلال الأخشيديين بمصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٧) ثم خلفهم الفاطميون (٣٥٧ - ٥٦٧ وهى الفترة التى مكثوا بمصر) .
 - ٧ - استيلاء القرامطة لفترة من الوقت على اليمامة والبحرين .
 - ٨ - استقلال عبدالرحمن الناصر الأموى بالأندلس .
- والذى يلاحظ أن هؤلاء المنفصلين ليسوا من جنس واحد ، فالسامانيون والبويهيون من الفرس والأخشيديون والغزنويون من الترك ، والحمدانيون والفاطيون والأمويون الذين حكموا الأندلس فى ذلك العصر من العرب .
- والذى يهمنى من هذه الدول التى انفصلت عن الخلافة الإسلامية فى بغداد بل كاد بعضها يقضى عليها قضاءً مبرماً ، الذى يهمنى منها هو دولة البُويهيّين التى اتخذت عاصمة لها مدينة الرى وعاش أبوحيان فى كنفها خلال القرن الرابع الهجرى .

(١) د. أحمد محمد الحوفى - مرجع سابق - ص ٧، ٨، ٩، ١٠ .

ولكى نلّم بشئٍ عن عصر أبى حيان السياسى نذكر شيئاً عن هذه الدولة الشيعية المذهب الفارسية المنشأ والتي كادت تقضى على دولة الخلافة فى بغداد سنة ٣٢٤ هـ كيف نشأت وكيف ترعرت إلى أن غربت شمسها فى عام ٤٤٧ هـ . وذلك ^(١) حينما عظم شأن دولة السلاجقة الأتراك وحيث رأى الخليفة العباسى القائم عظم شأن قوة طغرل بك السلجوقى ، فراسله ليكون له عوناً على أعدائه البويهيين وغيرهم ، ودخل طغرل بك مدينة بغداد عام ٤٤٧ هـ ووقعت بغداد فى قبضة السلاجقة وزال عنها حكم آل بويه منذ ذلك التاريخ .

وهكذا ضعفت دولة الخلافة وتحقق ماقاله الشاعر الذى ^(٢) رآه أبوحيان وسجل شعره فى كتابه البصائر والذخائر - قال ذلك الشاعر العلوى بالكوفة وهو يحاول تنبيه العباسيين الى خطر تلك الانتفاضات القومية :

أرى ناراً تشبُّ على يَفْـعاعٍ	لها فى كلِّ ناحيةٍ شعاعُ
وقد رقدتْ بنو العبّاسِ عنها	ونامتْ وهى أمانة رِـتاعُ
كما رقدتْ أُميَّةٌ ثم هبَّتْ	لتدفعَ حين ليس لها دِفاعُ

وهذه الأبيات نظيرة أبيات لنصر بن سيار أرسلها إلى مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حين جاشت خراسان بالمسودة :

أرى تحت الرمّاد وميضَ نارٍ	ويوشك أن يكون لها ضِرامُ
فإنَّ النارَ بالعـودين تُذكى	وإنَّ الشبرَ مبدؤه كلامُ
فقلت من التعجّب ليت شعري	أليقاًطُ أُميَّة أم نيام
فإن يكُ أصبحوا وثّوا وناموا	فقل قوموا فقد حان القيامُ

من هم بتو بؤيه ؟

ذكر أبوالمحسن بن تغرى بردى أنه فى عام ٣٢٢ هـ ظهرت الديلم ^(٣) عند دخول أصحاب مرداويج الديلمى إلى أصبهان ، وكان على بن بويه من جملة أصحاب مرداويج

(١) محمود رزق سليم - صفى الدين الحلى ص ٧ سلسلة تنوع الفكر العربى .

(٢) د أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى - مرجع سابق ص ٧ .

(٣) جمال الدين أبوالمحسن بن تغرى بردى - النجوم الزاهرة - الجزء الثالث ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

فاقتطع مالا جزيلا وانفرد عن مرداويج الديلمي ، والتقى مع ابن ياقوت فهزمه واستولى على فارس وأعمالها . وكان هذا العام (٢٢٢ هـ) أول ظهور بنى بويه ، قيل : إن بويه كان فقيرا ، فرأى فى منامه أنه بال فخرج من ذكّره عمود من نار ، ثم تشعب يمنة ويسرة وأماماً وخلفاً حتى ملأ الدنيا ، فقص رؤياه على معبر ، فقال له المعبر ما أعبرها إلا بالف درهم ، فقال بويه : والله مارأيته قط ولاعشرها ، وإنما أنا صياد اصطاد السمك ، ثم اصطاد سمكة فأعطاه للمعبر فقال له المعبر ألك أولاد ؟ قال . نعم ، قال . أبشر فإنهم يملكون الأرض ويبلغ سلطانهم فيها على قدر ما احتوت عليه النار ، وكان معه أولاده الثلاثة على أكبرهم وهو أول ما بقل عذاره ، وثانيهم الحسن وثالثهم أحمد ، ثم ذكر ابن تغرى بردى أن حلم بويه تحقق حينما قدم أحمد بن بويه الذى تولى إمارة الديلم بعد أخيه على قدم بغداد ظافراً ، وحلح عليه الخليفة المستكفى خلعه العظيمة الباهرة ، ثم لقيه بمعز الدولة ولقب أخاه علياً عماد الدولة وأخاه الحسن ركن الدولة . وضربت ألقابهم على السكة - النقود - ثم ظهر ابن شيرازاد واجتمع بمعز الدولة ، (ومعز الدولة المذكور هو أول من ملك من الديلم ومن بنى بويه) وأول من وضع السعاة ببغداد لجعلهم رسلا بينه وبين أخيه ركن الدولة فى الرى ، وكان له ساعيان «فضل ومرعوش» وكان كل واحد منهما يمشى فى اليوم ستة وثلاثين فرسخا ، فضربى بذلك شباب بغداد وانهمكوا فيه حتى نجب منهم عدة سعاة .

ثم حدث أخيراً أن تجرأ معز الدولة أحمد بن بويه فى ذلك العالم (٢٢٤ هـ) تجرأ على الخليفة المستكفى فخلعه من الخلافة وسمل عينيه ، وسبب ذلك كما ذكر ابن الأثير والذهبي وصاحب عقد الجمال أن قهرمانه الحليفة صنعت دعوى عظيمة حصرها جماعة من قواد الديلم والأتراك ، فأتتهما معز الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفى ويزيلوا معز الدولة ، فسأ ظنه لذلك وخاف أن تفعل به كما فعلت مع توزون ، فكان ذلك سبب خلع المستكفى وسمل عينيه بعد القبض عليه .

بينما ذكر ابن تغرى بردى كيف حدث القبض على الخليفة المستكفى والقهرمانه وخواص الخليفة بقوله « وسببه أنه لما كان أول جمادى الآخر دخل معز الدولة على الخليفة المستكفى فقام والناس وقوفاً على مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم فطلبا من الخليفة الرزق ، فمدَّ يده إليهما ظناً منه أنهما يريدان تقبيلها ، فجذباه من السرير وطرحاه الى الأرض وجراه بعمامته ثم هجم الديلم على دار الخلافة ، وعلى الحرم

ونهبوا وقبضوا على القهرمانة وخواص الخليفة ، ومضى معز الدولة الى منزله ، وساقوا المستكفي ماشياً إليه وسُملت عيناه ، وكانت خلافته سنة وأربعة أشهر ويومين .

ثم ذكر ابن تغرى بردى أن ^(١) المستكفي توفى بعد هذا الحادث بأقل من أربع سنوات فى عام ٣٣٨ هـ ، وهو ثالث خليفة عباسى خلع وسُمل ، وتنبأ بذلك القاهر العباسى بعد ما فعل به وبخلفه المتقى فقال : يقينا اثنين ولابد لنا من ثالث . ثم إن معز الدولة بعد أن خلع المستكفي أحضر أبا القاسم الفضل بن المقتدر جعفر ويأيعه بالخلافة ولقبه بالمطيع لله وسنه يومئذ أربع وثلاثون سنة « ثم قدّموا ابن عمه المستكفي المذكور فسُلم عليه بالخلافة وأشهد الله على نفسه بالخلع ، وذلك قبل أن يُسمل . ثم صادر المطيع خواص المستكفي وأخذ منهم أموالا كثيرة . وقرر له معز الدولة كل يوم مائة دينار » .

وفي العام الذي خلع المستكفي وولى فيه المطيع عظم الغلاء ببغداد وأكل الناس الجيف والروت وماتوا على الطرقات وأكلت الأكلب لحومهم وبيع العقار بالرغفان ، ووُجدت الصغار متروكة مع المساكين ، وهرب الناس إلى البصرة وواسط وهلك منهم خلق كثير ، وذكر ابن الجوزى انه اشترى لمعز الدولة كُر الدقيق بعشرين ألف درهم وقال ابن تغرى بردى « والكُر سبعة عشر قنطارا بالدمشقى » . ولما استفحل الأمر هجم ناصر الدولة بن حمدان على بنى بويه ومعهم الخليفة المطيع وجاء ناصر الدولة فنزل سامراً . فخرج إليه معز الدولة ومعه الخليفة المطيع واستدأت الحرب بينهم بعُكبرا ، فلما وقع القتال جاء ناصر الدولة الحمداني فنزل ببغداد من الجانب الشرقى وملكها ، وجاء معز الدولة ومعه المطيع كالأسير فنزل فى الجانب الغربى . ثم قوى أمر معز الدولة حتى ملك بغداد ، ونهبت عساكره أهلها وهرب ناصر الدولة .

وفي سنة ٣٣٥ هـ جدّد ^(٢) معز الدولة أحمد بن بويه الأمان بينه وبين الخليفة المطيع لله بعد أن انهزم ناصر الدولة بن حمدان فى السنة الماضية أمام معز الدولة ، ثم وقع الصلح بينهما على أن يكون لناصر الدولة من تكريت إلى الشام وفى هذا العام أيضا استولى ركن الدولة الحسن ابن بويه على مدينة الرى .

وفى العام اللاحق خرج الخليفة المطيع ومعز الدولة بن بويه الى البصرة لمحاربة أبى القاسم عبدالله بن البريدى ، فلما قاربوها أستأمن إلى معز الدولة جيشُ البريدى وهرب هو إلى القرامطة ، وملك معز الدولة البصرة ، وأقطع المطيع فيها من ضياعها ، وفى

(١) المرجع السابق ص ٢٨٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ .

هذا العام أيضا قديم عماد الدولة على بن بويه إلى الأهواز وهو الأخ الأكبر لمعز الدولة ، فبادر أخوه إلى خدمته ، وجاء وقبّل الأرض وتأدّب أمامه ، ثم بعد أيام ودعه أخوه معز الدولة عائدا إلى بغداد حيث أخذ واسطاً والبصرة .

وفى عام ٣٣٧ هـ حدث الغرق ببغداد وزادت دجلة واحدا وعشرين ذراعاً وهرب الناس ووقعت الدور ، ومات تحت الردم خلق كثير ، وفيها دخل بغداد أبو القاسم عبدالله بن البريدي بأمان من معز الدولة وأقطعه معز الدولة قرى بأعمال بغداد ، وفيها اختلف معز الدولة بن بويه وناصر الدولة الحسن بن حمدان ، وسار معز الدولة إلى الموصل ، فتأخر ناصر الدولة إلى نصيبين خائفاً ، ثم صالح معز الدولة على أن يعطيه في كل سنة ثمانية آلاف درهم .

وفى العام التالي (٣٣٨ هـ) وهو العام ^(١) الثالث من ولاية أنوجور الأخشيدي عامل الخليفة العباسي على مصر ، أرسل أنوجور ^(٢) هداياه إلى معز الدولة وعرض على معز الدولة أن يكون أخوه مشاركا له في إمرة مصر ويكون هو من بعده ، فأجابته لذلك . وفى هذا العام أيضا توفى السلطان عماد الدين أبو الحسن على بن بويه ، وهو الأخ الأكبر لمعز الدولة ، وكان قد ملك جميع بلاد فارس وكان ملكا عاقلا شجاعا مهيبا . اعتلّ بقرحة في الكلى انحلت جسمه ومات بتسيران وله تسع وخمسون سنة ، فأقام مقامه الخليفة المطيع لله أخاه أبا على الحسن ركن الدولة والد السلطان عضد الدولة بن بويه ، فلما تحرك ابن محتاج صاحب خراسان على ركن الدولة في سنة ٣٥٤ هـ نجده أخوه معز الدولة بجيش من العراق ، وفي هذا العام دخل ابن ماكان أحد قواد صاحب خراسان إلى أصبهان فخرج منها أبو منصور بن ركن الدولة السويهي فتبعه ابن ماكان فأخذ خزائنه ، وعارضه أبو الفضل بن العميد وزير الدولة ومعه القرامطة فآوَقَعُوا به وأتخنوه بالجراح وأسروا قواده وسار ابن العميد بعد هزيمة ابن ماكان إلى أصبهان .

وفى العام التالي (٣٤٥ هـ) خرج روزبهان الديلمي على معز الدولة فسير إليه معز الدولة لقتاله الوزير المهلبى ، فلما كان المهلبى بقرب الأهواز تسلّل رجال المهلبى إلى روزبهان فأنحاز المهلبى ومن معه إلى أحد الحصون ، فخرج معز الدولة بنفسه لقتال روزبهان وسار معه الخليفة المطيع فقاتلاه حتى ظفر به معز الدولة في المصاف وفيه ضربات وأسروا قواده ، وقدم معز الدولة ببغداد وروزبهان بين يديه على جمل ثم عُرق في دجلة .

(١) المرجع السابق ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ .

وفى سنة ٣٤٦ هـ حدث بالرّى ونواحيها زلازل عظيمة خارجة عن الحد ، ثم خسف ببلاد الطالقان فى ذى الحجة فلم يفلت من أهلها إلا نحو ثلاثين رجلا وخُسف بمائة وخمسين قرية من قرى الرّى ، واتصل الخسف الى حلوان ، فخُسف بأكثرها . وقذفت الأرض عظام الموتى وتفجّرت منها المياه ، وتقطع بالرّى أحد الجبال ، وعلّقت قرية بين السماء والأرض بمن فيها نصف نهار ثم خسف بها ، وانخرقت الأرض خروقا عظيمة وخرجت منها مياه ننتة وديخان عظيم . (ولاستغرب لحدوث هذه الغضبة الإلهية إذا علمنا باستئثار الفساد فى ذلك الوقت وظلم الحكام وتجبرهم) ففي عام ٣٥٠ هـ (١) شرع معز الدولة بن بويه فى بناء دار هائلة عظيمة ببغداد وأخرب لأجلها دورا وقصورا، وقلع أبواب الحديد التى كانت على مدينة المنصور وألزم الناس ببيع أملاكهم ليدخلها فى البناء ، ونزل فى الأساسات ستة وثلاثين ذراعا ، فلزمه من الغرامات عليها الى أن مات ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، وصار الدواوين وغيرها ، وجعل كل ما حصل له شيئا أخرجه فى بنائها ، وقد درست هذه الدار من قبل سنة ستمائة ، ولم يبق لها أثر ، ويعلق ابن تغرى بردى على ذلك بقوله « دار الظالم خراب ولو بعد حين ».

وفى العام التالى (٣٥٢ هـ) ألزم معز الدولة فى يوم عاشوراء الناس بفتح الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب فى الأسواق وعلّقوا عليها المسوح ، وأخرجوا النساء منشورات الشعور يُقمن المائم على الحسين بن على رضى الله عنه ، قال بن تغرى بردى « وهذا أول يوم تقع فيه هذه العادة القبيحة الشيعية ببغداد ، وكل ذلك فى صحيفة معز الدولة بن بويه ، ثم اقتدى به من جاء بعده من بنى بويه وكل منهم رافضى خبيث » .

ووقعت كذلك فى العام التالى فتنة عظيمة بين أهل السنة والرافضة وخرج جماعة ونُهب الناس ، وحدث فى سنة ٣٥٥ هـ حدثٌ أشد هولا بسبب هذه البدعة فلما أقيم المائم على الحسين رضى الله عنه ببغداد ، ورد الخبر بأن ركب الشام ومصر والمغرب من الحجاج أُبْخِنُوا وهلك أكثرهم ، ووصل الأقل الى مصر ، وتمزّق الناس كل ممزق ، وأخذتهم بنو سليم ، وكان ركبا عظيما نحو عشرين ألف جمل معهم الأمتعة والذهب .

وفى عام ٣٥٦ هـ مات السلطان معز الدولة بن بويه الذى كان أبوه يسطاد السمك وكان ولده هذا ربما احتطب قال أمر ابنه إلي الملك ، وكان قدومه إلى بغداد سنة أربع

(١) المرجع السابق ص ٢٢٧ ، ٢٣٤ .

(٢) المرجع السابق د / ٤ ص ١١ ، ١٤ .

وثلاثين وثلاثمائة ، وكان موته بالبطن ، فعهد إلي ولده عز الدولة أبى منصور بختيار ، وكان الرفض فى أيامه ظاهراً ببغداد ، ويقال . إنه تاب قبل موته وتصدق وأعتق .. قال ابن تغرى بردى : « وجميع بنى بويه على هذا المذهب القبيح غير أنهم لا يفتشون ذلك خوفاً على الملك » ... وكانت دولته اثنتين وعشرين سنة وكان قد ردّ المواريث إلى ذوى الأرحام . ويقال : إنه من ذرية سابور ذى الأكتاف . وهو أخو ركن الدولة (أبو عضد الدولة) وأخو عماد الدولة السابق ذكره والذى توفى سنة ٢٢٨ هـ .

وفى عام ٣٦٠ هـ توفى أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد الكاتب المشهور وزير ركن الدولة بن بويه ، والعميد لقب والده ، وكان فيه فضل وأدب وترسل ، وذرّ لركن الدولة الحسن بن بويه بعد ^(١) موت أبيه ، ومن بعض أصحاب أبيه صاحب بن عبّاد ، قال الثعالبي فى كتابه يتيمة الدهر « وكان يقال : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بآبن العميد » . وكان صاحب بن عبّاد قد سافر إلى بغداد ، فلما عاد إليه بالرى قال له ابن العميد : كيف وجدت بغداد قال : بغداد فى البلاد كالأستاذ فى العباد . وكان ابن العميد سيّوساً مدبراً قائماً بحقوق المملكة وقصده الشعراء من الأفاق ومدحه المتنبي وابن نباتة السعدى وغيرهما ومن شعر ابن العميد قوله :

أَخِ الرَّجَبِــــــــــــــــــــــــــــــــالَ مِنَ الْأَبَا عَدِ وَالْأَقَارِبَ لَا تَقَارِبُ
إِنَّ الْأَقَارِبَ كَالْعَقَا رَبِّ بَلْ أَضُرُّ مِنَ الْعَقَارِبِ

وقيل إن صاحب بن عباد اجتاز بدار ابن العميد بعد وفاته فلم يرَ هناك أحداً بعد أن كان الدهليز يَغصُّ من زحام الناس فقال :

أَيُّهَا الرَّبِيعُ لِمَ عَلَكَ اكْتِنَابُ أَيْنَ ذَاكَ الْحِجَابُ وَالْحُجَابُ
أَيْنَ مَنْ كَانَ يَفْزَعُ الدَّهْرُ مِنْهُ فَهُوَ الْيَوْمَ فِي التُّرَابِ تُرَابُ

وقال على بن سليمان: رأيت بالرى دار قومٍ لم يبقَ منها سوى بابها - يعنى دار ابن العميد - وعليها مكتوب :

(١) المرجع السابق ص ٦٠ ، ٦١ - وقول ابن تغرى بردى بأن الفضل بن العميد ورر لركن الدولة بعد موت أبيه ومن بعض أصحاب أبيه صاحب بن عباد هذا قول فيه تساؤل . لأن صاحب بن عماد كان صاحبه هو وعاصر ابنه أبا الفتح الذى قتل فى عام ٢٦٦ هـ بينما توفى صاحب بن عماد فى سنة ٢٨٥ هـ

اعجب لصرف الدهور معتبراً فهذه الدار من عجائبها
عهدي بها بالملوك زاهية قد سَطَعَ النُّور من جوانبها
تبدلت وحشة ساكنها ما أوحش الدَّارَ بعد صاحبها
وكان ابن العميد قبل أن يقتل بمدة قد لهج ^(١) بإنشاء هذين البيتين وهما .

دَخَلَ الدِّينِيَا أَنَسُ قَبْلَنَا رَحَلُوا عَنْهَا وَخَلُّوا لَنَا
وَنَزَلْنَاهَا كَمَا قَدْ نَزَلُوا وَنُخْلِئُهَا لِقَوْمٍ بَعْدَنَا
وفى عام ٣٦١ هـ وقع صلح بين ^(٢) منصور بن نوح الساماني صاحب خراسان وبين ركن الدولة الحسن بن بويه وولده عضد الدولة بن ركن الدولة ، بأن يحمل ركن الدولة إلي منصور بن نوح الساماني فى كل سنة مائة ألف دينار ، ويحمل ابنه عضد الدولة خمسين ألف دينار .

وفى عام ٣٦٢ هـ حشد الروم حشودهم وأخذوا نصيبين واستباحوا وقتلوا وسبوا ، وقدم من نجا منهم واستنفروا الناس فى الجوامع ، وكسروا المنابر ومنعوا الخطيب ، وحاولوا الهجوم على الخليفة المطيع لله ، واقتلعوا بعض شبابيك دار الخلافة حتى غلقت أبوابها ، ورماهم الغلمان بالنشأ من الرواشن ، وخاطبوا الخليفة بالتعنيف وبأنه عاجز عما أوجبه الله عليه من حماية حوزة الإسلام وأفحشوا القول ، ووافق ذلك غيبة السلطان عز الدولة بختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه فى الكوفة ، فخرج إليه أهل العقل والدين من بغداد ، وفيهم الإمام أبوبكر الرازى الفقيه وأبو الحسن على بن عيسى النحوى ، وأبو القاسم الداركى ، وابن الدقاق الفقيه ، وتشكوا إليه ما دهم الإسلام من هذه الحادثة ، فوعدهم عز الدولة بالغزو ، ونادى بالنفير فى الناس ، فخرج من العوام خلق مثل عدد الرمل ثم جهز جيشاً وغزوا ، فهزموا الروم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأسروا أميرهم وجماعة من بطارقه ، وأنفذت رؤوس القتلى إلى بغداد وفرح المسلمون بنصر الله تعالى .

لما دخل فى هذا العام (٣٦٢ هـ) المعز لدين الله الفاطمى مدينة القاهرة احتجب عن الناس ، ثم ظهر للناس بعد مدة وقد لبس الحرير الأخضر وجعل على وجهه اليواقيت *

(١) المرجع السابق ص ٦١ والمعروف أن اسه أبا الفتح هو الذى مات مقتولا .

(٢) المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٥ .

والجواهر تلمع كالكوالكب . وزعم أنه كان غائباً في السماء ، وأن الله قد رفعه إليه ، فامتلات قلوب العامة والجهال منه رعباً وخوفاً ، وقطع ما كان يؤديه من قبل ابن الإخشيد في كل سنة من إتاوة للقرامطة الشيعة وهى ^(١) ثلاثمائة ألف دينار ، فعظم ذلك على القرمطى الحسن بن أحمد بن أبى سعيد ، فسار القرمطى إلى بغداد وسأل الخليفة المطيع لله العباسى على لسان السلطان عز الدولة بختيار بن بويه أن يمدّه بمال ورجال ويؤليه الشام ومصر ليُخرج المعزّ منها ، فامتنع المطيع لله من ذلك ، وقال . كلهم قرامطة وعلى دين واحد ، فأما المصريون (يعنى الفاطميين) فأماتوا السنن وقتلوا العلماء . وأما هؤلاء (يعنى القرامطة) فقتلوا الحاجّ وقلعوا الحجر الأسود وفعلوا ما فعلوا (أى أن الخليفة كان يمقت الاثنين لأنه سنى وإن كان مطيعاً للسلطان) .

فقال عز الدولة بختيار للقرمطى اذهب فافعل ما بدا لك . وقيل ان بختيار أعطاه مالا وسلاحا ، فسار القرمطى إلى الشام ومعه أعلام سود ، وادّعى أن الخليفة المطيع ولأه ، وكتب على الأعلام اسم المطيع عبدالكريم (اسم ابن الخليفة) وتحت مكتوب «السادة الراجعون الى الحق» ومَلَك القرمطى الشام ولعن المعزّ الفاطمى وأباه على منابرهما ، وقال هؤلاء من ولد القدّاح ، تم أقام القرمطى الدعوة لبني العباس ، وسار إلى مصر بعساكره ، ولما بلغ المعز مجيئه تهياً لقتالهم ، فنزل القرمطى بمشتول الطواحين (مشتول السوق) وحصل بينه وبين المعز مناوشات ثم تقهقر المعز ودخل القاهرة ، وانحصر بها الى أن أرضى القرمطى بمال وخدعه ، فانخزع القرمطى وعاد الى نحو الشام ، فمات بالرملة في شهر رجب وأراح الله المسلمين منه . وصفا الوقت للمعز ، فإن القرمطى كان أشد عليه من جميع الناس للربح الذى سكن فى قلوب الناس منه ، فكانت القرامطة إذا كانوا فى ألف حطّموا مائة ألف خذلاناً من الله تعالى لحكمة يعلمها .

ثم حدث فى عام ٣٦٣ هـ ^(٢) أن انشق سُبُكْتِكِن التركى عن أستاذة عز الدولة بختيار وناصره الخليفة المطيع الذى تنازل مختاراً لابنه عبدالكريم الذى لُقّب بالخليفة الطائع لله . وفى عام ٣٦٤ هـ خرج الخليفة الطائع ومعه سُبُكْتِكِن من بغداد يريدان واسطاً لقتال بختيار مصطحبين معهما الخليفة المطيع ، فمات المطيع الفضل فى الحرم من ذلك العام ، فردّه ولده الطائع فى تابوت إلى بغداد فدفن بها ، ومات سُبُكْتِكِن التركى بعد المطيع بيوم واحد ، فعقد الأتراك لأفتكِن الرامى مولى معز الدولة اللواء .

(١) المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٥

(٢) المرجع السابق ص ١٠٥ .

وكان أعور فأتاعوه وعرض عليه الطائع اللقب فامتنع واقتصر على الكنية ، وعمل على لقاء عز الدولة ، فاستنجد عز الدولة بأبن عمه عضد الدولة بن ركن الدولة البويهى ، فنجده وقاتل الأتراك وكسرهم بعد حروب كثيرة ، ثم طمع عضد الدولة فى الامارة وعزل ابن عمه عز الدولة ، فأقره الخليفة الطائع وعظم أمره بعد ذلك

وفى عام ٣٦٥ هـ كتب ركن الدولة ^(١) أبوعلى الحسن بن بويه إلى ولده عضد الدولة أبى شجاع ، أنه قد كبر سنه ويؤثر مشاهدته ، فاجتمعا فقسّم ركن الدولة الملك بين أولاده ، فجعل لعضد الدولة فارس وكرمان ، ولؤيّد الدولة الرّى وأصبهان ، ولقخر الدولة همذان والدينور ، وجعل ولده الأصغر أبا العباس فى كنف عضد الدولة وعظم هذا الأمر على ابن أخيه عز الدولة المعزول فكتب الى ركن الدولة يخبره ماعمله عضد الدولة ويسأله زجره وأن يؤمنه مما يخاف ، فخاطب ركن الدولة ولده عضد الدولة فى الكف عنه ، فشكا إليه عضد الدولة ماعمله عز الدولة به وانضمام وزيره ابن بّية عليه فلم يزل به ركن الدولة حتى أجابه بالكف عنه .

وفى عام ٣٦٦ هـ توفى السلطان ركن الدولة ^(٢) أبوعلى الحسن بن بويه بعد أن ملك اربعاً وأربعين سنة واشهرا ، وكان أبو الفضل بن العميد ومن بعده ابنه أبو الفتح وزيرين له ، والصاحب بن عبّاد كان وزيراً لولديه مؤيّد الدولة ثم فخر الدولة ، وبموت ركن الدولة حدث صدام كبير بين جيوش ابنه عضد الدولة وجيوش ابن أخيه عز الدولة بختيار حيث انضم الى عضد الدولة من القرامطة أبوبكر محمد بن شاهويه ومعه ألف رجل ، وأخذوا الكوفة وأقام الدعوة بها لعضد الدولة وأسقط خطبة عز الدولة بختيار . ووقعت وقعة أخرى بين عضد الدولة وعز الدولة فى ذلك العام وفيها أسر غلام تركى لعز الدولة فاشتد حزنه عليه ، فامتنع عن الأكل والشرب ، وأخذ فى البكاء واحتجب عن الناس ، وبذل لعضد الدولة فى الغلام ، جاريتين عوانتين فردّه عضد الدولة عليه .

فى عام ٣٦٧ هـ دخل ^(٣) عضد الدولة بن ركن الدولة بن بويه بغداد ، وخرج منها ابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه ، ثم تقاطلا فانتصر عز الدولة ثم قتل ، وعز الدولة هو أبو منصور بختيار بن معز الدولة أحمد بن بويه ، ولّى ملك العراق بعد أبيه ، وتزوج الخليفة الطائع لله عبدالكريم بابنته شاه زمان على صداق مائة ألف دينار،

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) المرجع ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

وكان عز الدولة شجاعا قويا يمسك الثور العظيم بقرنيه ثميصرعه ، وكان بينه وبين بن عمه عضد الدولة منافسات وحروب على الملك ، تقاتلا فيها غير مرة ثم قتل فى آخرها وسنّه ست وثلاثون سنة ، وحُمِل رأسه الى عضد الدولة فوضع المنديل على وجهه وبكى وتملك عضد الدولة العراق بعده . (قصار له ملك العراق وفارس وكرمان) .

وفى العام (٣٦٧ هـ) أيضا ظفر عضد الدولة بوزير عز الدولة أبى طاهر بن بقية ، وكان عضد الدولة قد بعث إليه يُميله عن عز الدولة ، فقال: الخيانة والغدر ليستا من أخلاق الرجال ، فلما قتل عز الدولة قبض عليه عضد الدولة وشهره فى بغداد من الجانبين وعلى رأسه بُرنس ثم أمر به أن يطرح تحت أرجل الفيلة فقتلته الفيلة ثم صلب فى طرف الجسر من الجانب الشرقي ، فاجتاز به أبو الحسن محمد بن عمر الأنباري الصوفي الواعظ وكان صديقاً له فرثى ابن بقيةً بمرثيته المشهورة التى يقول فيها .

علوُ فى الحَيَاةِ وفى المماتِ لحقاً أنت إحدى المعجزاتِ
كانَ الناسَ حولك حين قاموا وفنودُ نَدَاكَ أيامَ الصُّلَّاتِ

وفى عام ٣٧١ هـ بدأ النزاع بين أبناء ^(١) ركن الدولة الثلاث عضد الدولة وفخر الدولة ومؤيد الدولة إذ اتفق فخر الدولة وقابوس بن وشمكير على عداوة عضد الدولة فى الباطن فقططن عضد الدولة لذلك ولم يُظهره (لأنه كان يجلُّ أخويه ومن هذا القبيل استقباله فى بغداد فى العام السابق ٣٧٠ هـ للصاحب بن عباد وزير أخيه مؤيد الدولة بالحفاوة البالغة) وجهز العساكر مع أخيه مؤيد الدولة لقتال قابوس فتوجه إليه مؤيد الدولة وحصره وأخذ بلاده ، ولم ينقعه فخر الدولة المتحالف معه وكان لقابوس من البلاد طبرستان وغيرها .

وفى سنة ٣٧٢ هـ توفى السلطان ^(٢) عضد الدولة أبوشجاع بن ركن الدولة بن بويه ولياً . ملكة فارس بعد عمه عماد الدولة ، ثم قوى على ابن عمه عز الدولة بختيار بن معز الدولة ، وأخذ منه العراق وبغداد ، وزوج ابنته للخليفة الطائع العباسي ، وبلغ سلطانه مع سعة المملكة والاستيلاء على الممالك ما لم يبلغه أحد من بنى بويه ودانت له البلاد والعباد ، وهو أول من خطب له على المنابر فى بغداد بعد الخلفاء ، وأول من صُربت الدبابدب على باب داره ، وكان فاضلاً نحويًا ، وله مشاركة فى فنون كثيرة ، وأول من

(١) المرجع السابق ص ١٢٩ ، ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ .

خوِطِبَ بِالْمَلِكِ شَاهَنْشَاهَ فِي الْإِسْلَامِ . قَالَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ مِنْذَ تَلَقَّبَ شَاهَنْشَاهَ (*)
تَضَعُضِعُ أَمْرَهُ ، وَمَا كَفَاهُ ذَلِكَ حَتَّى مَدَحَ نَفْسَهُ فَقَالَ :

عَضَّدَ الدَّوْلَةَ وَابْنَ رَكْنِهَا مَلِكَ الْأَمْلاَكِ غُلَّابَ الْقَدَرِ
وَيَشَاءُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ بِأَخْذِهِ فَرَاخَ يَرْدَدُ قَوْلَ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْوَزِيرِ نَادِمًا
عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ :

قَتَلْتُ صُنَادِيدَ الرَّجَالِ فَلَمْ أَدَعْ عَدُوًّا وَلَمْ أُمְهِلْ عَلَى ظَنَّةٍ خَلَقْنَا
وَأَخْلَيْتُ نُورَ الْمَلِكِ مِنْ كُلِّ نَازِلٍ وَبَدَّدْتُهِمْ غَرِبًا وَشَرَّدْتُهِمْ شَرْقًا
ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي وَيَقُولُ « مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهِ . هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ » وَصَارَ يَرُدُّهَا
إِلَى أَنْ مَاتَ فِي شَوَالٍ بِبَغْدَادَ وَلَهُ سَبْعٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً ، وَتَوَلَّى الْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ ابْنَهُ
صَصَامَ الدَّوْلَةِ . (وَهُوَ الَّذِي اسْتَوَزَرَ ابْنَ سَعْدَانَ الَّذِي كُنِيَ عَنْهُ أَبُو حَيَّانَ بِالْوَزِيرِ
الْعَارِضِ) .

وَفِي أَوَّلِ الْعَامِ الْلاحِقِ (٢٧٣ هـ) أَظْهَرَتْ وَفَاةَ عَضَّدِ الدَّوْلَةِ ، وَحُمِلَ تَابُوتُهُ إِلَى
الْمَشْهَدِ ، وَجُلَسَ ابْنُهُ صَصَامُ الدَّوْلَةِ لِلْعَزَاءِ ، وَجَاءَهُ الْخَلِيفَةُ الطَّائِعُ مَعْزِيًّا ، وَلَطَمَ عَلَيْهِ
النَّاسُ فِي الْأَسْوَاقِ أَيَّامًا عَدِيدَةً ، ثُمَّ رَكِبَ صَصَامُ الدَّوْلَةَ إِلَى دَارِ الْخِلَافَةِ ، وَخَلَعَ عَلَيْهِ
الْخَلِيفَةُ الطَّائِعُ عَبْدَ الْكَرِيمِ سَبْعَ خَلَعٍ ، وَعَقَدَ لَهُ لَوَاعِينَ وَلَقَّبَ شَمْسَ الْمَلَّةِ ، وَبَعْدَ فِتْرَةٍ
يَسِيرَةٍ وَرَدَ الْخَبَرُ عَلَى صَصَامِ الدَّوْلَةِ بِمَوْتِ عَمِّهِ مُؤَيَّدِ الدَّوْلَةِ ، فَجُلَسَ صَصَامُ الدَّوْلَةِ
أَيْضًا لِلْعَزَاءِ ، وَجَاءَهُ الْخَلِيفَةُ الطَّائِعُ مَرَّةً ثَانِيَةً مَعْزِيًّا فِي عَمِّهِ مُؤَيَّدِ الدَّوْلَةِ ، وَلَمَّا مَاتَ
مُؤَيَّدُ الدَّوْلَةِ كَتَبَ وَزِيرُهُ الصَّاحِبُ اسْمَاعِيلُ بْنُ عَبَادٍ إِلَى أَخِيهِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ عَلَى بْنِ رَكْنِ
الدَّوْلَةِ بِالْإِسْرَاعِ إِلَيْهِ ، وَضَبِطَ مَمَالِكَ أَخِيهِ مُؤَيَّدِ الدَّوْلَةِ ، فَقَدَّمَ فَخْرَ الدَّوْلَةِ إِلَيْهِ وَمَلَكَ بِلَادَ
أَخِيهِ وَاسْتَوَزَرَ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَادٍ ، وَعَظَّمَ ابْنَ عَبَادٍ فِي أَيَّامِ فَخْرِ الدَّوْلَةِ إِلَى الْغَايَةِ .

وَبِذَلِكَ نَصَلَ إِلَى الْغَايَةِ الْمُنَشَّوْدَةِ مِنْ سَرْدِ تَارِيخِ دَوْلَةِ بَنِي بُوِيهِ ، أَيْ وَهَلْنَا إِلَى
مُؤَيَّدِ الدَّوْلَةِ الَّذِي تَوَفَّى سَنَةَ ٢٧٣ هـ وَالَّذِي اسْتَوَزَرَ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَادٍ مِنْذَ سَنَةِ ٣٦٧
هـ حَتَّى وَفَاتِهِ فِي عَامِ ٢٧٣ هـ وَبِمَوْتِهِ ضَمَّ أَخُوهُ فَخْرُ الدَّوْلَةِ أَمْلاَكَهُ إِلَيْهِ وَاسْتَوَزَرَ
الصَّاحِبَ بْنَ عَبَادٍ حَتَّى وَفَاةِ الصَّاحِبِ فِي سَنَةِ ٣٨٥ هـ .

وَعَلَمْنَا مِنْ هَذَا السَّرْدِ الطَّوِيلِ أَنَّ أَبَا الْفَضْلِ بْنَ الْعَمِيدِ كَانَ وَزِيرًا لِرَكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ
بُوِيهِ حَتَّى وَفَاةِ أَبِي الْفَضْلِ سَنَةَ ٣٦٠ هـ ، وَلَا كَانَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَادٍ قَدْ تَوَلَّى الْوِزَارَةَ

(*) نَهَى الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَنَادَاةِ الْمَلِكِ بِالشَّاهَنْشَاهِ (لأن معناها ملك الملوك) .

تخلّفه مؤيد الدولة منذ عام ٣٦٧ هـ ، فإن الفترة الوجيزة بين هذين العامين (من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٦ هـ) قد استوزر فيها ركنُ الدولة أبا الفتح بن العميد خلفاً لأبيه أبي الفضل ، وبذلك يتّضح أن كتاب (مثالب الوزراء) الذي ألّفه أبوحيان التوحيدي هو في أبي الفتح بن العميد والصاحب بن عباد . بينما يتّضح أن كتاب «الإمتاع والمؤانسة» هو كل مادار من محاوراة بين أبي عبدالله بن سعدان وأبي حيان ، حينما كان ابن سعدان وزيراً لصمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه وتأكيداً لذلك نقرأ الفقرة التالية كما أوردها ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة « السنة التاسعة ^(١) من ولاية العزيز نزار على مصر وهى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة فيها دخلت القرامطة البصرة لما علموا بموت عضد الدولة ولم يكن لهم قوة على حصارها ، فجمع لهم مال فأخذوه وانصرفوا . وفيها وقع الصلح بين صمصام الدولة وبين عمه فخر الدولة ، بمكاتبة أبي عبدالله بن سعدان إلى الصاحب بن عباد . فكان ابن سعدان يخاطب الصاحب بن عباد بالصاحب الجليل ، والصاحب بن عباد يخاطب ابن سعدان بالأستاذ مولاي رئيسي» زد على ذلك ماسبق ذكره فى المقدمة ، ونقصد بذلك ما جاء فى كتاب الإمتاع والمؤانسة أن أباحيان قص على الوزير أنه سمع رجلاً على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقية الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة / سبحان الله عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض ، فلما سمع الوزير ذلك قال (لأبي حيان) هكذا حدثني أبو الوفاء صديقك : فاستأذنت الملك فى دفن ابن بقية فدُفن ، وتحليل هذه الواقعة نقول : الملك المراد فى هذه القصة هو صمصام الدولة لأنه تولّى الملك بعد وفاة أبيه عضد الدولة والوزير الذى قال . أستاذت الملك فى دفن ابن بقية هو الوزير أبو عبدالله بن سعدان كما اتضح من الفقرة عن ابن تغرى بردى والتى تؤكد أنه تولى الوزارة لصمصام الدولة ، وكان وزير عمه فخر الدولة حينئذ الصاحب بن عباد ، وعن طريق هذين الوزيرين ثم التصالح بينه وبين عمه بعد وفاة أبيه .



(١) المرجع السابق ص ١٤٥ .

ثانياً : عصره العلمى والأدبى :

لاتلازم بين الحالة السياسية والحالة العلمية ^(١) والأدبية . ذلك أنه من الحقائق الملموسة من استقرار التاريخ ان الحركات العلمية والأدبية لا تتمشى مع التطور السياسى أو تتجاوب بذات الدرجة مع التقلبات السياسية . فالسياسة تتسم بالتغير المفاجئ ، وقد تجئ على مهل وتدبير ، أمّا الحركات العلمية والأدبية فلا بد لها من تمهيد طويل ، ولا بد لانقطاعها أو ضعفها من مهلة تطول أو تقصر .

فالدولة العباسية فى ذلك القرن - الرابع الهجرى - قد تدهورت وتمزقت وأوصالها ، واستبدت فى أنحاء كثيرة منها القوميات المختلفة غير أنها رغم هذا الاضمحلال فإن النشاط العلمى والأدبى دأب فى طريقه إلى آفاق رحبة . ولذلك أسباب أهمها :

١ - ان التيار الذى كان قوياً مندفعاً فى القرن الثالث مازال على قوته واندفاعه فى القرن الرابع الهجرى ، ولم يتأثر بالعوامل السياسية المفاجئة .

٢ - أن الملوك والأمراء الذين صاروا قائمين بشئون الحكم والسياسة فى أقاليمهم وجدوا الخير لهم فى تقريب العلماء ، وتشجيع الأدباء ، وسواء أكانوا يبتغون من ذلك محاكاة خلفاء بنى العباس الأوائل ، أم يريدون أن يصفوا على ملكهم هالة من الأبهة والمجد وحسن الأحدث ، أو يتخذوا من العلماء والأدباء أعوانا لهم فى شئون الملك والسياسية ، فقد نتج عن ذلك ازدهار الحياة العلمية والأدبية .

٣ - ومع هذا فقد اشتهر آل بويه بالعلم والأدب ، وهم ليسوا بعرب ، فكان عز الدولة بن المعز شاعرا ، وكان عضد الدولة وابنه تاج الدولة أدبيين وكذلك أبوالعباس بن ركن الدولة ، على أن عضد الدولة كان نابغا فى عدة علوم . لذلك ظهر ميلهم فى اختيارهم الوزراء والمقربين اليهم ، فكان أكثر وزرائهم كتابا أو شعراء أو علماء ، فمعز الدولة استوزر الحسن المهلبى ، وركن الدولة استوزر ابن العميد وابنه أبا الفتح ، ومؤيد الدولة ، ثم أخوه فخر الدولة استوزرا صاحب بن عبّاد .

٤ - على أن بنى حمدان بالموصل ^(٢) وحلب وهم عرب خلّص كانوا شعراء وأدباء كسيف الدولة الحمدانى وابن عمه أبى فراس ، ومع هذا فقد غُص بلاطهم بالشعراء والأدباء والعلماء . فهذا أبو الطيّب المتنبى قضى فى كنف سيف الدولة

(١) د. أحمد محمد الحوفي - أبوحيان التوحيدي ج/١ ص ١٦، ١٧، ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٧ ، ١٨ .

تسَعُ سنوات وقصد سيف الدولة علماء وأدباء كثيرون منهم السُرِّي الرِّفَا
وأبو العباس النامي وأبو الفرج البيغاء وابن نباتة السعدي وأبو الفرج الأصفهاني
وعبد الرحيم ابن نباتة والفارابي وابن خالويه .

٥ - وكان الغزنويون مشغولين بالفتح ، لكن حروبهم لم تصرفهم عن ماصرة العلم
والأدب ، ولم تشغل الحروب السلطان محموداً عن اجتذاب الأدباء والعلماء الى
حاضرة ملكه ، فهو الذي كتب الى أمير خوارزم يقول له: علمت أن في مجلسك
جماعة من العلماء المبرزين ، فأرسلهم إليّ ليشرف بهم مجلسي ، ونستفيد من
علمهم ، وهو الذي أشار على الفردوسي أن يتم الشاهنامة التي بدأها الدقيقي
باقترح من نوح بن منصور الساماني .

٦ - وأما مصر في عهد الأخشيدي^(١) ثم في عهد الفاطميين فقد اهتم الحكام بالعلماء
والأدباء فهذا أنوجور الأخشيدي يستوزر أبا القاسم جعفر بن الفضل بن الفرات،
وهذا أبو الطيب المتنبي يزور مصر في ولاية ابي المسك كافور ويأسره كرم أبي
شجاع فاتك أكبر ممالك الأخشيدي إذ طوّقه بهداياه قبل أن يمدحه وبعث إليه هدية
قيمتها ألف دينار ثم اتبعها بهدايا أخرى فاستاذن كافورا في مدحه فأذن له
فمدحه بالقصيدة التي يقول فيها .

لا خيلَ عندك تُهديها ولا مالُ فليسعدِ النطقُ إن لم تُسعدِ الحالُ
ولعلَّ مدح المتنبي لفاتك كان من أهمّ عداوة كافور له . ولم تشفع له كافورياته التي
قال في إحداها بعد تركه سيف الدولة بن حمدان :

قواصد كافور توارك غيره ومن ورد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيا
٧ - وهي أول قصيدة مدح بها كافورا ثم مدحه بعد ذلك بقصيدته التي يقول فيها .

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه وإن لم أشأ تملأ على فاكتب
إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه ويمم كافورا فما يتغرب

(١) جمال الدين أبوالمحسن ، النجوم الزاهرة - ج/ ٣ ص ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٣٠ .

وهذا الاستشهاد للتدليل على اهتمام كافور الأخشيدي بالأدباء والعلماء مع أنه كان من الرقيق الذي اشتراه الأخشيد وفى ذلك يقول الذهبى « وكان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكان تقرأ عنده فى كل ليلة السير والأخبار للدولة الأموية والعباسية ... » .

٨ - والفاطميون منذ أن نشأت دولتهم بالمهدية سنة ٢٦٧ هـ احتضنوا العلماء والأدباء ثم حينما فتحوا مصر والشام اتخذوا مصر عاصمة لهم من عام ٣٥٧ هـ الى عام ٥٦٧ هـ وهم يجلبون العلماء والأدباء فهذا شاعر الأندلس محمد ^(١) بن هانى الأندلسي يودع قائد الفاطميين وهو يتأهب بجنده لغزو مصر - يودعه بقصيدته المشهورة التى يقول فيها :

رأيتُ بعينى فوقَ ما كنتُ أسمعُ وقد راعنى يومٌ من الحشر أروعُ
غداةَ كأنَّ الأملقَ سُدَّ بمثله فعادَ غروبُ الشمسِ مِنْ حيثُ تطلعُ
فلم أدِرْ إذْ ودَّعتُ كـيِّفَ أودَّعُ ولم أدِرْ إذْ شَيَّعتُ كـيِّفَ أَشَيَّعُ

استكمال نقل الفلسفة اليونانية الى العربية ظاهرة جديدة فى الحركة ^(٢) العلمية والأدبية : فقد تم فى القرن الذى عاش فيه أبويحان والقرن الذى يليه نقل الفلسفة اليونانية الى العربية ، ومن أشهر النقلة : أبويشر متى بن يونس القنائى (المتوفى ٢٢٨ هـ) وأبوزكريا يحيى بن عدى المطلقى (المتوفى حوالى سنة ٣٦٤ هـ) وأبوعلى اسحاق بن زُرعة (المتوفى ٤٤٨ هـ) وأبو الخير بن الحسن بن الخمار (ولد سنة ٣٣١ هـ) وقد اتصل أبويحان التوحيدى بهؤلاء وبغيرهم ، وتلمذ على أيديهم وأفاد منهم كثيرا .

سمات الحركة العلمية والأدبية فى القرن الرابع الهجرى :

١ - استكملت العلوم أسباب النضج والنماء ، وظهر ذلك جليا فى المعاجم اللغوية والفلسفة والطب والطبيعيات ، والتاريخ وتقويم البلدان وغيرها مما صنفوه أو نقلوه عن اليونان والفرس والهنود .

٢ - انتهى تطور النثر الفنى الى أسلوب خاص ^(٣) : إذ امتازت أكثر كتاباتهم بالتفنن فى التعبير وجنحوا إلى الصناعة والسجع ، واحتفلوا باللفظ ومالوا إلى التطويل واثير الخيال الشعري وغير ذلك من السمات .

(١) المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ ، ج/٤ .

(٢) د. أحمد محمد الحوفى - أبويحان التوحيدى ج/١ ص ١٨ ، ١٩ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٠ ، ٢١ .

- ٣ - ظهرت القصص والمقامات .
- ٤ - كثرت المكتبات الخاصة والعامة .
- ٥ - ازدهر المذهب الشيعي لأن آل بويه في الشرق شيعة ولأن الفاطميين في مصر أشد منهم تشيعاً ، وكذلك القرامطة وهم من غلاة الشيعة في العراق والشام .
- ٦ - شاعت في العالم الإسلامي مذاهب تلت في القرن الرابع ، وتزاحمت في البلد الواحد واشتد بينها الصراع ففي بغداد نحل تلت متناحرة ، وفي العراق والأموان وفارس وأصبهان وخراسان مجوس من أتباع زرادشت يعبدون النار ، وفي البصرة قدرية وشيعة وحنابلة - وفي مصر سنية وشيعة - وفي خوزستان معتزلة - وفي كل إقليم تدين وحنابلة وشافعية ، وكثيراً ما تحدث الفتن بين الحنابلة والشافعية أو بين النونية والسنة .
- ٧ - خفت حدة الشعور بالشعوبية بقيام دول غير عربية رغم اعتراف بعضها بالخلافة العباسية فقد خضعت بعض الأقاليم لبني بويه وقوي نفوذ القرامطة في العراق والحجاز والشام ، وقامت الدولة الغزنوية الشيعية في خراسان وما وراء النهر وشمالي الهند .
- ٨ - ظهرت شخصية العواصم والمدن واضحة في نسبة علمائها وأدبائها إليها : كالأصفهاني والرازي ، والمروزي والبخاري والقمي والنيسابوري .
- ٩ - كانت اللغة العربية هي لغة الأدب والحكومة في القرن الرابع .
- ١٠ - اصطبغ شعر بعض الشعراء بصبغة إقليمية واصطبغ شعر آخرين بالفلسفة كابن العلاء .
- ١١ - خلفت العواصم التي ينتمون إليها بغداد في الريادة فصارت مثابة الأدباء والعلماء ، والفلاسفة والشعراء .
- ١٢ - حسب القرن الرابع الهجري ان يتألق في سمائه عشرات من كبار الكتاب ، وعشرات من العلماء والفلاسفة ، فمن الكتاب الخوارزمي وديع الزمان الهمداني وابن عباد وأبو الفضل بن العميد والشريف الرضي وأبو الفرج^(١) الأصفهاني وأبو اسحاق الصابي وأحمد بن يوسف وعلي بن عبد العزيز الجرجاني .
- ومن الفلاسفة والعلماء : مسكويه والفارابي وابن سينا وابن زريق وابن الأنباري وابن فارس والامدي والباقلاني والرازي وابن حزم وابن شهيد وأبو أحمد العسكري وأبو هلال العسكري والحاتي والمرزباني والثعالبي .

(١) المرجع السابق ص ٢١

ثالثاً : الحالة الثقافية :

لأنستطيع الفصل بين أدب أبي حيان السياسى والحالة الثقافية ، ذلك - لأن الثقافة هى صدى الأحداث السياسية والاجتماعية ، وصورة الحياة الاقتصادية وسجل الأفكار الدينية والمذهبية والقضايا الفلسفية ، وإن أهم كتب أبي حيان وهو « الإمتاع والمؤانسة » يلقى نورا على الطريق فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . نعى العصر البويهى وهو عصر مغبش بالظلام - (كما تبين لنا من عرض بعض الأحداث السياسية والكوارث التى تعرض لها العالم الإسلامى فى ذلك الوقت) والكتاب المذكور يتعرض لكثير من ^(١) الشؤون الاجتماعية فى ثنائيا حديثه ، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان ومحاسنهم ومساوئهم ، ويصف العلماء ، ويحلل شخصياتهم ، وما كان يدور فى مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب ، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين ، كالمناظرة الممتعة التى جرت بين أبى سعيد السيرافى ومتى بن يونس القنائى فى المفاضلة بين المنطق اليونانى والنحو العربى ، ورأى العلماء فى الشعبية ، والمفاضلة بين الأمم ، الى كثير من أمثال ذلك ، وفي الكتاب النص الوحيد الذى كشف لنا عن مؤلفى إخوان الصفا ، وقد نقله القفطى منه ، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل (إخوان الصفا) ومن ألفها . وعن القفطى نقل هذا النص كل من كتبوا عن إخوان الصفا .

كما أن فى الكتاب فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيرا حالة الشعب فى عصره ، وموقفهم من الأمراء والملوك وهيجانهم واضطرابهم ، وأسباب ذلك. فأبو حيان فى هذا الكتاب وفي غيره من الكتب التى صنفها كما يقول ياقوت الحموى «شيخ فى الصوفية» وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وأمام البلغاء « والدكتور الحوفى ^(٢) يفضل عن كثير من أرباب الكتابة والصناعة اللفظية فيقول « أيقنت أن الرجل مغبون القدر ، مهضوم المكانة . وأيقنت أنه أجدر بالدراسة والتقدير من أرباب الصناعة اللفظية الذين ذاعت شهرتهم فى حياتهم وبعد مماتهم ، وما زالوا يدرسون إلى اليوم على أنهم زعماء مدرسة ، أو أصحاب طريقة فى الكتابة ، كابن العميد وابن عباد والقاضى الفاضل ولسان الدين بن الخطيب. والحق أن أبا حيان يفضل هؤلاء جميعا ، ويفضل أضرابهم من كتّاب الزخرفة والزينة ، كبدیع الزمان الهمذانى والحيرى » .

(١) أحمد أمين وأحمد الزين - مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة مواف .

(٢) د. أحمد محمد الحوفى - أبوحیان التوحیدی - مقدمة الكتاب .

* فأبوحيان نتاج القرن الرابع قرن النضج^(١) الثقافي والعلمى ، وكان أبوحيان مكتبة جامعة لأكثر مجالات هذه الثقافة ، فهو عالم واسع المعرفة ، متنوع الثقافة ، خبير باللغة والنحو والأدب والكلام والتصوف والفقه والفلسفة ولم يذر من هذه العلوم سوى الطب والكيمياء والرياضة .

استيعابه لمعارف وعلوم عصره :

وقد استقى كل هذه المعارف والعلوم مما يلي :

١ - استقاهها من الكتب التى كان ينسخها بعد قراءتها واستيعابها . فقد كان يتخذ حُرْفة الوراقه ونسخ الكتب مصدر رزق له ، وهذا ساعده على التمعن فيها والإفادة منها . وهو يشبه الجاحظ فى هذا المضمار ، فقد كان الجاحظ يكترى دكاكين الوراقين ، ويجلس فيها للنظر والقراءة ، أما أبوحيان فقد كانت الوراقه حرفته وسهل عليه الإفادة منها .

٢ - لم يكن لأبى حيان عمل آخر يشغله عن البحث والدرس فى بطون هذه الكتب .

٣ - لم تمنعه هذه الحرفة من مجالسة العلماء والتردد على مجامعهم والأخذ من المشهورين منهم .

ففى الفلسفة : درس على أبى زكريا يحيى بن عدى المنطقى ، وقرأ فى بغداد على أبى سليمان المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني) كتاب النفس لأرسطو . وكان أبوسليمان أكبر علماء بغداد فى الفلسفة والمنطق .

كذلك تتلمذ على أبى محمد المقدسى العروضى ، وأبوالفتح النوشجاني ، وأبوزكريا الصيّمرى ، وأبوبكر القُومِسى ، وعيسى بن على ، ومسكويه ، وكتابه (الهوامل والشوامل) إن هو إلا أسئلة سأل أستاذاه مسكويه عنها فأجابه عنها . ومن أساتذته الحسن العامرى وأبوالنفيس الرياضى ، وعلى بن عيسى الرمانى ، وقد أثنى عليه فى كتابه (تقريظ الجاحظ) .

وكان أبوحيان على صلة^(٢) بنقّلة الفلسفة اليونانية إلى العربية فى القرن الرابع كأبى بشر متى بن يونس القنّائى ، وأبى زكريا يحيى بن عدى المنطقى ، وأبى على إسحاق بن زُرعة ، وأبى الخير بن الحسن ابن الكمار.

(١) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ .

وأما الفقه والحديث : فقد ذكر السبكي أنه درس الفقه الشافعي على القاضي أبي حامد المروروزي وسمع الحديث من أبي بكر الشاشي وأبي سعيد السيرافي وجعفر الخلدی ، وعلى أبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني أعلم الناس بفقه الطبري .

وذكره الأسنوي في طبقات الشافعية لكن لانعرف لأبي حيان مذهباً خاصاً في الفقه ، بل لم يؤثر عنه سوى الفتيا في مسألتين . الأولى داء الكلب الذي يعتري الجمال ، والثانية الربا في الزعفران ولانعتقد أن فتواه في هاتين المسألتين كان اجتهداً منه بل ربما كان رأياً منقولاً عن سابقيه.

وفي اللغة والنحو . تنبئ كتبه عن علم واسع باللغة ، من حيث مفرداتها والخبرة بدقة استعمالها ، والمهارة في تركيبها ، وقد استمدها من مشافهة الأعراب في البادية ، ومن العلماء الذين درس عنهم ، وأعظمهم قدراً أبوسعيد السيرافي ، فقد قرأ عليه شرحه لكتاب سيبويه وعو معجب بأبي سعيد إعجاباً عظيماً ، إن يقول عنه إنه الإمام ويقول إنه شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل المفقود الشكل .

ومن ذلك قوله في كتابه (تقريظ الجاحظ) أبوسعيد السيرافي شيخ الشيوخ وإمام الأئمة، معرفة بالنحو والفقه واللغة والشعر والعروض والقوافي والقرآن والفرائض والحديث والكلام والحساب والهندسة . أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذبح أبي حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عثر منه على زلة . وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطه فما جراه فيه أحد ، ولا سبقه إلى تمامه إنسان . هذا مع الثقة والديانة والأمانة في الرواية ، صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله .

وأبوسعيد السيرافي هو الحسن بن عبدالله^(١) بن المرزبان ، النحوي القاضي ، كان أبوه مجوسياً واسمه بهزاد فأسلم فسمى عبدالله ، سكن الحسن بغداد ، وولى القضاء بها ، وكان مفتياً في علوم القراءات والنحو واللغة والفرائض والكلام الخ - توفي سن ٣٦٨ هـ .

وفي علم الكلام : وهو العلم الذي^(٢) سمي أولاً بالنظر في العقائد والأحكام الدينية فقها ، ثم أطلق عليه الفقه الأكبر على الاعتقادات ، والفقه في المعاملات . ثم اختص بالعقائد فسمى علم العقائد أو التوحيد أو علم الصفات أو علم الكلام ؛ وسمى كذلك

(١) أبوالمحاسن حماد الدين تغري بردي - السحوم الراهرة ، الجزء الرابع ص ١٢٢

(٢) د. أحمد محمد الحوفي - أبوحيان التوحيد ص ٢٧ ، ٢٨ من الجزء الأول و ص ٢٦ ، ٢٧ من الجزء الثاني .

لأنه يكسب صاحبه قدرة على الكلام فى المسائل الشرعية كالمنطق فى المسائل الفلسفية، وفى هذا الصدد ذكر ياقوت فى حق أبى حيان فقال : « هو محقق الكلام » ، ومتكلم المحققين ووصفه السُّبكى بأنه متكلم صوفى . وقال ابن حجر : إنه سُمى التوحيدى نسبة الى التوحيد ، إذ كان المعتزلة يسمون أنفسهم أهل التوحيد .

وشيؤخه فى هذا المجال ، أبوسليمان المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام .. السجستاني) ويحيى بن عدى المنطقى ، ومسكويه وكتابه الهوامل والشوامل هو أسئلة فلسفية كلامية وجهها إلى أستاذه أبى على أحمد بن يعقوب بن مسكويه فيبحث إليه ابن مسكويه بأجوبة شافية كافية . والأسئلة التى يوجهها أبوحيان تدل على ذكائه وقدرته على الكلام ، ومع أنه يستطيع أن يجيب على كل سؤال يطرحه إلا أنه فضل أن يسمع رأى أستاذه مسكويه ثقة منه أنه أكثر إفادة وإقناعاً وكذلك كان شأنه مع الأساتذة الذين يجلُّهم .

ومن ذلك القبيل سؤاله أباسليمان المنطقى ^(١) الفيلسوف عن الفرق بين طريقة المتكلمين وطريقة الفلاسفة (فى الإقناع) فأجابه بأن طريقة الفلاسفة أصح وأقوم وسجل هو إجابته أبى سليمان ولم يناقشه فيها ولم يعقب عليها . وكذلك كان أمينا فى حمل رأى أبى سليمان ^(٢) المنطقى عن جماعة إخوان الصفا الى مجلس ابن سعدان ، فقال أبوحيان عن رسائل إخوان الصفا (حملت جملة منها الى أبى سليمان المنطقى وعرضتها عليه ، ونظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، ثم ردّها على وقال : تعبوا وما اغنوا ، ونصبوا وما أجدوا وحاموا وما وروا ، وغنّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ... ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا استطاع ، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة فى الشريعة ، وأن يضموا الشريعة للفلسفة ، وهذا مرام بونه حدّ (مشقات) وقد توفر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحد أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وارفح أخطاراً .. فلم يتم لهم ما أرادوه ، وحصلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات فاضحة ، وألقاب موحشة ، وعواقب مخزية ، وأوزارٍ مثقلة .

وأما التصوف : فأبوحيان من المتصوفين الأوائل الذين ساروا فى درب التصوف ، وهى رحلة طويلة بدأها بالتفقه فى الدين ، ودراسة علم الكلام للرد على المناطقة والمتفلسفين ، وكان نتاج رحلة التصوف كتابه الإشارات الإلهية والرسالة الصوفية

(١) المرجع السابق ج/١ ص ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٠ ، ص ١٠ من الجزء الثانى .

ورسالة في أخبار الصوفية ولم تخلُ كتبه الأخرى من المواقف التصوفية ، ففي كتابه المقابسات الذي سجّل فيه ماسمعه من فطاحل العلماء في بغداد بمجلس أستاذه أبي سليمان المنطقي ، في هذا الكتاب لمحات تصوفية شفافة : مثل الموضوعات الفلسفية التي تدعو الى الفضيلة والأخلاق السامية ، ومادار حول حتمية المعاد والنوم شاهد على المعاد ، ونقل على أبي مقداد كلاماً في الناموس ، ونقل دفاع أبي سليمان عن البعث وزاد عليه من عنده ، ومن موضوعات كتاب المقابسات موضوع في شرف الزمان والمكان وتفاوت الناس في الفضيلة .

وأما في الشعر : فإن أباحيان لم يكن شاعراً ولا شبه^(١) شاعرٍ ، ولا يقدح في ذلك أن له بضعة أبيات من الشعر لأن القدر الضئيل لا يدل على شاعريته ، ولا على ممارسته للشعر التي تسلكه في عداد الشعراء المقلّين .

وهو نفسه يعترف بذلك في قوله لابن سعدان إذ سأله عن أصحابه الشعراء ، وحكمه عليهم ، ورأيه فيهم « لست من الشعر والشعراء في شيء ، وأكره ان أخطو على دحض أي مزلة - لا أحتسى غير محض » فلما ألح عليه ابن سعدان وصفهم له وصف الخبير البصير الحاذق . على أنه ملا بعض كتبه بشعر مختار جيد ، كما في الصداقة والصديق ، ونقل عن ابن المعتز وأثنى عليه . وكان هذا رأى الدكتور الحوفي في أبي حيان التوحيدي شاعراً .

على أن لي أن أتساءل إذا لم يكن أبوحيان شاعراً فلماذا لم ينسب الأشعار لقائلها ، فكثير من الأشعار التي كان يستشهد بها في كتبه ، خاصة في « الإمتاع والمؤانسة » - كما أعتقد - كان ينشئها إنشاءً لتناسب المقام على طريقة مقامات البديع الهمداني ، ففي ليلة جعلها ابن سعدان مجونية ليأخذ بنصيب من الهزل بعد الكلال من المحاورات الجدّية ، وقال له : هات ما عندك ، فكان ما استشهد^(٢) به قصيدة مجونية طويلة ، وقد اعتذر محققا الكتاب عن إيرادها قائلين « ولولا الأمانة العلمية والإخلاص للتاريخ لحذفنا أكثرها واكتفينا بما لطف ورق » فعند استشهاده بهذه القصيدة يقول :

(١) المرجع السابق ج/١ ص ٤٢ (ولنا رأينا في هذه القضية وهو الوارد بعد إيراد رأى الدكتور الحوفي كما ذكره المرجع السابق).

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي / الليلة الثامنة عشر ص ٥٠ ، ٥١ الجزء الثاني .

قال الشاعر ولم يخبرنا من هو وفيها يقول :

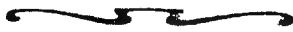
أَصْبَحْتُ مِنْ سُفْلِ الْأَنَامِ	إِذْ بَعْتُ عِرْضِي بِالطَّعَامِ
أَصْبَحْتُ صَفْعَانًا لئِي	مَ النَّفْسُ مِنْ قَوْمٍ لئَامِ
فِي إِسْتِ رَبَّاتِ الْخِيَا	مَ وَمَنْ يَحْنُ إِلَى الْخِيَامِ
يَاعَاذِلِي أَسْرَفْتُ فِي	عَذْلِ الْخَلِيعِ الْمُسْتَهَامِ
رَجُلٍ يَعْضُ إِذَا نَصَبَ	حَتَّ لَهُ عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ
دَع عَنْكَ مَنْ يَعْصِي الْعَذْوِ	لَ وَلَا يُصَيِّخُ إِلَى الْمَلَامِ
خَلَعَ الْعِذَارَ وَلاحَ فِي	ثَوْبِ الْمَعَاصِي وَالْأَثَامِ
وَتَرَاهُ يَرْعَدُ حِينَ يُذْ	كَّرَ عِنْدَهُ شَهْرُ الصِّيَامِ
خَوْفًا مِنَ الشَّهْرِ الْمَعْدُ	بِ نَفْسِهِ فِي كُلِّ عَامِ
سَلِسُ الْقِيَادِ إِلَى التَّصَا	بِي وَالْبَلَاهِي وَالْحَرَامِ

فإن كان أبوحيان يستتكف من الانضواء تحت لواء الشعراء لكى لا ينسب إليه ذلك النوع الخليع من الشعر فهل يأنف من الانتساب إليهم من يقول :

إِنَّ الْغَرِيبَ بِحَيْثُ مَا	حَطَّتْ رِكَائِبُهُ ذَلِيلُ
وَيَدُ الْغَرِيبِ قَصِيرَةٌ	وَلَسَّانُهُ أَبْدًا كَلِيلُ
وَالنَّاسُ يَنْصُرُ بَعْضُهُمْ	بَعْضًا وَنَاصِرُهُ قَلِيلُ

ثم أليس البيتان التاليان هما من شعر أبي حيان وهما البيتان اللذان أنشدهما الوزير أبا عبد الله العارض في أول الليلة الرابعة من ليالي "الإمتاع والمؤانسة" .

كَلَانَا سِوَاءُ فِي الْهَوَى غَيْرَ أَنَّهَا	تَجَلَّدُ أَحْيَانًا وَمَا بِي تَجَلَّدُ
تَخَافُ وَعِيدَ الْكَاشِحِينَ وَإِنَّمَا	جُنُونِي عَلَيْهَا حِينَ أَنْهَى وَأُبْعَدُ



رابعاً : صلة أبي حيَّان بمنشئ الكتابة الديوانية :

نعلم جميعاً أنَّ الكتابة الديوانية قد بلغت شأواً عظيماً في القرن الرابع على يد كُتَّابٍ مبرزين يأتي على رأسهم ابن العميد ، عميد الكُتَّاب في ذلك القرن ، ثمَّ صاحب بن عباد الذي طبَّقت شهرته الأفاق ، والتفَّ حوله من الشعراء والكُتَّاب والعلماء والفلاسفة ما لم يبلغه أحد من وزراء بغداد وما يليها من الأقاليم . وأبوحيان التوحيدى وإنْ لم يكن من كُتَّاب الدواوين - قد تأثر أَيْماً بتأثر بالكتابة الديوانية بسبب مزاولته مهنة النسخ والتحرير ، فقد أتاحت له الفرصة السانحة للاطلاع والاستيعاب والمحاكاة .

نشأة الكتابة الديوانية :

أوجب اتساع الدولة الإسلامية منذ عصر الأمويين^(١) أن يكون هناك نوع من الكتابة الفنية ، سُمِّيت بالرسائل الديوانية ، يزاولها كتاب مختارون ومفتنون في الكتابة لبلوغ القصد من هذه الرسائل بأوجز العبارات وأبلغ المعاني ، وكان لاحتكاك العقلية العربية بالعقلية الفارسية ، أو العقلية السامية والعقلية الآرية أثر في إحكام هذا الفن ، ففي أوائل القرن الثاني حينما التقت هاتان الحضارتان طال نفس الرسائل طويلاً ملحوظاً ، وكان ذلك واضحاً في أسلوب عبد الحميد الكاتب آخر كُتَّاب بني أمية ، وابن المقفع أول الكتاب في العصر العباسي . وظهر بعد ذلك بقليل في التوقيعات في آخر الرسائل الذي اشتهر به كُتَّاب البرامكة .

وما زال الكتاب يطوِّلون رسائلهم ويجوِّدون في اختيار عباراتها ، ويُعنون بالترادفات ويكثرّون منها توضيحاً واسترسالاً حتى بلغ الترسلُ حد الكمال في أواسط القرن الثاني ، وفي القرن الثالث خرج الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ بأسلوب جديد ، فأضاف إلى الرسائل شيئاً جديداً عرف به ، هو الجمل المزدوجة وهي التي يعنى فيها الكاتب بأواخر الجمل في الوزن ، دون التزام بتوحيد الحرف الأخير ، وذلك ما يميز الأزواج عند الجاحظ من السجع الذي انتشر بعد عصره ، كما أضاف كُتَّاب القرن الثالث إلى هذا النمط من الأسلوب الإطالة في مقدمات الرسائل ، ومنها التحميدات ، كذلك عُنوا بخواتيمها ، وأصبحت الرسالة تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هي : المقدمة وموضوع الرسالة والخاتمة . أما السجع فقلما ظهر في أسلوبهم وإن ظهر كان من النوع السهل المطبوع الذي يفلت من ثنایا القلم دون تكلف ، أو إعمال فكر كما تقلت البادرة الجميلة أثناء الكلام .

(١) الآداب الإقليمية - د حامد حفنى داود - ص ٢٦ ، ٢٧ .

ويعتبر القرن الثالث ^(١) قرن الكتابة بحق ، فهو فضلا عن عناية الكتّاب بالترسلُ وبعدهم عن التكلف والسجع المصنوع ، والمحسنات البديعية ظهر من بينهم فلاسفة النقاد الذين حرصوا كل الحرص على الأسلوب الرصين في الكتابة . منهم أبوعثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، أما الجاحظ فقد رسم ببيانه الأسلوب الجيد في الكتابة ، وكأنه كان في صنعه نموذجا للمحاكاة الفنية في أسلوب الكتابة ، بينما وقف ابن قتيبة موقف الناقد اليقظ الذي يحمل على الكتّاب الخارجين عن أنماط العربية في الكتابة ، ولأمر ما ألف كتابه « أدب الكاتب » في فن الكتابة ، معرّفا كتّاب عصره بالأسلوب الصحيح الذي يجب احتذاؤه ، مشدداً اللوم والنكير على هؤلاء الذين أسرفوا في النهل من الثقافة اليونانية ، والذين تأثروا بالفاظ الفلاسفة ، واستخدموا مصطلحاتهم الفلسفية في كتاباتهم بقصد التشديق وإظهار العلم حتى خرجوا عن أسلوب الترسلُ المقبول في العربية .

تطور فن الكتابة في القرن الرابع الهجري .

فلما كان القرن الرابع ، وخفّت حدة النقد على الكتّاب والشعراء تشبث الكتاب بالصناعة اللفظية ، وكان أول الداء انتشار السجع في أساليبهم ، وقد بدأ السجع المصنوع أول الأمر في أساليب كتّاب ديوان الخليفة المقتدر كابن الفرات وابن مقلّة :
وتفصيل ذلك ان كتاب القرن الرابع لم يكتفوا بما صنعه أسلافهم من سجع قليل بل ساروا بأساليب الرسائل أشواطاً أخرى مثل :

- ١ - الإكثار من السجع المصنوع في أواخر الفواصل والتزموا بها التزاماً تاماً .
- ٢ - اضافوا الى التزام السجع في أساليبهم ^(٢) ما عُرِف في القرن الرابع من ألوان البديع سواء في ذلك اللفظي والمعنوي ، إلا أن هذا القرن كان قرن الشعر قليل النثر ، كما كان قرن التطور في حياة البديع والبلاغة العربية .
- ٣ - تأثر الكتاب في أساليبهم بالشعراء ، فأكثرُوا من تضمين رسائلهم بالشعر بعد أن كان هذا التضمين قليلاً في العصر السابق ... وهذا مرده إلى أن أكثر الكتّاب في ذلك القرن كانوا جميعهم يقرضون الشعر وهذه الظاهرة واضحة في أسلوب ابن العميد والصاحب وعبد العزيز بن يوسف وإبراهيم بن اسحاق العباسي وجميعهم من الكتّاب الشعراء .

(١) المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

وتُعزى البلاغة اللفظية من سجع وبديع وزخرفة لفظية وتضمنين للشعر فى هذا القرن الى اتصال العرب بالفرس منذ قامت الدولة العباسية على أيديهم والفرس أهل حضارة مادية وآثار فنية مجسمة وملونة ، ولاشك أن هذه الحضارات المادية انتقلت الى العرب ، وظهرت فى أنظمتهم السياسية ، كما ظهرت فى تقاليدهم وعاداتهم ومظاهرهم الاجتماعية ، وبدأت هذه الحضارة المادية واضحة فى كل شئ حتى فى ملابسهم وقصورهم وأبنيتهم بما فيها من أثاث وديش ، ثم تحول هذا التأنق المادى من المادة الى اللغة بحكم سنّة التطور ، ونظرية المؤثر والأثر فظهرت هذه الزخرفة فى أساليب الكتابة كما ظهرت فى أساليب الشعر .

ومن أشهر الكتاب فى الديوان العباسى ^(١) عبدالله بن المقفع ، وكان كاتباً لأعمال المنصور بالبصرة ، وخالد بن برمك وزير السفاح وكاتبه ، والموريانى وزير المنصور ورئيس ديوانه ، والربيع بن يونس الذى كتب للمهدى ... وظهر كتاب آخرون فى بلاد فارس حيث الدولة البويهية التى أخذت مكانة بغداد ، ومن ثم انتقلت زعامة الكتابة إلى بلاد المشرق على أيدي جماعة من أعلام الكتابة كابن العميد والصاحب وعبدالعزیز بن يوسف وأبى العباس من وزراء ملوك بنى بويه .

ابن العميد زعيم كتاب المشرق :

هو أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد ^(٢) ، ينتهى نسبه إلى أسرة فارسية بمدينة قم ، ولد سنة ٣٠٠ هـ وكان والده نخالا فى سوق الحنطة بهذه المدينة ثم ارتفع شأنه بالعلم وحسن التدبير ، وكان يكتب فى أول حياته لصاحب خراسان ، ثم اتصل بنى بويه ودبر معهم شئون دولتهم ، وهكذا نشأ ابنه أبو الفضل فى بيئة عالية اشتهرت بالكتابة الديوانية ، وحسن التدبير ، فاستوزره الملك ركن الدولة بن بويه ، فساس دولته ودبر شئونها وتوفى سنة ٣٦٠ هـ .

طريقته وأسلوبه فى الكتابة :

يعتبر ابن العميد أول عمداء الكتابة فى العصر العباسى الثانى وأعظم كتّاب القرن الرابع ووزرائه المشتغلين بشئون الدواوين ، ويعتبر أول المطورين لأساليب الكتابة فى هذا العصر ، فقد تحرّى فى أسلوب الرسائل أن تكون الجمل مسجوعة فى صورة

(١) المرجع السابق ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦ ، ٤٢ .

ملتزمة ، وإن تكون الفقرة قصيرة في الغالب ، محلاة بالمحسنات البديعية ، ألفاظها مختارة رثانة ، وجملها حسنة الرصف ، جيدة السبك ، مع الإكثار من تضمين جيد للأشعار ، والاستشهاد بالأحاديث المناسبة الماثورة ، والأمثال السائرة المشهورة بعد الاقتباس من القرآن . وبسبب هذه الصناعة اللفظية يميل بعض النقاد الى تسمية طريقته بالشعر المنثور ، كما يميلون إلى اعتباره خاتمة الكتاب فيقولون ، « بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد » .

تأثر معاصريه - ومنهم أبوحيان التوحيدي - بكتابه :

وتأثر كتاب المشرق بطريقة ابن العميد في الكتابة فجروا على أسلوبه ، ناسجيه على منواله في الصناعة اللفظية ، وفي مقدمة هؤلاء الكتاب الذين تأثروا طريقته تلميذه صاحب بن عباد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ ، وأبو بكر الخوارزمي (توفى سنة ٢٨٣ هـ) وأبي اسحاق الصابي (توفى سنة ٢٨٤ هـ) وديع الزمان الهمذاني (توفى سنة ٣٩٨ هـ) وأبوحيان التوحيدي (توفى سنة ٤٠٠ هـ) (*) .

نموذج لأبي حيان يحاكي فيه أسلوب ابن العميد :

النموذج الذي يناسب هذا المقام هو شيء يسير مما دار في الليلة الخامسة والعشرين من حوار بينه وبين الوزير العارض قال له أحبُّ أن أسمع كلاماً في مراتب النظم والنثر ، وإلى أيٍّ (١) حدٍّ ينتهيان ، وعلى أي شكل يتفان وأيهما أجمع للفائدة وأرجع بالعائدة وأدخل في الصناعة وأولى بالرعاية °

فاستصعب أبو حيان الجواب على هذا السؤال ، ولكنه إرضاء للوزير . قسم الكلام إلى ثلاثة أقسام علي لسان شيخه أبي سليمان المنطقي فقال : « قال شيخنا أبو سليمان : الكلام ينبعث في أول مبادئه إما من عفو البديهة ، وإما من كد الروية ، وإما أن يكون مركباً منهما ، وفيه قواهما بالأكثر والأقل .

ففضيلة عفو البديهة أن يكون أصفى ، وفضيلة كد الروية أن يكون أشفى ، وفضيلة المركب منهما أن يكون أوفى ، وعيب عفو البديهة أن تكون صورة العقل فيه أقل ، وعيب كد الروية أن تكون صورة الحس فيه أقل (يلاحظ أن المحقق بدل هنا كلمة أقل بأكثر) وعيب المركب منهما بقدر قسطه منهما «

(*) المرجع السابق ص ٤٢ .

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ج/١ ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

ثم يقول أبو حيان « وسمعت أبا عابد الكرخي صالح بن علي يقول النثر أصل الكلام ، والنظم فرعه ، والأصل أشرف من الفرع ، والفرع أنقص من الأصل ، لكن لكل واحد منهما زائئات وشائئات . فأما زائئات النثر فهي ظاهرة : لأن جميع الناس في أول كلامهم يقصدون النثر ، وإنما يتعرضون للنظم في الثانية بداعية عارضة ، وسبب باعث وأمر معين .

قال : ومن شرفه أيضا أن الكتب القديمة والحديثة النازلة من السماء على السنة الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منثورة مبسوبة ، متباينة الأوزان ، متباعدة الأبنية ، مختلفة التصاريف ، لا تنقاد للوزن ولا تدخل في الأعاريص .
ويعد أن عرض كثيراً من فضائل النثر على النظم قال .

"وأما ما يفضل به النظم على النثر فأشياء سمعناها من هؤلاء العلماء الذين كانت سماء علمهم درورا ، وبحر أدبهم متلاطما ، وروض فضلهم مزدهراً ... قال السلامي : من فضائل النظم أن صار لنا صناعة برأسها ، وتكلم الناس في قوافيها ، وتوسعوا في تصاريفها وأعاريصها ، وتصرفوا في بحورها ، واطلعوا على عجائب ما استخزن فيها من آثار الطبيعة الشريفة ، وتواهد القدرة الصادقة . وما هكذا النثر .. "

ويقال : ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيت من الشعر ، ولا يقال : ما أحسن هذا الشعر لو كان فيه شيء من النثر ، لأن صورة المنظوم محفوظة ، وصورة المنثور ضائعة .

ففي هذا النموذج الذي سقناه للقارئ الكريم من نثر أبي حيان التوحيدي يتأكد لنا أنه ليس ثمة بينه وبين الكتابة الديوانية التي برع فيها ابن العميد فرق شاسع - ناهيك في ذلك عن موضوع هذه الكتابة - لأن أبا حيان لم يعهد إليه أي منصب كتابي في الدواوين ولكن سمات الكتابة الديوانية في كثير من كتاباته .. ولا عجب في ترسمه لخطي ابن العميد فقد كان أستاذاً لجميع كتاب ذلك العصر .



- ٢ -

أبوحيان التوحيدى

* معالم حياته وصلاته بوزراء عصره

* فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

* فيلسوف التوحيد ورائد علم النفس التحليلى

أبوحيان التوحيدى

معالم حياته :

بادئ ذي بدء لقد سبق الإلماح فى مقدّمة هذا الكتاب الى التساؤل عن أبى حيان التوحيدى ، وهذا ليس بمانع من العودة مرة أخرى للتأكيد على ما أُلحنا إليه ، فهو على بن محمد بن العباس ^(١) ، وكنيته أبوحَيَّان ، ولُقّب بالتوحيدى - كما سبق القول - لأن أباه كان يبيع نوعاً من التمر ببغداد اسمه التوحيد .. وهو الذى عناهُ المتنبى فى قوله :

يترشّفن من دُمى رشفاتٍ هُنَّ فيهِ أحلى من التوحيدِ
أو أن لقبه هذا نسبةً إلى التوحيد - أى الدين - كما رأى ذلك ابن حجر العسقلانى، لأن المعتزلة يسمون أنفسهم : أهل العدل والتوحيد .

ويقول الدكتور الحوفى « ولانستطيع أن نرجح رأياً على آخر فى تلقيه بالتوحيدى ، فربما كان أبوه يبيع هذا النوع من التمر ، وربما لقبه بالتوحيدى بعضُ معاصريه أو لاحقيه ممن عرفوا مذهبه فى التوحيد ، لكن الذى نوقن به أنه لم يعرض لهذا اللقب فى كتاب من كتبه ، على كثرة ما ذكر فى كتبه ، ولم يُشر من قريب أو من بعيد إلى نسبه أو إلى أسرته »

ولعلّ السبب فى عدم ذكره لنسبه أو أسرته هو أنه من أسرة متواضعة بسيطة ، خاملة الذُكر ، أو من أوساط الناس فى عصر الدولة البويهية التى سيطرت على دولة الخلافة العباسية منذ عام ٣٢٤ هـ فى بغداد وشيراز والرى إلى أن زالت فى عام ٤٤٧ هـ ، وأوساط الناس فى أى عصر من العصور لا يلتفت إليهم ، ولا يعنى بهم ، ولذا فقد وجدنا مصنّفى الكتب يُعنون بوفيات الأعيان لأنهم لا يستطيعون الاعتناء بتسجيل تواريخ ميلادهم لعدم وجود سجلات للمواليد فى تلك الآونة ، ومن باب أولى لا يعنون بالسوق من الناس وبخاصة حينما يرحلون عن هذه الحياة .

ومهما اختلف فى تعيين تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته ، فالأرجح أنه ولد فى عام ٣١٢ هـ وتوفى سنة ٤١٤ هـ « أى أنه عاش قرناً من الزمان، متنقلاً بين ^(٢) ربوع البلدان ، من

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبوحيان التوحيدى - ج/١ ص ٥٢ .

(٢) خبرى شلى - أبوحيان التوحيدى - ربيع الثقافة العربية ص ٧ .

بغداد الى الرّى الى شيراز ، إلى غيرها من المدن الإسلامية الحافلة ، لاسائحا بل باحثا عن لقمة عيش طريّة ، وثوب دافئ وفرش ناعم ، وسقف آمن ولكن بدون جدوى ، فقد قلبت له الحياة ظهر المجن - كما يقول المثل العربي القديم - وأدار له الجميع رؤوسهم وظهورهم ، ولم يحفل به أحد » .

لماذا اعتنى المؤرخون بأعيان الناس ؟ : يقول الدكتور الحوفى « أما وفيات (١) هؤلاء العلماء والأدباء فقلما تُجهل ، وإن حدث فيها اختلاف ، لأنهم كانوا قد اشتهروا وذاع علمهم وأدبهم فى الآفاق ، وهذا هو السر فى أن كُتِبَ التراجم تُعنى بزمن الوفاة أكثر من عنايتها بزمن الميلاد » .

هل كان هذا المبدأ منطبقاً على حالة أبى حيان (٢) ؟ . رأى بعض النقاد أن أباحيان قد ظلّم فى الاختلاف على تعيين تاريخ وفاته ، كما اختلف على تعيين تاريخ ميلاده . وإن كان هذا أمراً شائعا وطبيعيا يحدث لكثير من الذين اشتهروا من العلماء والأدباء فى تلك العصور ، إلا أن بعض النقاد رأى أن أبى حيان قد اختلف بشأنه اختلافاً بيّناً ، فهو لذلك قد ظلّم ظلما عظيما ، وإكمالا لقول الدكتور الحوفى نُورِد هذه الفقرة « لكننا فى تاريخنا لأبى حيان نُلقي عشرين . عسرا فى تعرف مولده ، وعسرا فى تعرف وفاته ، كأننا اتفق الناس على إهماله ميّتا ، كما أهملوه حيّا ، وكأنما أبى حظّه المهضوم إلا أن يلزمه فى الحياة والموت .

وقد حار دارسوه فى تحديد ميلاده ، فاستظهر السندوبى أنه ولد سنة ٣١٢ هـ معتمدا على أنه كتب رسالة الى القاضى أبى سهل على بن محمد يعتذر فيها من إحراق كتبه ، وأرخها سنة أربعمائة ، وقال فيها « وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أوغد ، فأبى فى عشر التسعين ، وهل بعد الكبرّة والعجز أمل فى حياة لذيدة . لكن هذا الاستنباط لا يستند إلى قوة ، فمن الجائز أن يكون قد ولد قبل ذلك أو بعد ذلك .

ونُنهي حديث الدكتور الحوفى بالاختلاف فى تاريخ وفاة أبى حيان بقوله « ولعل المؤرخين لم يختلفوا فى وفاة عالم أو أديب كما اختلفوا فى وفاة أبى حيان ، وأنه خلاف جسيم ، يرجع بوفاته الى سنة ٣٦٠ هـ أو يمتد بها الى ٤١٤ هـ فأى خلاف ذلك الذى يفصل بين زمنين أكثر من نصف قرن » ، على أننا نغلب الرأى الذى ارتأى ان تاريخ ميلاده كان سنة ٣١٢ هـ وتاريخ وفاته كان سنة ٤١٤ هـ ، وإذا وضعنا فى

(١) د أحمد محمد الحوفى - أبحاث التوحيدى - مرجع سابق ص ٢٣ .

(٢) يلاحظ أنه لم يكتب عن أبى حيان التوحيدى من كتاب التراجم أحد قبل ياقوت الحموى (المتوفى سنة ٦٢٥)

اعتبارنا تواضع حياة أبي حيان التوحيدي وبساطة اسرته وظروف الحياة في تلك العصور وعدم اهتمامهم بتسجيل المواليد في تلك الآونة ، فاننا نرى أن الاختلاف في تعيين تاريخ ميلاد أبي حيان وتاريخ وفاته أمر عادي وطبيعي ، وليس فيه ظلم له ، ولانقول . إن الناس ربما اتفقوا على إهماله ميتا كما أهملوه حيا .

إلى أي البلاد ينتمي أبو حيان ؟ وكما اختلف المؤرخون في تعيين سنة مولده وسنة وفاته ، اختلفوا أيضا اختلافا بيّنا في مسقط رأسه ، فهو ^(١) عند ياقوت الحموي شيرازي الأصل وقال : إنه عمدة لبنى ساسان . وقال عنه آخرون : إنه واسطي قدم بغداد وأقام بها مدة ثم مضى إلى الرّى .

ونقل السيوطي عن ياقوت أنه شيرازي أو نيسابوري ، وسار في هذا الدرب السندوبي وكذلك الدكتور زكي مبارك ، أمّا الأستاذ محمد كرد علي فقد ذهب الى أنه عربي الأصل ، وأيدنا هذا الرأي ذاكرين الأسباب في مقدمة هذا الكتاب ، وأهمها أمران : أولهما أنه اسمه عربي صرف وثانيهما عدم معرفته للفارسية .

ثم ماذا حدث لأبي حيان وهو يسلك درب الحياة ؟ : لم يتحدث أبو حيان عن حياته وأعماله إلّا عرضا ، كذلك لم يتعرض مؤرخوه لما كان يمارس من عمل يتكسب به . غير أننا نستنبط من بعض كلامه أنه كان يمارس الوراقة والنسخ ببغداد ، قبل أن يرحل الى ابن عباد (بالرّى) ونستنبط أنه كان جميل الخط ، دقيق النقل بالتصحيح والتحريف ... ويذكر في كتابه مثالب الوزيرين أن صاحب بن عبّاد كلّفه أن ينسخ له كتابا فقبل على مضض ، وقال لبعض الناس في دار الصاحب : إنما توجّهت من العراق إلى هذا الباب ، وزاحمت منتجى هذا الربيع لأتخلص من حرفة الشُّوم .

هل كان أبو حيان موفقا في رحلاته بين بغداد والرّى ؟ : لقد كانت أبواب الملوك والأمراء والوزراء في ذلك الوقت تعج ^(٢) بذوى الحاجات والمادحين ، الذين يرجعون محملين بالهدايا والخلع الثمينة بينما لم يجد أبو حيان له مكانا بينهم ، فقد ظلت الحياة تزرى بهذا الفيلسوف الكبير ، وتهزأ به يوما بعد يوم ، حتى بدأت نفسه تضج بالشكوى وهو يطلب العون والمساعدة ممن بيدهم الأموال والمصادر ، حتى أنه أهرق ماء وجهه ، وأذهب كبرياءه في سبيل نيل عطاياهم .

(١) المرجع السابق ص ٢٥

(٢) خير شلى - أبو حيان التوحيدي - ربيع الثقافة العربية ص ٧ .

هل أغنته حرفة التأليف عن قصد الأمراء والوزراء ؟ على أن حرفة التأليف لم تغنه عن التردد على أولئك الأمراء والوزراء ، فهذه الحرفة جاءت تبعا لاشتغاله بالنسخ والتحرير ومجالسته للعلماء والفلاسفة والفقهاء ، وان كانت لم تردّه عن المسألة الا أنها بقيت تراثا عظيما فى أمور شتى ، فمن هذه الكتب النفيسة التى أحرق على صفحاتها دمه ونور عينيه : المقابسات وكتاب الهوامل والشوامل وكتاب الصداقة والصديق وكتاب الذخائر والبصائر وكتاب الإمتاع والمؤانسة وغير ذلك من كتب معروفة وأخرى مجهولة .



صلاته بوزراء عصره :

من هم الأعلام الذين قصدهم رغبةً في رفدهم ؟

أولاً : أبو الفتح ذو الكفائتين

لقد قصد بالرّى ذا الكفائتين أبا الفتح بن العميد الذى تولى الوزارة لركن الدولة^(١) ابن بويه عقب وفاة والده أبى الفضل بن العميد (من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٦٦ هـ) قال عنه صاحب يتيمة الدهر « هو على بن محمد (والده أبو الفضل محمد بن الحسين) ثمرة تلك الشجرة ، وشبل ذلك القسورة ، (وحقُّ على ابن الصقر أن يشبه الصقرا) وما أدق ما قال الشاعر :

إِنَّ السُّرِّيَّ إِذَا سَرَى فَبِنَفْسِهِ وابن السُّرِّيَّ إِذَا سَرَى أُسْرَاهُمَا
وكان نجيباً ذكياً ، لطيفاً سخيّاً ، رفيع الهمّة ، كامل المروعة ، ظريف التفصيل والجملة ، قد تأنق أبوه فى تأديبه وتهذيبه ، وجالس به أدياء عصره ، وفضلاء وقته ، حتى تخرّج وخرج حسن الترسل ، متقدّم القدم فى النظم ، أخذاً من محاسن الآداب بأوفر الحظّ ، ولما قام مقام أبيه قبل الاستكمال ، وعلى بعيد من الاكتهال ، وجمع تدبير السيف والقلم لركن الدولة ، لُقّب بذى الكفائتين وعلا شأنه ، وارتفع قدره وبعدّ صيته ، وطاب ذكره ، وجرى أمره أحسن مجرى ، إلى أن توفى ركن الدولة فافضت حال أبى الفتح - كما حدّثنى أبو منصور سعيد ابن أحمد البريدى - (إلى النحو التالى) قال : لما توفى ركن الدولة وقام مقامه (ابنه) مؤيد الدولة خليفة لأخيه عضد الدولة ، أقبل من أصبهان إلى الرّى ومعه الصاحب أبو القاسم (ابن عباد) . وخلع على أبى الفتح خلعة الوزارة وألقى إليه مقاليد المملكة ، والصاحب على جملة فى الكتابة لمؤيد الدولة والاختصاص به ، وشدة الحظوة لديه . فكره أبو الفتح مكانه ، وأساء الظنّ به ، فبعث الجند على أن يشغبوا عليه وهموا بما لم ينالوا منه ، فأمره مؤيد الدولة بمعاودة أصبهان (أى أمر الصاحب) وأسرّ فى نفسه الموجدة على أبى الفتح لهذا الشأن وغيره ، وانضاف ذلك الى تغير عضد الدولة واحتقاده عليه لأشياء كثيرة فى أيام أبيه وبعدها منها مُمائِلتهُ بختيار (أى كان ممالئاً لعز الدولة بختيار بن معز الدولة ضد ابن عمه عضد الدولة) ، ومنها ميل القوادر إليه ، بل غلوهم فى موالاته ومحبته ، ومنها ترفعه عن التواضع له فى مكاتباته ، واجتمعت آراء الأخوين (مؤيد الدولة وعضد الدولة) على

(١) أبو منصور الثعالبي - يتيمة الدهر - الجزء الثالث ص ١٨١ ، ١٨٦ .

اعتقاله وأخذ أمواله ، ولما اعتقل في بعض القلاع بدرت منه كلمات نمت إلى عضد الدولة ، فزادت في استيحاشه منه ، وأنهض من حضرته من (قد) طالبه بالأموال ، وعذبه ومثله به ، ويقال : إنه سمل إحدى عينيه ، وقطع أنفه ، وجزأ لحيته . ففى تلك الحال يقول أبو الفتح وقد يئس من نفسه ، واستأذن في صلاة ركعتين ، فصلاهما ودعا بدواة وقرطاس وكتب :

بُذِلَ مِنْ صَوْرَتِي الْمَنْظَرُ^(١) لَكِنَّهُ مَا غَيَّرَ الْمَخْبِرُ
وَلَسْتُ ذَا حَزَنٍ عَلَى فِائِتٍ لَكِنْ عَلَى مَنْ لَيْسَ يَسْتَعِيرُ
وَوَالِهِ الْقَلْبُ لِمَا مَسَّنِي مُسْتَخْبِرٍ عَنِّي وَلَا يَخْبِرُ
فَقُلْ لَنْ سُرَّ بِمَا سَاءَ نَا لَا بَدَّ أَنْ يُسَلِّكَ ذَا الْمُعْتَبِرُ

وأخبرني أبو جعفر الذي قدمت ذكره ، وكان مختصاً به ، قال : كان أبو الفتح قبيل النكبة التي أتت على نفسه ، قد أعزم بإنشاء هذين البيتين ، لايحف لسانه من ترديدهما في أكثر أوقاته وأحواله ، ولست أدري أهما له أم لغيره :

دَخَلَ الدُّنْيَا أَنَا قَبْلَنَا رَحَلُوا عَنْهَا^(٢) وَخَلَّوْهَا لَنَا
فَنَزَلْنَاهَا كَمَا قَدْ نَزَلُوا وَنَخْلِيهَا لِقَوْمٍ بَعْدَنَا

فلما حصل في الاعتقال ، واستيقن أن القوم يريدون دمه لامحالة وأنه لا ينجو منهم وإن بذل ماله . مَدَّ يده إلى جيب جبة عليه ففتقه عن رقعة فيها ثبَّتْ مالا يُحصى من ودائعهم وكنوز أنبيه وذخائره ، فألقاها في كانون^(٣) نار بين يديه وقال للقائد الموكل به . المأمور بقتله بعد مطالبته : اصنع ما أنت صانع ، فوالله لا يصل من أموالى المستورة إلى صاحبك دينار واحد ، فما زال يعرضه على العذاب ويمثله به ، حتى تلف رحمه الله تعالى ، وفيه يقول بعض أصحابه :

أَلَا الْعِمِيدُ وَالْ بَرْمَكُ مَالِكُمُ قَلُّ الْمَعِينُ لَكُمْ وَذَلُّ النَّاصِرُ
كَانَ الزَّمَانُ يَحْبُكُمُ فَبَدَأَ لَنَا أَنْ الزَّمَانُ هُوَ الْمَحْبُ الْغَادِرُ

(١) المرجع السابق .

(٢) سبق ذكر هذين البيتين منسوبين لأبيه أبي الفضل بن العميد ، وقد انتقدنا ابن تغرى يردى الذى نسبهما لأبيه والأصح هذه الرواية للثعالبي لأن أبا الفضل لم يمت مقتولا كما ذكر ابن تغرى يردى .

(٣) أبو منصور الثعالبي - يتيمة الدهر ص ١٨٦ .

وأبويكر الخوارزمي يقول في مرثيته له :

يادهُرْ إنك بالرجال بصيرُ فلذاك ماتحتاجهم وتُبِيرُ^(١)
يادهُرْ غيرى من خدعت بباطل وابنُ العميد مغيبٌ مقبورُ
الآن نادتنا التجاربُ طلقوا دنياكموإن السرورَ غرورُ

وأما أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة فإنه رغم ما كان يحمله في جوانحه من موجدة لأبى الفتح بن العميد ، فإنه قد ذكره في نادرة له مع ابن الحجاج^(٢) الشاعر الخليع - ذكر الفتح بعد وفاته في نادرة من النوارد التي خصَّ بها مجلس الوزير بن سعدان . و خلاصة ذلك أن ذا الكفائتين بن العميد لما هزم الأتراك الذين ثاروا على ركن الدولة في عام ٣٦٤هـ - سأل عن ابن حجاج " وكان متشوقا له لما كان يقرأ عليه من قوافيه ، فأحب أن يلقاه لأنه ليس الخبر كالمعاينة ، ولما ظهر به دعاه للطعام معه فلما فرغا ، قال له ابن العميد : لقد والله تُهت (تحيّرت) عجباً منك . فأما عجبى بك فقد تقدّم ، لقد كنت أتملّى ديوانك ، فأتئمّنى لقاءك . وأقول من صاحب هذا الكلام . أطيشُ طائشٌ ، وأخفٌ خفيف ، وأغرم غارم ، وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب ، وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب وأصحاب الآداب . حتى شاهدتك الآن ، فتهاكت على وقارك ، وسكون أطرافك ... وفرط حيائك " فيجيبه ابن حجاج : " أيها الأستاذ ، وكان عجبى منك دون عجبك منى ، لو تقارعنا على هذا لفجّعت عليك بالتعجب منك . لأنى قلت . إذا ورد الأستاذ فسألنى منه خلقا جافيا ، وفضأ غليظا ... وجبليا ديلميا متكائبا متعازما ، حتى رأيته الآن وأنت أطف من الهواء ، وأرق من الماء ، وأغزل من جميل بن معمر ، وأعذب من الحياة ، وأرزن من الطود ... فتبسم أبو الفتح قائلا - هذا أيضا من ودائع فضلك وبواعث تفضلك ووصله وصرفه " .

فعقّب ابن سعدان على أبي حيان قائلا : ؛ لم يكن هذا الحديث عندي " . ولعله دهش لإيراد أبي حيان هذه النادرة عن أبي الفتح وكان من قبل ساخطا عليه .



(١) تبير تهلك .

(٢) أبو حيان التوحيدي ، الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق د. أحمد أمين وأحمد الزين ص ١٢٧ - ١٢٩ ج ١ .

صلته بذى الكفائيتين بن العميد :

من العرض السابق تبين لنا أن على بن محمد بن الحسين بن العميد المكنى بأبى الفتح ذى الكفائيتين قد ولى الوزارة - لركن الدولة بن بويه بعد وفاة أبيه أبى الفضل سنة ٣٦٠ هـ وفى سنة ٣٦٦ هـ توفى السلطان ركن الدولة بن بويه فسارع صاحب بن عباد كاتب ابنه مؤيد الدولة (منذ كان أميراً) بالمناداة بسلطنة مؤيد الدولة على ملك أبيه ركن الدولة ، وقد أدّى هذا بأبى الفتح الى تحريضه الجند ضد صاحب ، فنصح مؤيد الدولة بالتوجه إلى أصبهان ، وأسرف في نفسه الانتقام من ابن العميد خاصة أنه كان يمالئ ابن عمه عز الدولة ضد أخيه عضد الدولة ، ثم كان ماكان من نكبة أبى الفتح على يد عضد الدولة .

ويهمنا فى هذا الصدد الفترة التى وزرَ فيها أبو الفتح لركن الدولة خلفاً لأبيه أبى الفضل ، والسؤال هو هل اتصل أبو حيان التوحيدى بالوزير أبى الفتح بن العميد بالرئى. وهل كان ابن العميد هذا أحد الوزيرين اللذين تحدثت عنهما أبو حيان فى كتابه (مثالب الوزيرين) ؟ بعد هذا التقصى والاستقراء يمكن القول بأن الرأى الراجح أن أباحيان قد قصد أبا الفتح هذا وأنه هو أحد الوزيرين المعنيين فى كتابه ، ويجئ هذا الرأى مناقضاً لما رآه ياقوت الحموى إذ ذكر أنه أبو الفضل بن العميد ، ونقل عنه من جاءوا بعده كابن خلكان والسيوطى والسندوبى .

وقد قدمنا فى المقدمة الأسباب التى ترجح أنه أبو الفتح لا أبا الفضل ، ونتساءل لماذا وصفه أبو حيان بصفات قبيحة على غير الحقيقة ما الذى دعاه إلى هذا إذ قال فيه « وكان مع هذا أشد الناس ^(١) ادعاء لكل غريبة ، وأبعد الناس من كل قريبة ، وهو نَزْرُ المعانى شديد الكلف باللفظ ، وكان أحسد الناس لمن خط بالقلم ، أو بلغ باللسان ، أو فليج فى المناظرة ... ولقد لقي الناس منه الدواهى لهذه الأخلاق الخبيثة ، ولقد ذكرت ذلك فى الرسالة » .

ويقول مرة أخرى « وهذا بالأمس على بن محمد ذو الكفائيتين اغترأ بشبابه ، ولها عن الحزم ، والأخذ بما كان أولى به ، وظن أن كفايته تحفظه ، ونسبه يكتفه ... ومشى فعثر ، وراب فخر ... » ونقول : لماذا يذم الرجل ، ويؤلف فيه ثلج كتاباً وقد شهد له

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى - مرجع سابق ج/١ ص ٤٧

رجال ثقات شهدوا بنبله وكرمه وحزمه وعزمه ؟ لا أظنُّ أنه قد ذمه كما ذمَّ صاحب ابن عباد إلا حسداً ومقتاً .. وصدق الشاعر إذ يقول :

وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلَةٌ ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبدى المساويا
ولا يقدح في مكانة أبي الفتح أيامُ لهوه ومراحه ، ولا يقلُّ من شأنه ما قال عنه ابن مسكويه في سنيِّ شبابه ، والدكتور الحوفي ربُّما وافقه في أن أبا الفتح كان مغروراً وبخيلاً وماجناً ، وصاحب لهو وضيد وشراب أو أنه حسود ظالم ، لكن من المحتم على الناقد التريث قبل إصدار مثل هذا الحكم حتى يستقصى كل الجوانب وكل الآراء . ثم إنه ما كان ينبغي أن يأخذ بقول مسكويه الذي جاء فيه « كان أبوه أبو الفضل بن العميد يغضب من فعله ، ويلومه ، حتى لقد مات برماً به متشائماً على آل العميد من فعلاته » وإذا رجعنا إلى صاحب ^(١) يتيمة الدهر نجده يقول غير ذلك « ومن طُرف أخباره (أبي الفتح) ، ما حدثني أبو جعفر الكاتب ، وكان أبو بكر الخوارزمي يدعوه القمغدي . لكونه قُميُّ المولدَ بغدادي المنشأ ، وكان أبو جعفر هذا من حاشية أبا الفتح فترامت به الحوادث بعده إلى نيسابور ، قال « كان الأستاذ الرئيس (أي والده أبو الفضل) قد قيَّض جماعة من ثقاته في السرِّ يشرفون على الأستاذ أبي الفتح في منزله ومكتبه ، ويشاهدون أحواله ، ويعدُّون أنفاسه ، ويُنهون إليه جميع ما يأتيه ويذره ، ويقولون ويفعله ... فرَفَع إليهم بعضهم أن أبا الفتح اشتغل ليلة بما يشتغل به الأحداث المترفون ، من عقد منجلس الأنس واتخاذ الندماء ، وتعاطي ما يجمع شمل اللهو في خُفية شديدة واحتياط تام وأنه كتب في تلك الحالة رقعة إلى من سُمِّاه لى أبو جعفر . ونَسِيْتُ اسمه في استبداء الشراب فُدسَّ الأستاذ الرئيس ^(٢) إلى ذلك الإنسان من أتاها برقعة أبي الفتح الصادرة إليه فإذا فيها بخطُّه

« بسم الله الرحمن الرحيم . قد اغتنمتُ الليلة - أطال الله بقاءك ياسيدي ومولاي - رقعةً من عين الدهر ، وانتَهَرتُ فيها فرصةً من فرص العمر ، وانتظمت مع أصحابي في سمط الثريا ، فإن لم تحفظ علينا النظام ، بإهداء المُدام ، عُدْنَا كِبَنَاتٍ نَعشٍ والسلام » .

فاستطير الأستاذ فرحاً وإعجاباً بهذه الرقعة البديعية ، وقال : الآن ظهر لى أثر براعته ، ووثقت بجرِّه في طريقي ، ونيابته منابى ، ووقَّع له بألفى دينار » .

(١) المرجع السابق ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨٢ .

مهما يكن موضوع الحديث فإن الهدف من سوق هذه القصة هو التأكيد على أن أبا الفضل لم يمتُ ساخطاً على ابنه ، ولم يكن بينهما ما يُوجب نبذه ، ولعلك تدهش إذا سقت إليك بعض الأشعار التي قالها أبو الفتح في الإشادة بوالده منها تهنئة بعيد النيروز :

أبشِرْ بنيروزٍ أتاك مبشراً
بسعادةٍ وزيادةٍ ودوامٍ
واشربْ فقد حلَّ الربيعُ نقابَه
عن منظرٍ متَهَلَّلٍ بسَّامٍ
وهديتى شعراً عجيبٌ نظمَه
ومديحُه يبقى على الأيامِ
فاقبله واقبل عذر من لم يستطع
إهداء غير نتيجة الأفهامِ
والى والده أيضاً من قصيدة يقول فيها

أُفِضْتُ عقودُ أم أُفِضْتُ مدامُ
وهنى دموعُ أم نفوسُ هوامُ
على الملكِ قد وُأْمٌ وللدِينِ حافظُ
وللمالِ وهَّابٌ وللجارِ مانعُ
أسودٌ ولكن الحرابَ عرينُها
شُموسٌ ولكن الصفوفَ مطالعُ
اشاحوا وامتَحُوا ونابوا ومانبوا
وكان لهم تحت المنايا مناقعُ

الخلاصة أن أبا حيان كان ساخطاً على الدنيا وما فيها ومن فيها ، فلم يرضَ لا بالقليل ولا بالكثير ، لأن الشؤم والفقر قد ألبساه حلة آلى ألا يخلعها أبداً ، ووضعاً على عينيه منظاراً لا يرى الأشياء إلا من خلاله . ويلاحظ أن أبا حيان قد سار على ماسار عليه مسكويه في التنقيص من شأن أبي الفتح ومن ذلك ما ذكره الدكتور الحوفى « ونقل ياقوت عن مسكويه أن أبا الفتح كان فيه (١) - مع رجاحته وفضله في أدب الكتابة وتيقظه وفراسته -- نَزَقَ الحداثة ، وسُكِرَ الشباب ، وجُرَأَ القدرة ، فأجرى أمره على ماتقدم من إظهار الزينة الكثيرة ... حتى خرج عن حد القصد إلى الإسراف ، فجلب عليه ذلك ضروب الحسد من السلاطين وأصحاب السيوف والأقلام فأنكر عليه هذا الفعل عَصِدَ الدولة ومؤيد الدولة ابناً ركن الدولة ، وكتأبهما ثم سائر مشايخ الدولة » . ولانريد أن نعقب على ذكر ابني ركن الدولة وما فعلاه به بعد وفاة أبيهما :

ثم إنَّ أبا حيان نفسه قد اعترف لأبى الفتح بالعلم وإعزاز الأدباء وإجزال العطاء لهم حينما رجع إلى بغداد فلم يهضم أبا الفتح حقه أو يتجاهل عن مآثره ، وحينما

(١) الدكتور / أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدي - مرجع سابق الجزء الأول / ٤٩ .

سأله الصاحب عن ابن العميد - أبا الفتح - مدحه بكرمه وتقدير أهل العلم
واختصاصه بأرباب الأدب ، وأنه أهدى أباسعيد السيرافي كذا وكذا ، ووهب لأبي
سليمان المنطقي كذا وكذا . وهذا الاعتراف يناقض كل مانسبه إليه من مساوئ مما
يؤكد أن أباحيان كان ناقما على كل شيء حتى على نفسه التي بين جنبيه فمهما وصله
ابن العميد بعطايا فإن ذلك لم يغير من دخيلة نفسه .



ثانياً: الصاحب بن عباد

نشأته وثقافته :

هو الكاتب الوزير والأديب الذائع الصيت إسماعيل بن عباد بن عباس ، أحد أعلام الكتابة الديوانية في بلاد المشرق ^(١) ، لقّب بالصاحب لأنه صحب الملك مؤيد الدولة البويهى منذ حدثه ، وقيل لأنه صحب أبا الفضل بن العميد وتلمذ على يديه ، ولد بطالقان إحدى بلاد الديلم المشهورة سنة ٣٢٥ هـ في خلافة الراضى العباسى ، في الوقت الذى ظهرت فيه دولة بنى بويه فى مشرق العراق .

نشأ فى أصبهان ، وفيها تلقن فى صباه مبادئ القراءة والكتابة ، وحفظ القرآن الكريم ، وحين صار يافعا رحل إلى مدينة الرى - عاصمة البويهيين - وأخذ العلم والمعرفة من نواحي المشرق وأعلامه ، وفيها التقى بجهازة الكتابة المشهورين فى القرن الرابع - والتحق بخدمة الأستاذ الرئيس أبى الفضل بن العميد وزير ركن الدولة ، ورئيس ديوان الكتابة فى الرى ، فاتخذ ابن العميد مؤدباً للأمير مؤيد الدولة بن الملك ركن الدولة البويهى . وقضى شطرا طويلا من حياته مع ابن العميد ، شهد فيه المجالس الأدبية التى كان يقيمها للعلماء والأدباء والفلاسفة فأفاد من مجالسه وأخذ عنه أصول صناعة الكتابة .

وفى أثناء هذه الفترة كان يتردد على بغداد ويلتقى بأعلام اللغة والنحو كأبى سعيد السيرافى وأبى بكر مقسم صاحب ثعلب ، واستطاع أن يحصل الكثير من علوم الأدب ، وهى العلوم التى لابد منها لكل كاتب بارع يريد أن يتسم بزعامة الأدب ورئاسة الكتابة فى عصره ، فالتقى هناك بأبى سعيد السيرافى وقد هيات له هذه البيئة الثقافية أن يكون كاتباً حصيفاً ، وأن يقرض الشعر على عادة كتّاب القرن الرابع .

ولم تكن ثقافته مقصورة على ما أخذ من ابن العميد من صناعة الكتابة ، أو ما أفاده فى رحلاته إلى بغداد من علوم اللغة ، بل أضاف إلى ذلك ما اكتسبه من ثقافة دينية شيعية ، ذلك ان بلاد إيران قد اتخذت الشيعة مذهباً منذ سيطر عليها البويهيون ، كذلك اكتسب من تلك البيئة ثقافة فى علم الكلام والمناظرات وطرق الجدل والحوار وهى طرق المعتزلة فى تثبيت مذهبهم ، فالصاحب بن عباد إذن شيعى معتزلى وكاتب شاعر واضح الثقافة .

(١) الدكتور حامد حفنى داود - الآداب الاقليمية ص ٤٤ ، ٥٥ .

حياته السياسية :

وقد بدأ حياته السياسية بالكتابة لمؤيد الدولة بن بويه منذ كان أميراً ، وحين قسّم الملك ركن الدولة المملكة بين أولاده في عام ٣٦٤ هـ كانت الرّى وأصبهان من نصيب مؤيد الدولة ، فارتقى صاحب بذلك من كاتب أمير إلى منصب وزير للملك مؤيد الدولة ، وحين مات ركن الدولة عام ٣٦٦ هـ حدث بينه وبين أبي الفتح بن العميد وزير ركن الدولة عدااء انسحب صاحب على أثره إلى أصبهان ، ثم مال بث مؤيد الدولة أن قبض على ابن العميد وأودعه السجن إلى أن قُتل على يد أخيه عضد الدولة ، وأعاد صاحب بن عباد إلى دست الوزارة ، واستمر اخلاص صاحب وولائه للملك المؤيد فظل وزيره ورئيس ديوانه إلى سنة ٣٧٣ هـ . وفي خلال هذه المدة كان صاحب يُسفر بين الملك المؤيد وأخيه عضد الدولة في همدان ، وبلغ من التدبير ما صار موضع إعجاب عضد الدولة ، فكان هذا الملك كثيراً ما يقول « قد حبيت الأمانى ، وأوتيت أقاصى المعانى ، ولكنى لا أحسد ملكا من الملوك على شئ غير أخى (مؤيد الدولة) على أبى القاسم إسماعيل بن عباد » .

وحين تُوفى الملك المؤيد عام ٣٧٣ هـ^(١) كان صاحب موضع استشارة القواد ، ورؤساء الدولة فيمن خلفه ، فأتى صاحب بفخر الدولة بن ركن الدولة ملك همدان والدينور ، فضمّ ملك أخيه إلى ملكه وأقر صاحب في منصبه حيث الوزارة والصدارة ورئاسة الديوان ، واتخذ الرّى عاصمة لمملكته ، وظل صاحب يدير أمور فخر الدولة ويوجه سياسته ويقود جيوشه كما كان يفعل عظماء الوزراء والكتّاب في القرن الرابع إلى أن توفى سنة ٣٨٥ هـ بعد مرضٍ أصابه .. ويقول المؤرخون لم يبجل أحد في وفاته كما كان في حياته غير صاحب ، فإنه لما تُوفى أُغلقت له مدينة الرّى^(٢) واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون خروج جنازته ، وحضر مخدمه الملك فخر الدولة وسائر القواد وقد غيروا لباسهم .

الإقرار بفضله :

يقول صاحب يتيمة الدهر في الإقرار بفضل صاحب وعلو محله في العلم والأدب "ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علو محله في العلم والأدب ، وجلال

(١) المرحع السابق ص ٥٥ .

(٢) الرّى مدينة فارسية قديمة كانت قصبة بلاد الحبال ، وكان اسمها الفارسي راغة ومه أخذ اسمها العربى ، وهى الآن أطلال على مسافة خمسة كيلو مترات من طهران

شأنه في الجود والكرم ، وتفرد به غايات المحاسن ، وجمعه أشتات المفاخر ، لأن همة قولى تنخفض عن بلوغ أدنى فضائله ومعاليه ، وجهد وصفى يقصر عن أيسر فواضله ومساميه ، ولكننى أقول : هو صدر المشرق ، وتاريخ المجد ، وعزة الزمان ، وينبوع العدل والإحسان ، ومن لا حرج فى مدحه بكل ما يمدح به مخلوق ، ولولاه ما قامت للفضل فى دهرنا سوق .

وكانت أيامه للعلوية والعلماء والأدباء والشعراء ، وحضرته محط رجالهم ، وموسم فضلائهم ، ومترع أمالهم ، وأمواله مصروفة إليهم ، وصنائه مقصورة عليهم ... " .
وبعد أن يستطرد الثعالبي فى سرد فضائل صاحب ، وثبوت قدمه فى الأدب ، وعظم مكانته بين الأدباء والشعراء ، راح يعقد مقارنة بينه وهو الوزير الذى طبقت شهرته الأفاق وبين هارون الرشيد وهو أشهر خلفاء بنى العباس فضلاً وأدباً وكرماً فيقول :
"لم يجتمع بباب أحد من الخلفاء والملوك مثل ما اجتمع بباب الرشيد من فحولة الشعراء المذكورين كأبى نواس ، وأبى العتاهية ، والعتابي والنمري ومسلم بن الوليد ، وأبى الشيص ومروان بن أبى حفصة ومحمد بن منذر ...

(ومثلاً) جمعت حضرة صاحب بأصبهان والرى وجرجان (بأعلام) مثل أبى الحسين السلامى ، وأبى بكر الخوارزمى ، وأبى طالب المأمونى ، وأبى الحسن البديهى وأبى سعيد الرستمي ... " وبعد أن أورد أسماء كثير من الشعراء والأدباء والعلماء ، استشهد ببيت شعر للصاحب نفسه يطابق حاله مع هؤلاء المدّاح (ولا أعتقد أن صاحب كان يصف به نفسه) :

إن خير المدّاح من مدّحتُهُ شعراءُ البلاد فى كلِّ نادى

ما أمكننا الاستشهاد به :

وحيث أن المجال لا يتسع للحديث عن صاحب بن عباد ، فيمكننا الاستشهاد على فضله بالواقعة التالية - كما رواها الثعالبي ^(١) - " حدثنى عون بن الحسين الهمدانى التميمي . قال كنت يوماً فى خزانة الخلع للصاحب (المكان الذى توضع فيه الهدايا المعدة للتوزيع على المهدي إليهم) فرأيت فى ثبث حسباناتها كاتبها - وكان صديقى - يبلغ عمائم الخزّ التى صارت تلك الشتوة فى خلع الخدم والهاشية . ثمانمائة وعشرين.

(١) أبو منصور الثعالبي - يتيمة الدهر - مرجع سابق من ص ١٨١ - ص ١٨٦

قال : وكان يعجبه الخَزُّ ويأمر بالاستكثار منه في داره ، فنظر أبو القاسم الزعفراني يوماً إلى جميع من فيها من الخدم والحاشية عليهم الخَزُّ الفاخرة الملوّنة . فاعتزل ناحية وأخذ يكتب شيئاً ، فسأل صاحب عنه . فقيل : إنه في مجلس كذا يكتب . فقال: على به ، ... فاستمهل الزعفراني ريثما يكمل مكتوبه ، فأعجله صاحب ، وأمر بأن يؤخذ ما في يده من الدرج ، فقام الزعفراني إليه وقال : أيد الله صاحب : اسمعه ممن قاله تزدد به عجباً فحسّن الورد في أغصانه قال (أي صاحب) . هات يا أبا القاسم فأنشدته أبياتاً منها .

سواك يُعدُّ الغنى ما اقتنى	ويأمره الجُرسُ أن يخزنا
وأنت ابن عباد المرتجى	تُعُدُّ نوالك نيل المني
غمُرت الورى بصنوف الندى	فأصغر ما ملكوه الغنى
وغادرت أشعرهم مفحماً	وأشكرهم عاجزاً ألكنا
كسوت المقيمين والزائرين	كُسى لم يعد متلها ممكنا
وحاشية الدار يمشون في	ضروب من الخز إلا أنا

فقال صاحب قرأت في أخبار معن بن زائدة . أن رجلاً قال له . " احملى أيها الأمير ، فأمر له بناق و فرس وبغلة و حمار وحارية . ثم قال له لو علمت أن الله تعالى خلق مركوباً غير هذه لملتك عليه ، ونحن قد أمرنا لك من الخز بجبة وقميص ودراعة وسراويل وعمامة ومنديل ومطرف ورداء وجورب . ولو علمنا لباساً آخر يتخذ من الخز لأعطيناكه ، ثم أمر بإدخاله الخزانة ، وصب تلك الخلع عليه ، وتسليم ما فضل عن لبسه في الوقت إلى علامه " .

ماذا قال أبو حيان عن صاحب :

وفد أبو حيان التوحيدى على الرى عاصمة مملكة بنى بويه ، حينما كان يتولى وزارتها الكاتب الشهير صاحب بن عباد ، وذلك في زمن الملك مؤيد الدولة بن بويه ، وكان أبو حيان آنذاك يطلب منحة الوزير له شأن غيره من الأدباء والشعراء والعلماء ، وقال إنه مكث ببابه^(١) ثلاث سنوات (٣٦٧ - ٣٧٠ هـ) دون أن يحظى بشئ حتى ولو

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى ح ١ - مرجع سابق ص ٥٤

بدرهم واحد « فارقَتْ بابه سنة سبعين (وثلاثمائة) ، راجعاً إلى مدينة السلام (بغداد) بغير زادٍ ولا راحلة ، ولم يعطنى فى مدة ثلاث سنين درهما واحداً ، ولا ما قيمته درهم واحد » .

وقد جاء على لسان أبى حيان فى مقدمته لكتابه " الإمتاع والمؤانسة " مخاطباً صديقه أبا الوفا المهندس « قلت لى ^(١) - أدام الله توفيقك فى كل قول وفعل وفى كل رأى ونظر - إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرى إلى بغداد فى آخر سنة سبعين (ثلاثمائة وسبعين) بعد فوت مأمولك من ذى الكفائتين - نضر الله وجهه - عابساً على ابن عباد مغيطاً منه ، مقروح الكبد ، لما نالك به من الحرمان المر ، والصدُّ القبيح ، والنقاء الكريه ، والجفاء الفادش ، والقدر (أى الزجر) المؤلم ، والمعاملة السيئة والتخاغل عن الثراب على الخدمة ، وحبس الأجرة على النسخ والوراقة ، والتجهم المتوالى عند كل لحظه ولقطة » .

وينهم من العسرة السابقة أنه ورد على الرى فى أيام الوزير ذى الكفائتين ثم بعد مقتله أمضى ثلاث سنوات فى بلاط الوزير السهير صاحب بن عباد ، وأنه طيلة هذه المدة لم يحظَ بما كان يأمله من منح ورزق حسن ، وقد أجرى هذا الكلام على لسان صديقه أبى الوفاء ، وعدد المسائى التى لحقت به من ابن عباد ، والتى إن دلت على شئٍ فإنما تدل على أنه ورد على وزير جافى القلب ، سئى المعاملة ، متجهم الوجه ، طالم النفس ... ولكن لا نقرُّ أبا حيان على هذه الصفات التى ألحقها بالصاحب بن عباد - والذى شهد له كل معاصريه بالنزاهة والإنصاف حتى ولو جرى هذا الكلام على لسان صديقه أبى الوفاء ، لأن الصديق لم يكن معه فى تلك الرحلة ، ولم يرسل من يتقصى أخبار أبى حيان فى بلاط هذين الوزيرين ، والحقيقة أن هذا الكلام كلامه هو وليس كلام صديقه .

فالصاحب بن عباد الذى حار الثعالبى ^(٢) بأى عبارة يصف كرمه ونداه، هذا الرجل قد شأى أستاذه أبا الفضل بن العميد فى الحفاوة براغبى رفده وطالبى معونته، وقد بكر الثعالبى أنه فى صباه حينما كان يتردد على بلاط ابن العميد، هاله أن يرى أستاذه يودع أصحابه قبل مجيئ وقت الإفطار فى شهر رمضان ، ولا يدعهم للإفطار معه، ومنعه الحياء أن ينقد أستاذه، فلما أصبح ذا شأن فى بلاط الدولة البويهية لم يترك إنساناً يأتية فى ذلك الشهر إلا وأوجب عليه الانتظار لمشاركته الإفطار .

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان - ص ٤ ، ٤

(٢) الثعالبى - يتيمة الدهر - مرجع سابق ص ١٨٦

فإذا تأكد لنا بعض خلال ذلك الرجل وسماته فيكون من الصعب التسليم بما يقوله أبو حيان عنه ، وإذا علمنا أن من سمات أبي حيان الإلاح في الطلب فلا نستغرب إذا حدث نفور منه إزاء تكالبه وتزاحمه على العطاء ، فهو على عظمة تفكيره ، وقوة تعبيره ، وقدرته الفائقة على تحليل دوائر النفس البشرية ، قد أعجزته نفسه في تحليلها ، ومحاولة علاجها ، فهذا هوذا في نهاية كتاب " الإمتاع والمؤانسة " راح يستجدي صديقه أبا الوفاء المهندس بطريقة تتنافى مع مكانته الأدبية ، وعلو كعبه في الفكر والفلسفة ، يقول « خلّصني أيها الرجل من التكلف ، أنقذني من لبس الفقر (١) ، أطلقني من قيد الضر ، اشترني بالإحسان ، اعتدني بالشكر ، استعمل لسانى بفنون المدح ، اكفني مؤونة الغداء والعشاء ، إلى متى الكسيرة اليابسة ، والبقيلة الذائبة ، والقميمص المرقع ؟ ... إلى متى التأدّم بالخبز والزيتون ، قد والله بَحُّ الحلق ، وتغيّر الخلق ، الله الله في أمرى ، اجبرني فإننى مكسور ، اسقني فإننى صد ، اغثنى فإننى ملهوف ، شهّرني فإننى غفل ، حلّني فإننى عاطل » نقول أين هذا المستجدي وهذا الاستجداء من قول الحق جل وعلا « للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض (٢) يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً » أمّا صاحبنا أبو حيان فقد ألحفَ أيما إلحاف واستجدي أيما استجداء ، مما أزل مكانته العلمية وأساء إلى عزته الأدبية .

فقرات من كتابه مثالب الوزراء :

على أن نقدنا لأبي حيان التوحيدى لا يمتنعنا من إيراد بعض الفقرات من كتابه (مثالب الوزراء) وهما أبو الفتح على بن أبي الفضل محمد بن العميد وأبو القاسم اسماعيل بن عباد بن عباس الملقب بالصاحب بن عباد - أولهما كان وزيراً لركن الدولة بن بويه من سنة ٣٦٠ هـ إلى ٣٦٦ هـ وثانيهما كان وزيراً لمؤيد الدولة حتى وفاة المؤيد من سنة ٣٦٧ إلى سنة ٣٧٣ هـ ثم وزيراً لأخيه فخر الدولة إلى أن توفي هذا الوزير في سنة ٣٨٥ هـ.

وقد اتصل أبو حيان بهذين الوزيرين فيما بين سنة ٣٦٠ إلى سنة ٣٧٠ هـ ، وألف عنهما كتابه المذكور ، وفيما يخصُّ الصاحب بن عباد :

(١) الإمتاع والمؤانسة - الجزء الثالث ص ٢٢٦ ، ٢٢٧

(٢) الآية رقم ٢٧٣ من سورة البقرة .

١ - قال بعد أن رجع إلى بغداد حانقا عليه .

ما ذنبى أن ذكرتُ عنه ما جرّعنيهِ من مرارة الخيبة^(١) بعد الأمل ، وحملني عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة ، والوعد المتصل ، والظن الحسن ، حتى كائنٌ خُصصتُ بخصاصته وحدي ، أو وجب أن أعامل به دون غيري .
٢ - وهو في تناوله للصاحب يعتدل حيناً ، ويتوسط حيناً ، ويسف حيناً .

(١) فمن اعتداله قوله :

" كان ابن عباد شديد الحسد لمن أحسن القول^(٢) ، وأجاد اللفظ ، وكان الصواب غالباً عليه ، وله رفيق في سرد حديث ، ونيقة (تحسين وتوضيح) في رواية ، وله شمائل مخلوطة بالدماثة بين الإشارة والعبارة ، وهذا شئ عام في البغداديين^(٣) ، وكالخاص في غيرهم " .

ومنه قوله :

" حضرتُ مائدة الصاحب بن عباد فقُدِّمت مضييرة (مرقعة باللبن الحامض) ، فأمعنتُ فيها ، فقال لي : يا أبا حيان . إنها تضرُّ بالمتساخ ، فقلت . إن رأى الصاحب أن يدع التطبُّب على طعامه فعَل ، فكائنٌ ألقمته حجراً ، وخجل واستحيا ، ولم ينطق إلى أن فرغنا " .

وكذلك قوله .

" طلع ابن عباد على يوماً في داره ، وأنا قاعد في كسر ديوان أكتب شيئاً قد كان كادني به (أى كلفني به) ، فلما أبصرته (نهضت) قائماً ، فصاح بحلق مشقوق . أقعد ، فالوراقون أحس من أن يقوموا لنا . فهمتُ بكلام ، فقال لي الزعفراني الشاعر (تقدم الحديث عن كرم الصاحب معه) . اسكُت فالرجل رقيق ، فغلب على الضحك ، واستحال الغيظ تعجباً من خفته وسخفه ، لأنه قد قال هذا وقد لوى شدقه ، وشنَّج أنفه ، وأمال عنقه ، واعترض في انتصابه . وانتصب في اعتراضه ، وخرج في تفكك مجنون ، قد أفلت من دير جنون والوصف لا يأتى على كُنه هذه الحال ، لأن حقائقها لا تُدرك إلا باللحظ ، ولا يؤتى عليها باللفظ ، فهذا كله من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء ، وسيرة أهل العقل والرزانة ، لا والله وترباً (خسراناً) لمن يقول غير هذا " .

(١) أنوحيان التوحيدي للصوفي ج٢ ص ٧٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٠ ، ٧١ .

(٣) لاندري لمادا خص البغداديين بهذه الصفة مع أن الصاحب لم يكن بغدادي الأصل

(ب) ومن توسطه قوله :

« كان صاحب كثير المحفوظ^(١) ، حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، وقد نتف من كل أدب شيئاً ، وأخذ من كل فن طرْفاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين والمعتزلة ، وكتابتة مهجّة بطرائقهم ومناظرتهم ، مشوبة بعبارة الكتاب .
وهو شديد التعصب على أهل الحكمة ، والناظرين فى أجزاءها . كالهيدسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد ، وليس له من الجزء الإلهى خبر ، وليس له فيه عين ولا أثر .

وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ، ويقول الشعر ليس بزال (أى ليس بمنحرف) وبديته غزارة ، أمّا رويته فخوارة ، ولا يرجع إلى التآله والرقعة ، والرافة والرحمة ، والناس كلهم يحجمون عنه ، لجرأته وسلطة لسانه ، واقتداره وبطشه ، شديد العقاب ، طفيف الثواب . طويل العتاب ، بدئ اللسان ، سريع الغضب ، بعيد الفيئة (الرجوع عن الغضب) قريب الطيرة ، حسود حقود ... وقد قتل خلقا ، وأهلك ناساً ... ومع هذا يخدعه الصبى ، ويخلبه الغبى لأن المدخل عليه واسع ، والمأئى إليه سهل » .

(ح) ومن إسفافه قوله :

« ثم نظر إلى غلام قد بقل وجهه (أى نبت شعر لحيته) كان يتهّم به على الوجه الأقبج ، فالتوى وتقلقل ، وقال : أدن منى يا بنى ، كيف أنت ؟ ولم حملت نفسك على هذا العناء وجهك هذا الحسن لا يتبدل للشحوب ، ولا يعرض للفحات الشمس بين الطلوع إلى الغروب ، أنت تحب أن تكون بدلة ، بين حجلة ركلة ، تزاح بك العلة ، وتغلى بك القلة ، وتشفى بك الغلة » .

ويعقب الدكتور الحوفى على كلام أبى حيان هذا بقوله : " ولكننا نستبعد هذا كله لأن أبى حيان ادعاه فى الأحاديث التى استقبل بها ابن عباد الناس الذين خفوا للقائه لما رجع مع همدان سنة ٣٦٩ هـ وفيهم الفاضى أبو الحسن الهمدانى والزعفرانى رئيس أصحاب الرأى ، وابن القطان القزوينى ، والحنفى العالم الظريف ، وأبوطالب العلوى الشريف^(٢) ، وأبو خراسان الفقيه الشافعى ، وهؤلاء ذكرهم أبو حيان نفسه فى المستقبلين ، فكيف يجهر أمامهم ابن عباد بما زعمه أبو حيان ؟

(١) المرجع السابق ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٣ .

ودفعاً لتجنّي أبى حيان على ابن عباد^(١) فيما ذكرنا وفيما لم نذكر ، نهى الكلام عن ابن عباد ببعض مما ذكره ابن تغرى بردى عنه « وفيها (أى سنة ٣٨٥هـ) توفى الوزير صاحب اسماعيل بن عباد بن العباس أبو القاسم ، وزير مؤيد الدولة بن ركن الدولة الحسن بن بويه ، ثم وزر لأخيه فخر الدولة ، كان أصله من الطالقان ، وكان نادرة زمانه ، وأعجوبة عصره فى الفضائل والمكارم ، أخذ الأدب عن الوزير أبى الفضل ابن العميد وزير ركن الدولة بن بويه ، وسمع الحديث عن أبيه ، ومن غير واحد، وحدّث باليسير ... ولما ولي الوزارة قال فيه أبو سعيد الرستمي .

ورث الوزارة كابراً عن كابرٍ موصولةً الإنسان بالإسناد
يروى عن العباس عبّادُ وزا رته وإسماعيلُ عن عبّارٍ

ولما مات مؤيد الدولة وتولى السلطنة أخوه فخر الدولة ، أقرّ صاحب على وزارته ، فعظم أمره أكثر مما كان ، وبقي فى الوزارة ثمانية عشر عاماً ، وفتح خمسين قلعة وسلمها إلى فخر الدولة . وكان عالماً بفنون كثيرة ، وأما الشعر فإليه المنتهى فيه .

ثم قال ابن تغرى بردى « وأخبار ابن عباد كثيرة ، وقد استوعبنا أمره فى كتاب (الوزراء) وليس هذا محل الإطناب فى التراجم ، سوى تراجم ملوك مصر التى بسببها: صنّف هذا الكتاب . ثم بعد ذلك ذكر وفاة أبى صاحب ، فقال : " وفيها (أى سنة ٣٨٥هـ) توفى أبو الحسن عباد بن عباس والد صاحب بن عباد المقدم ذكره ، مات بعد ابنه بمدة يسيرة ، وكان فاضلاً جليلاً ، سمع الحديث ، وصنّف كتاب (أحكام القرآن) . وقد تقدّم أن أصلهم من الطالقان ، وهى قرية كبيرة بين قزوين وأبهر ، وحولها عدة قرى ، وقيل : هو أقليم يقع عليه هذا الإسم ، وبخراسان مدينة يقال لها : طالقان غير هذه .

(١) ابن تغرى يروى- النجوم الزاهرة - الجزء الثالث من ص ١٦٩ إلى ص ١٧٢ .

ثالثاً : أبو عبدالله العارض (أو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان)

اتصل أبو حيان التوحيدى عن طريق صديقه أبى الوفاء المهندس ، بوزير صمصام الدولة ابن بويه (فى بغداد) ، وقد أسماه أبو حيان بأبى عبدالله العارض الوزير ، وبالرجوع إلى كتب الأدب وإلى ما حققه الأستاذان: أحمد أمين وأحمد الزين فى مقدمة « الإمتاع والمؤانسة »^(١) لأبى حيان يتضح لنا أبا عبدالله العارض هو أبو عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان .

ولنا أن نتساءل عن هؤلاء الأعلام الذين كانوا سببا فى تأليف أبى حيان لكتاب : «الامتاع والمؤانسة» .

(أ) أبو الوفاء المهندس :

هو الرجل الذى صادق أبا حيان وكان سببا فى اتصاله بالوزير أبى عبدالله العارض أو أبى عبدالله بن سعدان ، والذى دار بينه وبين أبى حيان حوار طويل على مدى سبع وثلاثين ليلة فى شتى الموضوعات ، وقد سجله أبو حيان بدقة وأمانة فى كتابه المذكور .

فأبو الوفاء المهندس الذى أوصل أبا حيان إلى الوزير العارض والذى طلب منه تدوين كل ما دار بينه وبين الوزير فى ذلك الكتاب : هو محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني ترجم له ابن النديم (فى الفهرست) وابن خلكان فى وفيات الأعيان ، وقال عنه الأخير " إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يُسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس - وهو القيم بهذا الفن يبالغ فى وصف كتبه ، ويعتمد عليها فى أكثر مطالعته ، ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تأليفه عدة كتب وكانت ولادته سنة ٣٢٨ هـ بمدينة بوزجان ، وقدم العراق سنة ٣٤٨ وتوفى سنة ٣٧٦ " .

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان ، وقد وصفه ابن سعدان فى جملة من وصف من أصحابه . فقال : " وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد عن المؤانسة الطبية ،

(١) الإمتاع والمؤانسة للتوحيدى - مرجع سابق ص (هـ) .

والمساعدة المطربة ، والمفاكهة اللذيذة ، والمؤاتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراساني ، وإشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادى إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراسانى إذا تبغدد .

ويحكى لنا أبو حيان كيف قاده صديقه أبو الوفاء المهندس إلى مجلس الوزير أبي عبد الله بن سعدان بقوله : " قلت لى - أدام الله (١) تعالى توفيقك فى كل قول وفعل ، وفى كل رأى ونظر - إنك تعلم يا أبا حيان أنك انكفأت من الرىء إلى بغداد فى آخر سنة سبعين (٣٧٠هـ) بعد فوت مأمولك من ذى الكفايتين - نضر الله وجهه - عابساً على ابن عباد ، مغيطاً منه ، مقروح الكبد ، لما نالك من الحرمان المر ، والصد القبيح ، واللقاء الكريه ، والجفاء الفاحش ، والقذع (أى الزجر) المؤلم ، والمعاملة السيئة فأرعتك بصرى ، وأعرتك سمعى ، وساهمتك فى جميع ما وقرته فى أذنى بالجزع والتوجع والاستفظاع والتفجع ، وضمنت لك تلافى ذلك كله بحاق الشفقة (بصادقها) وخالص الضمير ، ووعدتك صلاح الحال عن ثبات النية ، وصحة العقيدة ، وقلت . أنا أرعى حقك القديم حين التقينا (بأرجان) وأنا على باب (ابن شاهويه) الفقيه ، وعهدك الحديث حين اجتمعنا بمدينة السلام سنة ثمان وخمسين (٣٥٨هـ) وأوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض - أدام الله فضله وتأييده (٢) - وأخطب لكم قبولا منه ، وتخفيف الإذن عليه ، وامتلاء الطرف بك ، ونيل الخطوة بخدمتك وملازمتك ، وفعلت ذلك كله حتى استكتبك (كتاب الحيوان) لأبى عثمان الجاحظ ، لعنايتك به ، وتوفرك على تصحيحه ، ثم حضنت لك هذه (أى كفلتها لك) إلى يومنا هذا (أى عام ٣٧٣هـ) وهو الوزير العظيم الذى لفتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه ، وإلى أن يكون هو المبرم والناقض نعم ورتبت ذلك ، ولم أقطع عنك عادتى معك فى الاسترسال والانبساط والبر والمواساة ، والمساعدة والمؤاتاة ، والتعصب والمحاماة .

أفكان من حقى عليك فى هذه الأسباب التى ذكرتها ، وفى أخواتها (٣) التى تركتها ، كراهة الإطالة بها : أنك تخلو بالوزير - أدام الله أيامه - ليالى متتابعة ومختلفة فتحدثه بما تحب وما تريد ، وتلقى الله ما تشاء وتختار ، وتكتب إليه الرقعة بعد الرقعة ولعلك فى عرض ذلك تعدو طورك بالتشدد رتجز حدك بالاستحقار ، وتتناول إلى ما ليس لك ، وتغلط فى نفسك ، وتنسى زلة العالم ، وسقطة المتحرى ، وخجلة الواثق ، هذا

(١) المرجع السابق ص ٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٣) هذا كلام أبى الوفاء لأبى حيان .

وأنت غرّ لاهيئة لك فى لقاء الكبراء ، ومحاوره الوزراء ، وهذه حال تحتاج فيها إلى عادة غير عادتك ، وإلى مرانٍ سوى مرانك ، ولبسة لا تشبه لبستك والعجب أنك مع هذه الخلّة (أى هذه العيوب) تظن أنها مطوية عنى ، وخافية دونى وجهلت أن من قدر على وصولك ، يقدر على فصولك (أى خروجك) وأن من صعد بك حين أراد ، ينزل بك إذا شاء ، وأن من يحسن فلا يشكر ، يجتهد فى الاقتصاد حتى يعذر .

وبعد فما أطيل (عليك) ، ولعل لهب الموجدة يزداد ^(١) ، ولسان الغيظ يغلو ، وطباع الإنسان تحتد ، والنّدم على ما أسلفت من الجميل يتضاعف ، ولست أنت أول من برّ فعقّ ، ولا أنا أول من جفّى فنقّ (تحدث بما أسداه له من نعم) وهذا فراق بينى وبينك ، وآخر كلامى معك ، وفاتحة يأسى منك ، قد غسقت يدى من عهدك بالأشنان البارقيّ (مادة تستخدم لغسل الأيدى والتياب) وسلوت عن قربك بقلب معرض وعزم حىّ ، إلا أن تطلعنى طلع جميع ما تحاورتما فى هزله وجدده ، وخيره وشره ، وطيبه وخبيثه ، ويأديه ومكتوبه ، حنى كائن كئت شاهدأ معكما ، ورقيبأ عليكما " .

خلاصة حديث أبى الوفاء المهندس لأبى حيان :

١ - بعد أن تمّ تعريف أبى حيان التوحيدى بالوزير أبى عبدالله العارض عن طريق أبى الوفاء المهندس . راح الأخير يعدّد فضائله على أبى حيان ، بعد أن رجع من الرى إلى بغداد ، عابس الوجه مقروح الفؤاد ، ناقماً على صاحب بئ عباد ، الذى لبث فى بلاطه طالبا عطاياه ثلاث سنوات حتى آخر سنة ٣٧٠ ، فلم يحظ منه بطائل ، كماله يحظ قبله من سلفه أبى الفتح بن العميد ، فقيض الله له هذا الصديق لينسيه بؤسه وفاقته ، بتعريفه بوزير صمصام الدولة فى بغداد ، وهو أبو عبدالله العارض .

٢ - ذكر له أبو الوفاء أنه كان صادق الوعد حسيما قابله فى مجلس ابن شاهويه الفقيه الشافعى الذى تولى القضاء ببلاذ فارس - وعده فى ذلك المجلس وكذلك حينما التقيا ببغداد سنة ٣٥٨ بأنه سيعمل على تحسين حاله بدافع الشفقة وإخلاص الضمير .

٣ - ثم ذكر بعد ذلك أنه عمل بهمة ونشاط حتى جعله يغال الحظوة بمجالسة أبى عبدالله العارض الذى طلب منه نسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وهو أول عمل كلفه به ذلك الوزير العظيم الذى افتقرت الدولة إلى نظره وأمره ونهيه (كما قال) ولم يقطع أبو الوفاء عونه عنه فى كل أمر يحتاج فيه إليه .

(١) المرجع السابق ص ٦ ، ٧ .

٤ - ثم قال له . بعد توضيح هذه الأسباب ، وتلك الأفضال التي ذكرتها والتي لم أذكرها كان من حقي عليك - وأنت الإنسان الذي لا يحسن مجالسة الأمراء والوزراء إلا بعونى ومساعدتى - كان من حقي عليك أن تطلعنى على كل صغيرة وكبيرة ، مما يدور بينك وبين الوزير أبى عبدالله العارض ، وإلا فإنى أستطيع أن أرجعك إلى الحال التي كنت فيها ، والفاقة التي لازمتك .

٥ - إزاء هذا الأمر من تعديد النعم والأفضال لم يكن أمام أبى حيان إلا أن يقول : «أنا سامع مطيع ، وخادم^(١) شكور ، لا أشتري سخطك بكل صفراء وبيضاء فى الدنيا (يريد بالصفراء الذهب وبالبيضاء الفضة) . ولا أنفر من التزام الذنب ، والاعتراف بالتقصير ومثلى يهفو ويجمع ، ومثلك يعفو ويصفح ، وأنت مولى وأنا عبد ، وأنت أمر وأنا مؤتمر . . . هذا وأنا أفعل ما طالبتنى به من سرد جميع ذلك من التفاوض ، فإن أذنت جمعته كله فى رسالة تشتمل على الدقيق والجليل ، والحلو والمر » .

(ب) الملك صمصام الدولة بن بويه

هو صمصام الدولة المرزبان ، وكنيته أبو كاليجار بن عضد الدولة^(٢) بن بويه بن بكن الدولة الحسن بن بويه الديلمى . ولّى المملكة بعد موت أبيه عضد الدولة سنة ٣٧٢ (ومات عمه مؤيد الدولة بعد أبيه بمدة يسيرة فى ذات العام) . ومات صمصام الدولة هذا وعمه فخر الدولة فى عام واحد هو عام ٣٨٧ هـ ، وبعد أن تقلد الملك بموت أبيه لم ينجح أمره وغلب عليه أخوه شرف الدولة ، وقهره وحبسه ، وأخذ بغداد منه ، وأكحله (أى سمل عينيه) فدام فى الحبس إلى أن مات شرف الدولة ، ونزل من الحبس وهو أعمى ، وأنضم إليه أناس ، وسار إلى فارس وملك شيراز ، ووقع له أمور وحروب مع أولاد أخيه أبى نصر بهاء الدولة الذى تولى الحكم بعد أخيه شرف الدولة . وسار فى عام ٣٨٤ من شيراز يريد الأهواز ، فخرج عليه أخوه بهاء الدولة من بغداد ونزل واسطاً ، وأرسل جيئتا لقتال صمصام الدولة فالتقوا معه وانتصروا عليه فانهزم إلى شيراز وأقام بها إلى أن قتل .

ونحن إذ نذكر صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه فإنما نذكره لأنه استوزر منذ توليه الملك أبى عبدالله الحسين بن أحمد بن سعدان ، ذلك الوزير الذى استدنى

(١) المرجع السابق ص ٧ ، ٨ .

(٢) جمال الدين بن تيمى يروى - النجوم الراهرة - الجزء الرابع ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

أبا حيان التوحيدى ودار بينهما حوار طويل أصبح تراثا يقرأ ويدرس فى كتاب «الامتناع والمؤانسة» .

(ج) الوزير أبو عبد الله العارض (أو أبو عبد الله بن سعدان)

هو الرجل الذى استوزره ، صمصام الدولة البويهى سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة ، وأبو عبد الله بن سعدان هو الوزير الذى كان سببا فى الصلح بين صمصام الدولة وعمه فخر الدولة بمكاتبتة صاحب بن عباد وزير فخر الدولة سنة ٣٧٤ " وكان ابن سعدان يخاطب صاحب بن عباد بالصاحب الجليل ، والصاحب بن عباد يخاطب ابن سعدان بالاستاذ مولاي ورئيسى " . وقد جاء فى كتاب ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع " وفيها - أى سنة ٣٧٣هـ ^(١) - خلع على أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خلع الوزارة ، وكان رجلا باذلا لعطائه مانعا للقائه ، فلا يراه أكثر من يقصده إلا بين نزوله من درجة داره إلى زبزه (نوع من السفن) ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه فى أكثر مطلبه ... فبسط يده فى الإطلاقات والصلات .. وأحدث من الرسوم استيفاء العُشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والحواشى من أموالهم وأرزاقهم " ثم حدث أن تغيرت به الحال ، بسعى الوشاة وطالبى الجاه ، إلى أن أوردوه شر المال . فيقول أبو شجاع ، وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق فى وقت نظره (وقت وزارته) من غلاء سعر ، فتطيرت العامة ، ورجموا زبزه ، وشغبوا الديلم عليه ، وهجموا على نهب داره ، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردهم " .

وظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ هـ حتى ظهر له خصم عنيد هو أبو القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، فظل يكيد له ، وينصب له الشباك للإيقاع به ، وحدث أن أراد ابن سعدان أن يعين أباه كاتبا لوالدة صمصام الدولة ، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة « إن ابن سعدان قد استولى على أمورك ، وملك عليك خزائنك وأموالك ، فإذا تم له حصول والده مع السيدة جعلنا تحت الحَجَر معك » . وتمت المكيدة ، ولم يعين أبوه ثم قبض عليه وأصحابه وأودعوا السجن ، واستوزر صمصام الدولة هذا الواشى أبا القاسم عبدالعزيز بن يوسف ، ولم يكتفِ أبو القاسم بمحبس ابن سعدان ، فانتهاز فرصة خروج تاجر على صمصام الدولة ، اسمه (أسفار بن

(١) مقدمة كتاب الامتناع والمؤانسة لأبى حيان ص ح ، ط .

كردويه) يريد خلعه ، فـدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة ان ابن سعدان متصل بهذا الثائر ، وأن الذى جرى كان من فعله وتدييره ، وأنه لا يؤمن ما يتجدد منه فى محبسه ، فأمر صمصام الدولة بقتله فقتل سنة ٣٧٥هـ " .

اتصال أبى حيان التوحيدى بالوزير ابن سعدان :

لقد أوصل أبو الوفاء المهندس صديقه أبا حيان إلى مجلس الوزير أبى عبدالله الحسين ابن سعدان ، والذى أسماه أبو حيان أبا عبدالله العارض ، وكان بداية معرفته فى أول الأمر ندية مطمئنة ، فقد كلفه ^(١) بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ وألف له رسالة الصداقة ، ثم سامره فى مدى أربعين ليلة (المسامرة طبقاً لمسميات ليايها أربعون ليلة . إلا أن أحداثها دارت فى سبع وثلاثين ليلة) .

أما كتاب الصداقة والصديق فقد بدأ أبو حيان فيه بطلب من أبى عبدالله بن سعدان ، قبل أن يتولى الوزارة لصمصام الدولة بن بويه (سنة ٣٧١ كما يقول الدكتور الحوقى) . ويقتى فى مسودته إلى ما بعد عام أربعمائة حيث تنبّه إليه فبيّضه ورتبه .

وأما كتاب " الامتاع والمؤانسة " فكان ثمرة الحوار الذى استمر بين الوزير العارض وبين أبى حيان على مدى سبع وثلاثين ليلة ، حيث تناولا فى كل ليلة موضوعاً شائقاً يستدعى الغوص فيه وتحليله ، فكان الوزير يطرح السؤال ، وكان أبو حيان يجيبه بالدليل المساطع والبرهان القاطع فى ذات الليلة . وتنتهى بلحة اللقاء وهى نادرة أو حكمة يقولها أبو حيان مما استوعبته حافظته ، من التاريخ والأدب بناءً على الطلب .

هل اتصل أبو حيان بأحد من وزراء عصره بعد أبى عبدالله العارض :

إذا رجعنا إلى كتاب الصداقة والصديق وإلى ما قرره ياقوت الحموى ^(٢) فى هذا المصد سنجد أن سبب تأليفه هو رسالة فى الصداقة والصديق بين أبى حيان وزيد بن رفاعة أبى الجبر ، فنقل زيد ذلك إلى أبى عبدالله سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ، قبل تحمله أعباء الدولة وتدييره أمر الوزارة ، فقال له ابن سعدان (ويحتمل أن يكون حدوث هذا الحوار بعد تحمله أعباء الوزارة) : « لقد قال لى عنك ^(٣) زيد كذا وكذا ، قلت : قد كان ذاك ، فقال لى : دون هذا الكلام وصله بصلاته . مما يصح عندك لمن تقدّم ، فإن

(١) الدكتور أحمد محمد الحموى - أبو حيان التوحيدى - الجزء الأول مرجع سابق ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) ياقوت الحموى - معجم الادباء ح/ ١٥ من ص ٥ إلى ١٦

(٣) المرجع السابق ص ٥ .

حديث الصديق حلو ، ووصف صاحب مطرب ، فجمعت ما فى هذه الرسالة ، وشُغل عن ردِّ القول فيها ، وبطُوتُ أنا عن تحريرها ، إلى أن كان من أمره ما كان (هنا إشارة إلى المصير الذى آل إليه الوزير) ، فلما كان هذا الوقت ، وهو رجب سنة أربعمئة . عثرت على المسودة وببضتها .

ونستنتج مما سبق أن أبا حيان التوحيدي قد عاش إلى ما بعد عام أربعمئة هجرى ، ودليل آخر يؤكد أنه عاش إلى ما بعد هذه السنة ، هو الرسالة التى بعث بها إلى القاضى أبى سهل على بن محمد فى رمضان سنة ٤٠٠ هـ ردأ على رسالته التى يلومه فيها على إقدامه على حرق كتبه ، وذكر له أبو حيان الأسباب التى دفعته لحرق تلك الكتب . فهذان الدليلان يؤكدان أن أبا حيان قد عاش إلى ما بعد سنة أربعمئة هجرية . (وإشارته إلى ما آل إليه أمر الوزير يؤكد أنه ابن سعدان) .

ولنا أن نتساءل . هل اتصل أبو حيان بأحد من وزراء عصره بعد اتصاله بابن العميد ثم بالصاحب بن عباد ثم بأبى عبدالله العارض (ابن سعدان) ، ونعلم أن هذه الاتصالات قد انتهت بانتهاء وزارة ابن سعدان فى عام ثلاثمئة وخمسة وسبعين ، فكيف كان حال أبى حيان بعد هذا التاريخ . هل تردد على بلاط وزراء آخرين عرفوا بحبِّ الأدب والأدباء والعلم والعلماء ؟

بالرجوع إلى كتب الأدب والتاريخ لم نجد ذكراً لأبى حيان بين جموع العلماء والأدباء الذين حفل بهم بلاط الوزراء الذين تلوا ابن سعدان سواء فى بغداد أو فى الرى ، وإذا علمنا أن صاحب بن عباد ظلّ وزيراً لفخر الدولة بن بويه حتى عام ٣٨٥هـ^(١) إلا أن صلة أبى حيان قد انقطعت معه منذ عام ٣٧٠ هـ حيث رجع إلى بغداد ساخطاً عليه ، وألف فى ثلثه وفى ثلث ابن العميد كتاب (مثالب الوزيرين) فلم يكن يجرؤ على العودة إلى بلاطه بعد ذلك . كذلك لانجد لأبى حيان ذكراً من بين المترددين على بلاط الوزير الشهير ، والأديب النحرير ، سابور بن أردشير ، وزير بهاء الدولة ابن بويه ، وذلك فى التاريخ اللاحق لتاريخ اتصاله بأولئك الوزراء .

وهذا يجعلنا نؤكد أن أبا حيان قد انقطع للتأليف ، ونسخ الكتب طيلة هذه الفترة التى تلت عام ٣٧٥هـ إلى حين وفاته فى عام ٤١٤ هـ ، ونؤكد أيضاً أنه لزم بغداد ولم يبرحها إلى أن وافاه أجله ، ولعل يؤسه وشقاءه قد حرماه من التأهل لمجالسة أولئك الأمراء والوزراء ، ويقول ياقوت الحموى فى تصوير وضعه هذا .

(١) الدكتور / حامد حنفى داود - الآداب الاقليمية ص ٤٤ .

" ولم أر أحداً من أهل العلم ذكره فى كتاب ، ولادمجه فى ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجائب " .

غير أن ياقوت الحموى قد ذكر فى معجم الأدباء - كما أشار الدكتور الحوفى (١) - أن أبا حيان قال . انه اتصل بالدلجى بشيراز ، وجمع له كتاب المحاضرات أى بعد اتصاله بابن سعدان الذى انتهى فى سنة ٣٧٥ هـ - ثم تحدث عن إكرام الدلجى له ووفائه بما وعد من مكافأة .

وأغلب الظن أن الدلجى هو أبو القاسم المعمر بن الحسين المدلجى الذى كان وزيراً لصمصام الدولة بشيراز - مدة سجن وزيره أبى القاسم العلاء بن الحسن من سنة ٣٨٢ إلى سنة ٣٨٣ هـ - كما تحقق من ذلك الدكتور عبدالرازق محيى الدين نقلا عن الكامل لابن الاثير .



(١) الدكتور / أحمد محمد الحوفى - أبو حيان الترحيدى ج ٢ ص ٨٨ .

فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

قال الأديب الأريب المؤرخ المحقق المدقق ياقوت الحموي عن أبي حيان التوحيدي «وكان (أى التوحيدي) متفننا فى جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأى المعتزلة ، وكان جاحظيا يسلك فى سبيله مسلكه ، ويشتهى أن ينظم فى سلكه ، فهو شيخ الصوفية ، وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ومحقق الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء ... »

هذا الكلام الذى أبان فيه الحموي مكانة ابي حيان التوحيدي فى دنيا الأدب العربى، ومكانته فى فلسفة المتأدبين يحتاج إلى تفصيل ، وتحليل هذا الرأى نقول بعون الله تعالى

أولاً : المرحلة الثقافية التى وصل إليها القرن الرابع الهجرى :

لقد وصلت الثقافة العربية ^(١) فى القرن الرابع الهجرى إلى ذروة عالية من النضج والازدهار ، متجاوبة مع اتساع رقعة الدولة الإسلامية آنئذ ، واستيعابها لثقافات أمم شتى - ناهيك عن ضعف دولة الخلافة فى بغداد - فتحملت الثقافة العربية لهذا مسئولية كبرى تجاه التقدم البشرى ، ونقل الإنسانية من عصور الجهالات والظلمات إلى عصر النور الإلهي وعظمة التوحيد .

وهذه القمة التى وصل إليها الأدب العربى بصفة خاصة فى القرن الرابع ، والثقافة العربية بصفة عامة جعلت مؤرخى الأدب العربى ^(٢) يقسمونه فى العصر العباسى إلى عصرين كبيرين فى أربع مراحل ^(٣) :

العصر العباسى الأول من عام ١٣٢ إلى عام ٣٣٤ هـ :

وفيه المرحلة الأولى : وتبدأ بعام ١٣٢ هـ وهو العام الذى سقطت فيه الدولة الأموية، وقامت على أنقاضها الدولة العباسية . وتنتهى هذه المرحلة فى سنة ٢٤٧ هـ وهى السنة التى قُتل فيها الخليفة المتوكل على الله العباسى عاشر خلفاء بني العباس : وتتميز هذه المرحلة بغلبة العنصر الفارسى فى سياسة الدولة .

(١) خيرى شلى - أبو حيان التوحيدي - ربيع الثقافة العربية ص ٥ .
(٢) الدكتور حامد حفى داود - تاريخ الأدب العربى فى العصر العباسى الأول والثانى
(٣) المرجع السابق .

أما المرحلة الثانية : فتبدأ من عام ٢٤٧ وتنتهى فى عام ٣٣٤ هـ وهو العام الذى تمكن فيه بنو بويه من دخول العراق ، والاستيلاء على بغداد ، والسيطرة على الخلافة العباسية .

العصر العباسى الثانى من عام ٣٣٤ إلى عام ٦٥٦ هـ :

وفيه المرحلة الثالثة : وتبدأ من عام ٣٣٤ وتنتهى فى عام ٤٤٧ هـ وهو العام الذى قويت فيه شوكة دولة السلاجقة الأتراك ، فاستعان الخليفة القائم العباسى بجيوشهم التى يقودها طغرل بك ، وراسله القائم ليكون له عوناً على أعدائه البويهيين وغيرهم . ودخل طغرل بك مدينة بغداد فى عام ٤٤٧ هـ ووقع العراق فى قبضته وزال حكم آل بويه عنها ، بعد هروب أبى الحارث البساميرى البويهى .

أما المرحلة الرابعة . فتبدأ بعام ٤٤٧ وتنتهى فى عام ٦٥٦ هـ وهو العام الذى سقطت فيه الخلافة العباسية تحت حكم أفضع القوى الغاشمة فى عالم الاستيلاء والتدمير ، تلكم هى جحافل التتار الهمجية بقيادة هولاكو خان الزاحفة من شرقى ووسط آسيا التى اكتسحت فى طريقها كل دول العالم المتمددين آنذاك فى هذه القارة ، إلى أن بلغت بغداد فى عام ٦٥٦ هـ ، وسقطت فى يدها فأعملت السيوف فى رقاب أهلها بلا رأفة ولا رحمة بعد اغتيالها للمستعصم . آخر خلفاء بنى العباس .

ما يهتمان من هذا التمهيد :

ويهتمان من هذا التوضيح المرحلة التى يقع فيها القرن الرابع الهجرى ، ومدى ما وصل إليه هذا القرن من تقدم وازدهار ثقافى وهذا القرن فى الحقيقة يقع بين مرحلتين من المراحل السابقة وهما متتاليتين : المرحلة الثانية وهى التى تنتهى فى عام ٣٣٤ ، وأخذ منها الأربعة والثلاثين عاماً الأخيرة ، والثالثة وهى التى تبدأ بعام ٣٣٤ وتنتهى فى عام ٤٤٧ هـ ، ويأخذ منها الستة والستين عاماً . التالية لعام ٣٣٤ هـ ، وهذا التحديد يجعلنا نتساءل . ماذا كان حال الثقافة بصفة عامة فى ذلك القرن . (من ٣٠١ إلى ٤٠٠ هـ) .

ففى بداية هذا القرن نلاحظ من الناحية السياسية ^(١) غلبة العنصر التركى ، منذ اغتيال الخليفة المتوكل على الله بأيدى هؤلاء الأتراك ، ثم تنتقل الغلبة منذ سنة ٣٣٤ هـ إلى العنصر الفارسى الساسانى وهم بنو بويه ، حينما دخل قائدهم معز الدولة أحمد بن بويه عاصمة دولة الخلافة منتصراً ، وفرض حكمه عليها .

(١) المرجع السابق .

كما نلاحظ من الناحية الثقافية أن هذا القرن قد اتسم باستيعابه لثقافات أمم شتى، وظهر في كل إقليم ، أو كل دولة مستقلة عن دولة الخلافة آدابها ذات السمات المميزة ، وظهر النوابع في كل إقليم ، وفي شتى أنواع العلم والمعرفة ، وفي هذا الصدد يحدثنا الدكتور حامد حفنى داود فيقول .

« صحيح أن هناك دراسات قديمة ^(١) في الأدب ظهرت منذ القرن الرابع ، اقتصر فيها المؤلفون على إقليم معين لم يتعدوه إلى غيره، كالذى عني به صاحب يتيمة الدهر حين تناول في كتابه شعراء وكتاب الدولة البويهية في فارس وخراسان ، وبلاد الجبل وما وراء النهر ، ثم الشام ومصر وغيرها إقليما إقليما . وشبيه بذلك ما صنعه صاحب خريدة القصر حين تناول بالترجمة شعراء مصر في عصر الدولة الفاطمية ، لكن نظرة هؤلاء المؤرخين من رجال التراجم والطبقات لم تكن تعنى الإقليمية بمعناها العلمى الدقيق وإنما كانوا يقصدون من ذلك - دون تكلف - الترجمة للشعراء والكتاب الذين يعيشون في بيئة معينة ، وكأن مقصدهم كان من محض التبويب والتقسيم لا النظرة العلمية » .

إلا أن الدكتور حامد حفنى له رأى في تغلب البويهيين على دولة الخلافة العباسية فيقول « ولاشك أن ظهور هذه الدول الشرقية - ويعنى بها السامانية والبويهية والغزنوية والزيارية - وفي مقدمتها الدولة البويهية التى سيطرت على دار الخلافة وأخضعت الخليفة لسلطانها فى أواسط القرن الرابع - حول السلطان السياسى والفكرى والأدبى من بغداد إلى الشرق ، حيث مدينة الرى وأصفهان وعواصم البويهيين، وحيث بخارى عاصمة السامانيين ... كما تنافسوا فى نشر العلوم والآداب، وكان باعثهم على ذلك - وقد صارت القوة والسلطان فى أيديهم - محاكاة بغداد فى عصرها الزاهر ... وهذا الأمر حملهم على استئزاز الكتاب والشعراء المشهورين ، وأن من يقرأ تاريخ الكتاب والشعراء فى هذه الأقاليم يلمس بنفسه مدى صحة هذه الحقيقة، فركن الدولة البويهى يستوزر ابن العميد ، وهو عميد كتاب القرن الرابع ، ومؤيد الدولة ثم فخر الدولة من بعده يستوزران الصاحب بن عباد ، أحد اعلام القرن الرابع ، وصاحب المجالس الأدبية المشهورة ، وبهاء الدولة يستوزر سابور بن أردشير الوزير والأديب المشهور ، وحاكم مدينة بست يستوزر أبا الفتح البستى ... » .

(١) د. حامد حفنى داود - الآداب الاقليمية فى العصر العباسى ص ٢٠ .

ويؤكد مؤلف الآداب الإقليمية تسنم بلاد فارس قمة الكتابة فى أكثر من موضع فى القرن الرابع ، فيقول عند الحديث عن النثر وتطوره ^(١) فى الشام " سار النثر الفنى فى الشام فى نفس الخط الذى سار فيه وسلكه النثر فى فارس والعراق وخراسان ، ولم يكن هناك بد من أن ينسج كتاب النثر الفنى فى الشام على منوال الرئيس أبى الفضل بن العميد مبتكر أسلوب الشعر المنتثر والسجع الملتزم ، وهو الأسلوب الذى استنته ابن العميد لنفسه فى أواسط القرن الرابع ، وقلده الكتّاب فى جميع الأقاليم الإسلامية ، وكانت الرى فيه - وهى عاصمة الدولة البويهية - مركز إشعاع لأساليب الكتّاب فى بغداد ودمشق ومصر وقرطبة ، وجميع عواصم العالم الإسلامى فى القرن الرابع .. " . وكانت هذه الثقافة العربية قد استوعبت الثقافات القديمة والحديثة استيعابا تاما فى ذلك القرن ، فقد استوعبت الثقافة اليونانية والفارسية والهندية والمصرية ، واستطاعت اللغة المغربية أن تكون لغة الثقافة الرفيعة ، وكان من يريد الارتقاء من أبناء عالم ذلك القرن أن يتعلم اللغة العربية أولا ، ليقرا الثقافة فى مصادرها الأصلية المنقاة والمثبته البوتقة العربية الازدهار والمتانة ، ومن هذه المصادر يمكنه تحصيل المعرفة الصحيحة المفيدة .

مكانة أبى حيان التوحيدى بين مثقضى القرن الرابع :

وأبو حيان التوحيدى واحد من عمدة الثقافة العربية ^(٢) فى ذلك العهد الزاهر ، حتى ليعتبره بعض المؤرخين الناطق بلسان الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى ، « وهو مع ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير ^(٣) له ذكاء وفطنة ، وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان مع ذلك محدودا محارفا (محروما) يتشكى صرف زمانه ، ويبكى فى تصانيفه على حرمانه » .

وقال عنه بعضهم : إنه تلميذ الجاحظ ، وقال : بل إنه الجاحظ الثانى ، لكن الاستاذ الكبير العلامة المصرى الدكتور : أحمد أمين يرى أنه أجزل لفظا ، وأوسع علما ، لأن الجاحظ كان مسجل القرن الثانى - على ما فيه من ثقافة محدودة - وفى القرن الثانى كانت نشأة العلوم ، وأبو حيان مسجل القرن الرابع ، وقد نضجت العلوم . وشتان بين علم ناشئ وعلم ناضج .

(١) المرجع السابق ص ٨٦ .

(٢) خيرى شلبى - أبو حيان التوحيدى - ربيع الثقافة العربية ص ٥ .

(٣) ياقوت الحموى - معجم الأدباء ج/٥ ص ٥

وقد اتفق المؤرخون والدارسون ^(١) على أنه ليس مجرد مسجل لثقافة القرن الرابع الهجرى ، إنما هو صاحب دور جوهري وخالق وحضارى ، قام به فى تلك الفترة ، ويرى الدكتور زكريا ابراهيم (كما يقول الأستاذ خيرى شلبى) بأنه بوصفه مفكرا موسوعيا حاول أن يمزج الفلسفة بالأدب ، قدم للجمهور حكمة شخصية تكون فى متناولهم ، والتوحيدي - فى رأيه - جمع بين التراث اليونانى من جهة ، والثقافة العربية من جهة أخرى مما أهله للقيام بهذا الدور الحضارى المهم فى عصر كثرت فيه المجالس الأدبية والندوات الفكرية .

وخلاصة القول - بعد أن أوضحنا المدى الذى وصلت إليه الثقافة العربية فى القرن الرابع - أن أبا حيان التوحيدي قد استوعب ثقافته العربية التى تبلورت معها ثقافات أمم شتى وأضاف إلى هذا الاستيعاب تلمذه على المناطقة الذين نقلوا الفلسفة اليونانية إلى الثقافة العربية ، وبذلك يمكننا أن نردد قول ياقوت : ان أبا حيان هو فيلسوف الأدباء .

ثانيا : نقل الفلسفة اليونانية وتأثر أبى حيان بها :

لقد سبق القول بأنه قد تم نقل الفلسفة اليونانية إلى العربية فى ذاك القرن ، واشتهر أناس بالترجمة من اليونانية إلى العربية ، كما اشتهروا بتدريسهم المنطق اليونانى ، ومن هؤلاء أبو بشر متى بن يونس القنائى ، وأبو زكريا يحيى بن عدى المنطقى ، وأبو على اسحاق بن زُرعة ، وأبو الخير بن الحسن بن الخُمَار ، وقد تتلمذ أبو حيان على هؤلاء جميعا وتأثر بفكرهم بجانب استيعابه للأدب العربى ، وما حفل به من ثروة عظيمة فى علوم اللغة والعلوم الشرعية ، وما أحكمه الكتاب الديوانيون من ألوان البديع والإتقان ، كما تتلمذ فى الفلسفة على أبى سليمان ^(٢) المنطقى (محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى) وقرأ عليه كتاب النفس لأرسطو ، وسمع منه أراء فى الأدب ، وفيما وراء الطبيعة ، وكان أبو سليمان أكبر علماء بغداد فى الفلسفة والمنطق ، وكان مجلسه حافلا بالعلماء والحكماء ، وكان واسع الاطلاع على فلسفة اليونان .

وكما تأثر أبو حيان بالمنطق اليونانى تأثر أيضا بعلم النحو العربى ، ونقل محاوره طريقة بين فلسفة المناطقة وفلسفة النحويين العرب - اعتماداً على ذاكرته - فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وتمثلت هذه المحاوره فى المناظرة التى كان بطل النحويين فيها أستاذه أبو سعيد السيرافى وممثل المناطقة فيها أبو بشر متى بن يونس القنائى

(١) خيرى شلبى - مرجع سابق ص ٦

(٢) د. أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدي ج/١ ص ٣٠

المنطقي ، في مجلس الوزير ^(١) أبي الفتح ابن الفرات سنة ٣٢٦هـ . وقد سجلها لنا أبو حيان بإتقان وحكمة في كتابه الذي ألفه بعد عام ٣٧٣هـ . وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه موسوعة جامعة تدعمها حافظة عظيمة الاستيعاب .

مناظرة بين النحو العربي والفلسفة اليونانية

وهذه المناظرة الفلسفية رائعة وعميقة ومتسعة ولا يتسع المجال لا ستيعابها ، ولكن يمكننا أن نلتقط منها نقاطا عابرة، وذلك بتحديد النقاط الأساسية للمناظرة وتبسيط الحوار:

١ - أشعل الوزير ابن الفرات فتيل الصراع الكلامي ^(٢) بني الرجلين : النحوي أبي سعيد السيرافي والمنطقي أبي بشر متى بن يونس القنائي ، وسط حشد يضم نخبة من أعظم علماء ذلك العصر .

٢ - أراد الوزير أن يناطح بين علم النحو العربي وهو عريق ، وبين علم المنطق اليوناني وهو واعد على العرب بحكم بداية احتكاك الثقافة العربية بالثقافة اليونانية عن طريق الترجمة ، وكان لعلم المنطق في ذلك الوقت أنصار ورجال وقصد الوزير من إثارة هذه المناظرة أن يعرف ما هي حدود هذا المنطق اليوناني الواعد قياسا إلى علم النحو العربي الواسع الحدود ، وهو بذلك يريد أن تعكس هذه المناظرة ما لديه من معرفة بأسس النحو العربي التي لا تقل بل ترقى عن الأسس التي يقوم عليها المنطق اليوناني .

٣ - هذه المناظرة تثبت سعة أفق العلماء العرب ، وبعد نظرهم وتعمقهم وإدراكهم للأسس المنطقية للفلسفة قبل أن يدرسوها مستعينين بأساتذتها وأدواتها .

٤ - وردت هذه المناظرة في الليلة الثامنة من ليالي كتاب " الإمتاع والمؤانسة " ، وقد افتتحها أبو حيان موجهاً خطابه إلى صديقه أبي الوفاء قائلا : ثم إنني أيها الشيخ - أحياك الله لأهل العلم وأحيا بك طالبيه - ذكرت للوزير (أبي عبدالله العارض) مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر ابن الفرات بين

(١) الوزير أبو الفتح بن الفرات . استوزره الخليفة المقتدر العباسي في ذات العام الذي قتل فيه ذلك الخليفة على يد اتباع مؤسس الخادم أحد خواصه الذي تمرد عليه في عام ٣٢٠ هـ - ولم يظهر ذلك الوزير على الساحة السياسية بعد ذلك إلا أنه أو أخاه أبا القاسم ظهر منذ عام ٣٥٠ ليستوزره ملك مصر أبو حور بن الأخشيدي ، ثم استوزر ابنه أبا الفضل كافر الأخشيدي ثم أحمد بن علي بن الأخشيدي ، وكان أبو الفضل جعفر هذا سببا لثورة الجند عليه وحدث الفوضى التي أدت إلى سقوط مصر في قبضة الفاطميين (انظر أحداث ٣٥٧، ٣٥٨ من النجوم الزاهرة) .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي - الليلة الثامنة من ص ١٠٤ إلى ص ١٣٤ .

أبى سعيد السيرافى وأبى بشر متى . واختصرتها . فقال (أبى الوزير) أكتب هذه المناظرة على التمام . فإن شيئاً يجرى فى ذلك المجلس النبى بين الشيخين بحضرة أولئك الأعلام ينبغى أن يُغتنم سماعه ، وتُوعى فوائده ، فأجاب أبو حيان طلب الوزير . فروى هذه المناظرة عن أبى سعيد السيرافى .

٥ - لما انعقد المجلس ^(١) . مجلس الوزير الفضل بن الفرات فى عام ٢٢٦ هـ ، وكان فيه الخالدى وابن الاخشاد والكتبى ، وابن أبى بشر وابن رباح وابن كعب ، وأبو عمرو قدامة بن جعفر ، والزهرى وعلى بن عيسى الجراح ، وابن فراس وابن رشيد وابن عبدالعزيز الهاشمى ، وابن يحيى العلوى ، ورسول ابن طغج من مصر ، والمرزبانى صاحب آل سامان . قال الوزير الفضل . ألا يُتَدَب منكم إنسان لمناظرة متى (ابن يونس) فى حديث المنطق فإنه يقول لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل ، والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين إلا بما حوينا من المنطق ، وملكانا من القيام به ، واستفدنا من وضعه على مراتبه وحدوده فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه .

٦ - أحجم القوم وأطرقوا ، ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة ، فقال ابن الفرات : والله . إن فيكم لمن يفى بكلامه ومناظرته ، وكسر ما يذهب إليه ، وإنى لأعدكم فى العلم بحاراً ، وللدين وأهله أنصاراً ، ولحق طلاباً ومنازراً ، فما هذا الترامز والتغامز اللذان تجلّون عنهما ؟ (أى هما أمران لا ينبغى أن يكونا من صفاتكم) .

٧ - هنا رفع أبو سعيد السيرافى رأسه فقال : أعذر أيها الوزير ، فإن العلم المصون فى الصدر غير العلم المعروف فى هذا المجلس على الأسماع المصيخة (المنصتة) والعيون المحدقة ، والعقول الجادة ، والألأباب الناقدة ، لأن هذا يستصحب الهيبة ، والهيبة مكسرة ، ويجتلب الحياء ، والحياء مغلبة ، وليس البراز فى معركة خاصة كالمصارع فى بقعة عامة (أى ليس المبارزة فى معركة خاصة كالقتال فى حرب عامة) .

٨ - فقال ابن الفرات : أنت لها يا أبا سعيد ^(٢) ، فاعتذارك عن غيرك ، يوجب عليك الانتصار لنفسك ، والانتصار فى نفسك راجع إلى الجماعة بفضلك .

(١) المرجع السابق من ص ١٠٤ إلى ص ١٢٤ .

(٢) أبو سعيد السيرافى هو الحسن بن عبدالله بن المرزبان السيرافى النحوى المعروف ، سكن بغداد وتولى القضاء بها ، وكان من أعلم الناس بنحو الصريين ، مات فى سنة ٣٦٨ هـ .

٩ - فقال أبو سعيد : مخالفة الوزير فيما رسمه هُجْنة ، والاحتجاز من رأيه إخلال إلى التقصير ، ونعوذ بالله من زلة القدم ، وإيأاه نسال حسن المعونة في الحرب والسلام ، ثم واجه أبو سعيد أبا بشر متى فكان هذا الحوار بل كانت هذه المبارزة الأدبية الفلسفية .

الحوار

أبو سعيد : حدثني عن المنطق^(١) ما تعنى به ؟ فإننا إذا فهمنا مرادك فيه ، كان كلامنا معك في قبول صوابه ، ورد خطئه على سنن مرضى ، وطريقة معروفة .
متى : أعنى به آلة من آلات الكلام يُعرف بها صحيح الكلام من سقيمه ، وفاسد المعنى من صالحه ، كالميزان فإنني أعرف به الرُجحان من النقصان ، والشائل من الجانح .

أبو سعيد : أخطأت : لأن صحيح الكلام من سقيمه يعرف بالنظم المؤلف ، والإعراب المعروف ، إذا كنا نتكلم بالعربية ، وفاسد المعنى من صالحه يعرف بالعقل ، إذا كنا نبحث بالعقل ، وهبك عرفت المراجع من الناقص من طريق الوزن ، فمن لك بمعرفة الموزون أيها هو حديد أو ذهب أو شبه (نحاس) أو رصاص ، فأراك بعد معرفة الوزن فقيرا إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته ، وسائر صفاته التي يطول عدّها ، فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك وفي تحقيقه كان اجتهدك ، إلا نفعا يسيرا من وجه واحد ، وبقيت عليك وجوه فأتت كما قال الأول .

حَفِظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ

وبعد : فقد ذهب عليك شيء ما هنا ، ليس كل ما في الدنيا يُوزن بل فيها ما يوزن ، وفيها ما يُكال ، وفيها ما يذرع (يقاس بالذراع) وفيها ما يمسح ، وفيها ما يحرز وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المرئية ، فإنه على ذلك أيضا في المعقولات المقررة ، والإحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتبعيد ، مع الشبه المحفوظ ، والمماثلة الظاهرة ، ودع هذا ، إذا كان المنطق وضعه رجل من يونان على لغة أهلها ، واصطلاحهم عليها ،

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١٢٤ .

ومايتعارفونه بها من رسومها وصفاتها ، فمن أين يلزم التُّرك والهند والفرس والعرب - أن يظنوا فيه ، ويتخذوه قاضيا وحكما لهم وعليهم ماشهد لهم به قبلوه ، وما أنكره رفضوه .

متى : إنما لزم ذلك لأن المنطق ^(١) بحثٌ عن الأغراض المعقولة ، والمعاني المدركة ، وتصفحُ للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة ، والناس في المعقولات سواء ، ألا ترى أن أربعة وأربعة سواء عند جميع الأمم وكذلك ما أشبهه .
أبو سعيد لو كانت المطلوبيات بالعقل ، والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة ، وطرائقها المتباينة ، إلى هذه المرتبة المبينة في أربعة وأربعة وأنها ثمانية : زال الاختلاف وحضر الاتفاق ، ولكن ليس الأمر هكذا ، ولقد موَّهت بهذا المثال ، ولكم عادة بمثل هذا التمويه ، ولكن مع هذا أيضا إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف ، أفليس قد لزمَت الحاجة إلى معرفة اللغة ؟

متى : نعم .

أبو سعيد . أخطأت : قلُ بلى في هذا الموضع .

متى : بلى أنا أقلدك في مثل هذا .

أبو سعيد : أنت إذن تدعوننا إلى علم المنطق .. إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية ، وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعوننا إلى لغة لا تفى بها ؟ وقد عفت منذ زمان طويل وباء أهلها ، وافرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريفها ، على أنك تنقل من السريانية فما تقول في معانٍ متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى أخرى عربية ؟

متى : يونان وإن بادت مع لغتها ، فإن الترجمة حفظت الأغراض ، وأدت المعاني ، وأخلصت الحقائق .

أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة صدقت وما كذبت ، وقومت ، ووزنت وما جزفت (الجزاف : البيع بلا كيل ولا وزن) وأنها ما الثابت وما حافت ، ولا

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١٣٤ .

نقصت ولازادت ، ولا قَدُمْتُ ولا أُخَرْتُ ، ولا أَخَلْتُ بمعنى الخاصِّ والعام ، ولا بأخصِّ الخاصِّ ولا بأعمِّ العام - وإن كان هذا لا يكون ، وليس هو في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني - فكأنك تقول : لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ^(١) ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه .

متى لا ، ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة ، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به ، وينفصل عنه ، ويفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، وفشا ما فشا (ونشا ما نشأ) من أنواع العلم وأصناف الصنائع ، ولم نجد هذا لغيرهم .

أبو سعيد : أَخْطَأْتُ وتَعْصَبْتُ ، ومِلْتُ مع الهوى ، فإن عِلْمَ الْعَالَمِ مَبْثُوثٌ فِي الْعَالَمِ ، بين جميع أُمَمِ الْعَالَمِ . ولهذا قال القائل

الْعِلْمُ فِي الْعَالَمِ مَبْثُوثٌ وَنَحْوُهُ الْعَاقِلُ مُحْتَثُوثٌ

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من علا جَدَدَ الْأَرْضِ (استوعاها) ولهذا غلب عِلْمٌ فِي مَكَانٍ دُونَ عِلْمٍ ، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة ، وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة ، ومع هذا فإنما كان يصح قولك ونسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والقطنة الظاهرة ، والبنية المخالفة ، وأنهم لو أرادوا أَنْ يَخْطِئُوا لما قَدَرُوا ، ولو قصدوا أَنْ يَكْذِبُوا لما اسْتَطَاعُوا بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء ... وليس واضح المنطق يونان بأسرها ، إنما هو رجل منهم ، وقد أَخَذَ عَمَّنْ قَبْلَهُ كما أَخَذَ عَنْهُ مِنْ بَعْدِهِ ، وليس هو حجة على هذا الخلق الكبير والجم الغفير ، وله مخالفون منهم ومن غيرهم ، ومع هذا الاختلاف في النظر ، والبحث والمسألة ، والجواب (صُنْعٌ) وطبيعة ، فكيف يجوز أَنْ يَأْتِيَ رَجُلٌ بِشَيْءٍ يَرْفَعُ بِهِ هَذَا الْخِلَافَ .. وَأَنْتَ لَوْ قَرَعْتَ بِأَلِك ، وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللغة التي تحاورنا بها ، وتجارينا فيها ، وتدارس أصحابك بمفهوم أهلها ، وتشرح كتب يونان بعادة أصحابها ، لعلمت أَنَّكَ عَنِّي عَنْ (معاني يونان كما أَنَّكَ غَنَى عَنْ لُغَةِ) يُونَانَ .

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١٣٤ .

وها هنا مسألة تقول : إن الناس عقولهم مختلفة ، وانصبأؤهم منها
متفاوتة :

متى : نعم .

أبو سعيد . وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالاكسأاب ؟

متى : بالطبيعة .

أبو سعيد : فكيف يجوز أن يكون ^(١) ها هنا شئ يرتفع به هذا الخلاف (يزول به)
الطبيعى والتفاوت الأصلى .

متى : هذا قد مر فى جملة كلامك أنفا .

أبو سعيد . فهل وصلتة بجواب قاطع وبيان ناصع ؟ ودع عك هذا . أسألك عن حرف
واحد ، وهو دأئر فى كلام العرب ، ومعانيه متميزة عند أهل العقل ،
فأستخرج أنت معانيه من ناحية (منطق) منطق أرسطاطاليس الذى
تدلُّ به ، وتباهى بتفخيمه ، وهو (الوار) ما أأكامه ؟ وكيف مواقععه ؟
وهل هو على وجه أو وجوه ؟

متى (مبهوتا) . هذا نحو والنحو لم أنظر فيه ، لأنه لا حاجة بالمنطقى إليه ، والنحوى
بحاجة شديدة إلى المنطق ، لأن المنطق يبحث عن المعنى (والنحو يبحث
عن اللفظ) فإن مر المنطقى باللفظ فبالعرض ، وإن عثر النحوى بالمعنى
فبالعرض ، والمعنى أشرف من اللفظ ، واللفظ أوضأ من المعنى .

أبو سعيد . أخطأت : لأن الكلام (النحو والمنطق) والنطق واللغة ، واللفظ والإفصأاح
والإعرأاب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار ، والعرض (والتمنى)
والنهى والحض والدعاء والنداء والطلب : كلها من وأد واحد بالمشأكلة
والمأثلة . ألا ترى أن رجلا لو قال نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق ،
وتكلم بالفأش ولكن ما قال الفأش ، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصأح ،
وأبان المرأد ولكن ما أوضأ ، أوفأه بأجأته ولكن ما لفظ ، أو أأبر ولكن
ما أنبأ : لكان فى جميع هذا محرراً ومناقضاً ، وواضعا للكلام فى غير
موضع ، ومستعملا اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره والنحو

(١) المرجع السابق من ص ١٠٩ إلى ص ١٣٤

منطق ، ولكنه مسلوخ من العربية ، والمنطق نحو ولكنه مفهوم باللغة ، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلى ، ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان ، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة ، ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان لأن مستملى المعنى عقل ، والعقل إلهى ، ومادة اللفظ طينية وكل طينى متهافت .

متى . يكفينى من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف ، فإنى أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هذبتها لى يونان .

أبو سعيد . أخطأت . لأنك فى هذا الاسم والفعل والحرف^(١) فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع فى غرائز أهلها . وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف ، فإن الخطأ والتحريف فى الحركات كالخطأ والفساد فى المتحركات ، وهذا باب (أنت وأصحابك ورهطك عه فى غفلة ، على أن ها هنا سرّاً ما علق) بك ، ولا أسفر لعقلك ، وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها ، فى أسمائها وأفعالها وحروفها ، وتأليفها وتقديمها وتأخيرها ، واستعارتها وتحقيقها ، وتشديدها وتخفيفها ... فمن أين يجب أن نتق بشىء تُرجم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى تعرف اللغة العربية أحوج منك إلى تعرف المعانى اليونانية : على أن المعانى لاتكون يونانية ولا هندية كما أن اللغات تكون فارسية وعربية وتركية ، ومع هذا فإنك تزعم أن المعانى حاصلة بالعقل والفحص والفكر ، فلم يبق إلا إحكام اللغة ، فلم تُزِرْ على العربية وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها ، مع جهلك بحقيقتها . . ومع هذا فحدثنى عن الواو ما حكمه ؟ فإنى أريد أن أبين أن تفخيمك للمنطق لا يُغنى عنك شيئاً ، وأنت تجهل حرفاً واحداً فى اللغة التى تدعو بها إلى جكمة يونان ، ومن جهل حرفاً . أمكن أن يجهل حروفاً ، ومن جهل حروفاً جاز أن يجهل اللغة بكاملها ويتوهم أنه من الخاصة وخاصة الخاصة وأنه يعرف سر الكلام ، وغامض الحكمة ، وخفى القياس ، وصحيح البرهان .

(١) المرجع السابق .

الخلاصة :

وبعد أن عجز أبو بشر متى عن إجابة أبي سعيد السيرافي ، قال ابن الفرات : مخاطباً أبا سعيد : أيها الشيخ الموفق : أجبه بالبيان عن مواقع الواو حتى تكون أشد في إفحامه ، وحقق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنّع به (مشهر به) .

أبو سعيد . للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف ، في قولك : أكرمت زيدا وعمراً ، ومنها القسم في قولك : والله لقد كان كذا وكذا ، ومنها الاستئناف في قولك : خرجت وزيد قائم لأن الكلام بعده ابتداء وخبر ، ومنها معنى ربّ التي هي للتقليل نحو قولهم . وقاتم الأعماق خاوي المخترق ، ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عز وجل (فلماً أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه) أى ناديناه ومنها أن تكون أصلية في الاسم كقولك ^(١) : واصل واقد وافد ، وفي الفعل كذلك كقولك : وجَلَّ يوجَل . ومنها الحال في قوله عز وجل (ويكلم الناس في المهد وكهلا) أى يكلم الناس في حال كهولته ، ومنها أن تكون بمعنى حرف الجر كقولك : استوى الماء والخشبة : أى مع الخشبة .

نقال ابن الفرات (لمتى) : يا أبا بشر أكان هذا في منطقك ؟

واستمر هجوم أبي سعيد السيرافي النحوي على أبي بشر متى المنطقي بهذا الأسلوب المفحّم ، وبطرحة أسئلة في النحو طالبا من أبي بشر أن يحلها كما يحل المسألة المنطقية ، وبنفس الأسلوب ، فيعجز عجزاً تاماً ، مما يؤكد لمهاجمه ولمستمعيه أن المنطقي الذي لا يتقن نحو لغته الذي هو الأساس في الوصول للمعاني لا يستطيع أن ينقل المعاني كما هي من لغة أخرى إلى لغته ، وفي هذا الصدد يقول الوزير ابن الفرات موجّها حديثه لأبي سعيد الذي كان يطرح السؤال ويجيب عنه : ما بعد هذا البيان مزيد ، ولقد جلّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار .

والحوار في جملة طويلة وشائق وممتع ، وكان من بين الحاضرين على بن عيسى الرمانى ^(٢) ، سمع الحوار وشهد الصراع ، وشارك في

^(١) المرجع السابق .

^(٢) هو أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى كان إماماً في العربية وعلماً في الأدب وأستاذاً في النحو بصيراً بالمقالات - معتزلياً مات سنة ٣٨٤هـ .

النقاش ، ونقل المناظرة إلى أبي حيان التوحيدى ، الذى نقلها بدوره إلى مجلس أبى عبدالله بن سعدان ، وذكر فى نهاية الحوار أن الوزير ابن الفرات الذى جرى فى مجلسه هذا الحوار قال لأبى سعيد : عين الله عليك أيها الشيخ فقد نديت أكباداً ، وأقررت عيوناً ، وبيضت وجوهاً ، وحكت طرازا لا يبلية الزمان ، ولا يتطرق إليه الحدثان .

سؤال ولى أن أسأل هذا السؤال : ماذا يقال عن (الشخص) فى زمننا هذا إذا تجرأ أو أراد أن يقوم جملة نطق بها أحد المسؤولين ، فأخطأ فى النحو ... ماذا يكون مصيره ؟

ثم أورد أبو حيان سؤاله لعلى بن عيسى عن سنن أبى سعيد السيرافى حينذاك ثم سأل عن أبى على الفسوى النحوى . هل كان حاضرا بمجلس ابن الفرات فأجابه : لا كان غائبا ، وحدث بما كان فكان يكتم الحسد لأبى سعيد ، على ما فاز به من هذا الخبر المشهور والثناء المذكور .

ثم قال الوزير أبو عبدالله العارض (ابن سعدان) ^(١) لأبى حيان عند منقطع هذا الحديث : ذكرتني شيئا قد دار فى نفسى مرارا ، وأحببت أن أقف على واضحه ، أين أبوسعيد (السيرافى) من أبى على (الفسوى) وأين على بن عيسى منهما ، وأين ابن المرافى أيضا من الجماعة ؟ وكذلك المرزبان وابن شاذان وابن الوراق وابن خثيوه ؟

ونسوق هذا الرأي . قبل أن نورد رد أبى حيان على سؤال الوزير العارض نقول هذا الرأي : إن قدرة أبى حيان فى إجابته على هذا السؤال الذى طرحه الوزير - قدرته تدل على أنه ذو مقدرة فائقة فى وزن أقدار الرجال ، وهذا إن دل على شئ فإنه يدل على أن أبى حيان كما وعى الحوار ونقله بأسلوبه الأدبى الفلسفى فإنه بإجابته عن السؤال السابق بذات الأسلوب يؤكد أنه هو أديب الفلاسفة كما قال عنه ياقوت .

أبو حيان يوضح أقدار الرجال :

فكان من الجواب : أبو سعيد أجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل فى كل باب ، وأخرج من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، واروى فى الحديث ، وأقضى فى الأحكام ، وافقه فى الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفة (أى

(١) المرجع السابق .

أوفق رأياً بين الآراء المختلفة) وأظهر أثراً في المكتسبة ولقد كتب إليه نوح بن نصر - وكان من أدباء ملوك آل سامان - سنة أربعين (٣٤٠هـ) كتاباً خاطبه فيه بالإمام ، وسأله عن مسائل تزيد على أربعمئة مسألة ، الغالب عليها الحروف ، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب ، شك فيها فساءل عنها (أى نوح السائل) . وكان هذا الكتاب مقروناً بكتاب الوزير البلعميَّ خاطبه فيه (أى خاطب أبا سعيد) بإمام المسلمين ، ضمنه مسائل في القرآن وأمثالاً للعرب مشككة .

وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتاباً خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سأله عن مائة وعشرين مسألة ، أكثرها في القرآن ، وباقي ذلك في الروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضوان الله عليهم .

وكتب إليه ابن حنّابة^(١) من مصر كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، وسأله فيه عن ثلاثمئة كلمة من فنون الحديث المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن السلف . وقال لى الدارقطني (قال لأبى حيان) سنة سبعين (أى سنة ٣٧٠هـ) . أنا جمعتُ ذلك لابن حنّابة على طريق المعونة .

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان على يد شيخنا أبى سليمان (المنطقي) كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الفرد ، سأله عن سبعين مسألة في القرآن ، ومائة كلمة في العربية ، وثلاثمئة بيت من الشعر ، هكذا حدثني به أبو سليمان ، وأربعين مسألة في الأحكام ، وثلاثين مسألة في الأصول على طريق المنكلمين .

قال لى الوزير (أبو عبد الله العارض) : وهذه المسائل والحواب عنها عندك ؟ قلتُ : نعم . قال : فى كم تقع ؟ قلتُ : لعلها تقع فى ألف وخمسمئة ورقة ، لأن أكثرها فى الظهور . قال : ما أحوجنا إلى النظر فيها ، والاستمتاع بها ، والاستفادة منها ، وأين الفراغ وأين السكون ؟ ونحن كل يوم ندفع إلى طامة تنسى ما سلف ، وتُوعَد بالدهية ، اللهم هذه ناصيتي بيدك فتولّنى بالعصمة ، واخصُصْ بالسلامة ، واجعل عقباى إلى الحُسنى ثم قال (أى الوزير) صلّ حديثك .

قلتُ : وأما أبو على (الفسويُّ) فأشدُّ تفرداً بالكتاب (أى كتاب سيبويه) وأشدُّ إكباباً عليه ، وأبعد من كل ما عداه مما هو علم الكوفيين ، وما تُجاوز فى اللغة كُتُب

(١) هو أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات (وحنّابة هى أم أبيه الفضل) .

أبى زيد ، وأطرافا مما لغيره وهو متقد بالغيط على أبى سعيد ، وبالحسد له ، كيف تم له (أى لأبى سعيد) تفسير كتاب سيبويه ، من أوله إلى آخره بغريبه وأمثاله ، وشواهد وأبياته (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) لأن هذا شئ ما تم للمبرد ولا للزجاج ولا لابن السراج ، ولا لابن درستويه مع سعة علمهم وفيض كلامهم . ولأبى على أطراف من الكلام فى مسائل أجاد فيها ولم يأتل ، ولكنه قعد على الكتاب على النظم المعروف .

وحدثنى أصحابنا أن أبا على اشترى شرح أبى سعيد فى الأهواز فى توجُّهه إلى بغداد سنة ثمان وستين (٢٦٨هـ) - لاحقا بالخدمة المرسومة به ، والندامة (المندامة) الموقوفة عليه - بألفى درهم ، وهذا حديث مشهور ، وإن كان أصحابه يأبون الإقرار به إلا من زعم أنه أراد النقض عليه وإظهار الخطأ فيه .

وقد كان الملك السعيد - رضى الله عنه (يقصد به عضد الدولة) - هم بالجمع بينهما (بين أبى سعيد السيرافى وأبى على الفسوى) فلم يقض له ذلك ، لأن أبا سعيد مات فى رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة . وأبو على يشرب ويتخالع ويفارق هدى أهل العلم ، وطريقة الربانيين وعادة المتنسكين .

وأبو سعيد يصوم الدهر ، ولا يصلى إلا فى الجماعة ، ويفيم على مذهب أبى حنيفة ، ولى القضاء سنين ، ويتأله (أى يتعبد) ويتخرج ، وغيره بمعزل عن هذا ، ولولا الإبقاء على حرمة العلم لكان القلم يجرى بما هو خاف ، ويخبرنا بما هو مجمم (مستور) ولكن الأخذ بحكم المروءة أولى ، والإعراض عما يجلب اللائمة أخرى ... (ثم يذكر أبو حيان أن أبا سعيد مع هذا العلم الفياض لا يحسن النسخ وإن كان حسن الخط وكان أبو حيان يتولى النسخ وأبو سعيد يملأ عليه) وكان أبو سعيد بعيد القرين ، لأنه يقرأ عليه القرآن والفقه والشروط والفرائض ، والنحو واللغة والكلام والعروض والقوافى والحساب والهندسة والأخبار ، وهو فى كل هذا إما فى الغاية وإما فى الوسط .

وأما على بن عيسى فعلى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق وعيب به ، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق ، بل أفرد صناعة ، وأظهر براعة بوقد عمل فى القرآن كتابا نفيسا . هذا مع الدين الثخين ، والعقل الرزين .

وأما ابن المراغى فلا يلحق بهؤلاء مع براعة اللفظ ، وسعة الحفظ ، وعزة النفس ،
وبلل الرقيق (الاتساع فى الحديث) وغزارة النفس ، وكثرة الرواية ، ومن نظر فى كتاب
البهجة له عرف ما أقول ، واعتقد فوق ما أصف ، ونحل (أضاف) أكثر مما أبذل .
وأما المرزبانى وابن شاذان وابن القرمسينى وابن حيويه فهم رواة وحملّة ليس لهم فى
‘ ذلك نقط ولا إعجام ، ولا إسراح ولا إلجام .



فيلسوف التوحيد... ورائد علم النفس التحليلي

فيلسوف التوحيد :

أبو حيان التوحيدي هو أعظم مفكر إسلامي استطاع في القرن الرابع الهجري أن يحيل التراث الفلسفي الى ثقافة حية نامية متطورة ، واستطاع أن ينشر الوعي الفلسفي بين الخاصة وجمهرة العامة على السواء ، مما أثار الدهشة في أذهان الناس لطريقته المبتكرة الفلسفية الطريفة ، بعرضه جميع القضايا الفكرية ، لاسيما التفكير في وحدانية الله تعالى ، وقصة الوجود ، وذلك في عملية تساؤلية تقوم على طرح المشكلات وإثارة الشبهات والرد عليها بتفكير عقلاني ومترن ، وقد قدم لنا هذه القضايا في كتبه العديدة مثل : الامتاع والموانسة ، والاشارات الإلهية ، والهوامل والشوامل ، والمقاسبات وغيرها .

ففي الإمتاع والمؤانسة التي أورد فيها قضايا التوحيد ، في صورة أسئلة يوجهها إليه في هذا الصدد الوزير ابو عبدالله العارض ، ويتولى هو الرد عليها بطريقته الفلسفية الأدبية المتأنية في بعض لياليه التي ضمها ذلك المؤلف العجيب ، فهو من حيث الحوار والتسامرة الليلية حتى الهزيع الأخير ، يشبه ألف ليلة وليلة التي عرفها الأدب العربي قبل أن تعرفها الآداب الأخرى ، وهو من حيث موضوعات الحوار يجمع بين القضايا التفكيرية العميقة والمعالجة الأدبية الممتعة ، وبذلك يختلف هذا المؤلف عن سواء من الكتب الأدبية التي وضعت لدفع الملل ، والانتقال من الواقع المؤلم إلى الخيال الممتع ، كالمقامات وألف ليلة وليلة وقصص الرحلات الخيالية .

وقد شهد لأبي حيان بهذه القدرة الفائقة ، بل هذه الموسوعية النادرة ، بل هذه الأفكار الرائدة ، كثير من النقاد ومؤرخي الأدب وفلاسفة الشرق والغرب ومتذوقي الأدب والفلسفة على السواء ، قال خيرى شلبى «الدكتور زكريا ابراهيم ممن فتن»^(١) بهذا الرجل وقال عنه : إنه رجل فذ شهد له جميع الدارسين - شرقا وغربا - بأنه مفكر موسوعي له إسهامات بارزة في كل فروع المعرفة والعلوم السائدة في عصره .

(١) خيرى شلبى - أبو حيان التوحيدي - ربيع الثقافة العربية - مرجع سابق ص ٣١

كانت مشكلة الذات الإلهية وصفاتها ^(١) مشكلة المشاكل لدى الخاصة والعامة على السواء . ولقد روى التوحيدى عن أستاذه أبى سليمان (المنطقى) أن رجلين اجتماعا : أحدهما يقول بقول هشام والآخر بقول الجواليقى ، فقال صاحب الجواليقى لصاحب هشام : صف لى ربك الذى تعبد ، فوصفه بأنه لايدل له ولا جارية ولا آلة ولا لسان ، فقال الجواليقى : أيسرك أن يكون لك ولد بهذا الوصف ؟ قال صاحب هشام : لا ، قال أما تستحى أن تصف ربك بصفة لاترضاها لولدك ؟ فقال صاحب هشام : إنى قد سمعت ما أقول . صف لى أنت ربك .

فقال الجواليقى : إنه جعد قطم فى أتم القامات وأحسن الصور والقوام .

فقال صاحب هشام : أيسرك أن تكون لك جارية بهذه الصفة تطوها ؟

قال : نعم . قال . أما تستحى من عبادة من تحب مباذعة مثله ؟ وذلك لأن من أحب مباذعته أوقع الشهوة عليه .

ويعلق التوحيدى على مثل هذه المناقشة بقوله : إنه لو كان (لدى كل منهما) دين لما خطر مثل هذا الكلام على الأذهان ، ولما نطق به لسان ، وكان التوحيدى مقتنعا باستحالة وصف الذات الإلهية ، وذلك لأن الله الذى لاسبيل للعقل أن يدركه أو يحيط به أو يحسه وجدانا : أولى وأحرى أن يُمسك عنه عجزا واستخذاءً وتضاؤلا واستعفاء .. فعلى هذا قد وضح أن الصمت فى هذا المكان أعود على صاحبه من النطق ، لأن الصمت عن المجهول أنفع من الجهل بالمعلوم ، والتظاهر بالعجز فى موضعه كاستطالة بالقدرة فى موضعها . وليس للخلق من هذا الواحد الأحد إلا الأنية والهوية (الشعور بوحديته) فأما كيف ولم وما هو فإنها طائفة فى الرياح .

وفى كتاب الهوامل والشوامل ^(٢) " يقول واحد من المتصوفة . إن أعجب الأشياء بعيد لا يجحد ، وقريب لا يشهد ، وهو الحق الأوحد " ويعلق التوحيدى على هذه العبارة بقوله : وعلى ذكر الله تعالى ، بم يحيط العلم من المشار إليه لاختلاف الإشارات والعبارات ؟ أهو شئ يلصق بالاعتقاد ، أم هو مطلق لفظ بالاصلاح ؟ أم هو إيماء منسوب إلى صفة من الصفات مع الجهل بالموصوف ، أم هو غير منسوب إلى شئ بعرفان ؟ فإن كان منعوتا بنعت فقد حصره الناعت بالنعت ، وإن كان غير منعوت ، فقد

(١) المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ ، ٣٤ .

استباحه الجهل ، وأزحمه المعدم ، ولابد من الإثبات والنفي على المثبت والنافي ، فقد ثبت إذن كل إثبات ونفي ، فإن كان سابقا على هذه الألفاظ ، وجميع هذه الأغراض فما نصيب العارف ؟

وينسب التوحيدى إلى أستاذه أبى سليمان المنطقى ، أنه ذهب إلى القول بأنه لا ينبغى أن يطلق على البارى أنه موجود ، وحجة أبى سليمان فى ذلك أنه لما كان الموجود يقتضى الموجد بالضرورة ، والموجد يقتضى الموجود لامحالة ... فإن الرباط قائم والتعلق بين . والله تعالى يجلُّ عن هذه الرتبة ، لأنه لا موجد له ، ولو كان له موجد لكانت مرتبة الموجد فوق مرتبة الموجود بدلالة سائر الأسماء والصفات .

ثم يضيف أمّا من أشار إلى الذات فقط بعقله البرئ السليم من غير تورية باسم ، ولا تحلية برسم ، مخلصا مقدسا ، فقد وفى حق التوحيد بقدر طاقته البشرية ، لأنه أثبت الأنية (الوجدانية) ، ونفى الآبنية ، والكيفية وعلا به عن كل فكر وروية .

صفات السمع والعلم والبصر والحياة والقدرة :

يروى التوحيدى أنه سمع يوما سائلا يسأل : ما بال أصحاب التوحيد لا يخبرون عن البارى ولا بنفى الصفات ؟ فقل له : بين قولك وابسط فيه إرادتك . قال : إن الناس فى ذكر صفات الله تعالى على طريقتين : طائفة تقول : لصفات كالسمع والعلم والبصر والحياة والقدرة والحياة ، لكنه مع هذه الصفات موصوف بأنه سميع بصير حتى قادر عالم . وطائفة قالت : هذه أسماء^(١) لموصوف بصفات هى العلم والقدرة والحياة ولا بد من إطلاقها وتحقيقها . ثم إن هاتين الطائفتين تطابقتا على أنه عالم لا كالعالمين وقادر لا كالقادرين ، وسميع لا كالسامعين ، ومتكلم لا كالمتكلمين ، ثم عادت القائلة بالصفات تقول على أن له علما لا كالعلوم ، واتكأت على النفى فى جميع ذلك - وكانت الطائفتان فى ظاهر الرأى مثبتة نافية معطية أخذه إلا أن يبين ما يزيد على هذا .

وأبو حيان التوحيدى يميل إلى القول . بأن نفى الصفات عند الطائفة الأولى يفضى فى خاتمة المطاف إلى إثباتها ، فى حين أن إثبات الصفات عند الطائفة الثانية يكاد يفضى فى النهاية إلى نفيها ، ويعقب الدكتور زكريا إبراهيم بقوله : فنحن إذن بين شقى الرحى لأننا إما أن نقول بنفى مثبت وأما أن نقول بإثبات نافي ، وفى كلتا الحالتين نحن نقول عن الله ما لا نعلم .

(١) المرجع السابق ص ٣٤ .

تعقيب :

لما كان الأمر يتعلق بصفات الله تعالى . فإن الباحث يرى أنه من التشتيت للعقل والذهن أن يطلب المرء المسلم حقيقة هذا الأمر عند العقل الإنساني ، فالعقل الإنساني قاصر وعاجز عن الاحاطة بالصفات الإلهية شأن عجزه عن البحث في الذات الإلهية . وإلا لما أرسل الله تعالى الرُّسل وأنزل عليهم وحيه وكتبه . ليدلوا الناس على خالفهم بقدر ما ترشدهم الى ذلك عقولهم مع محدوديتها وضيق إحاطتها - فالمنطلق العقل والوسيلة للمعرفة الحققة هي العقيدة .

فأله سبحانه وتعالى دَلَّ علي صفاته بذاته قال تعالى : " قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما " فأله تعالى سميع كل شيء سميعاً مطلقاً يتسامى عن سمع الخلائق جميعاً . فكيف ننفي صفة السمع عنه إذا قلنا إنه سميع لكل شيء لكن سمعه سمع مطلق يسمو عن سمع الخلائق جميعاً .

كذلك فإن الله مجيب لدعوة الداعي دون أن ينبس ببنت شفة في دعائه يقول الله تعالى : " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون " . وهكذا في غير ذلك من الصفات .

والخلاصة أن المرء المسلم إذا كان يريد بحث مثل هذه الأمور واستمع إلى فلسفة المتفلسفين فيها فلا ينبغي أن يكون بين شقّي الرحي ^(١) عند اختلافهم - بل عليه تحكيم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وذلك عملاً بقوله تعالى " وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله " .

عود على بدء :

يؤكد أبو حيان أنه من العبث محاولة وصف الذات الإلهية ، أو التعرف على حقيقة الجوهر الإلهي : وحسبنا أن نقول عن الله تعالى . إنَّ الكلُّ بادٍ عنه وقائمٌ به ، وموجود له ، وصائرٌ إليه ، وكيف لنا أن نعرف الخالق وأن نصفه سبحانه ونحن نعجز عن معرفة بعض المخلوقات أووصف بعض الموجودات .

وفي كتابه (الإشارات الإلهية) يقول التوحيدي ^(٢) :

«طُلِبَتْ فلم توجد ، ووجدَتْ فلم تُعرف ، وعُرِفَتْ فلم تُوصف ، ووُصِفَتْ فلم تُلْحَقْ ، وشُوهِدَتْ فلم تُدْرَكْ ، وكيف لا تكون كذا وفوق كذا ونحن لا نحيط ببعض خلقك ، على

(١) سيؤكد هذا الرأي - بإذن الله تعالى- برأى أبى سليمان المنطقي داته في مناظرة له بين الفلسفة والدين .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .

خوافي ما نظن فيه من حكمتك ، وبوادي ما ظهر علينا من قدرتك ؟ وإذا كان عجزنا عن ذلك يفضحنا عندنا ، ويردنا علينا ، ويوارينا فينا ، ويُخجلنا منا ، ويعكسنا إلينا - فما قولنا فيما خلا ذلك مما لا نمسُه بمشاعرنا ، ولا نلحقه ببصائرنا ؟ علي أن مشاعرنا بك تُحسُّ ، وبصائرنا بك تلحق ، وكُنَّا لك ، وإن كُنَّا أعرتنا ذلك ، وكُنَّا بك وإن كُنَّا مُغترئين بذلك . ويقول :

اللهمَّ إنَّ إلهيتك بحرٌ لا ساحلَ له ، وطودٌ لا قُلَّةَ له ، وأفقٌ لا غايةَ له ، وهمُّنا قاصرةٌ عن نعمتها إلا إذا وصلَّتْنا بالإلهام ، وعجزنا أظهرُ علينا من أن نطمع إلا بالإلهام أو شبيهه بالإلهام .»

محاولة تفسير بعض الصفات الالهية :

في إحدى ليالي كتاب " الإمتاع والمؤانسة " ^(١) سأل الوزير العارض أبا حيان عن معنى قول الله عز وجل " هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم " فقال التوحيدى : إن الإشارة في الأول إلى ما بدأ الله به من الإبداع والتصوير والإبراز والتكوين ، والإشارة في الآخر إلى المصير إليه في العاقبة على ما يجب في الحكمة من الإنشاء والتصريف ، والإنعام والتعريف ، والهداية والتوقيف ، وقد بان الاعتبار الصحيح أنه عز وجل لما كان محجَّباً عن الأبصار ظهرت آثاره في صفحات العالم وأجزائه وحواشيه وأثنائه ، حتى يكون لسان الآثار واعياً إلى معرفته ، ومعرفته طريقاً إلى قصده ، وقصده سبباً للمكانة عنده ، والحظوة لديه ، على أنه في احتجابه بارز ، كما أنه في بروزه محجَّب ، وبيان هذا الحجاب من ناحية الحسِّ ، والبروز من ناحية العقل . فإذا طلب من جهة الحسِّ وجد محجوباً ، وإذا لحظ منهجه العقل وجد بارزاً . وهاتان الجهتان ليستا له تعالى ، ولكنهما للإنسان الذى له الحس والعقل ، فصار بهما كالناظر من مكانين ، ومن نظر إلى شئ واحد بعينه من مكانين كانت نسبته إلى المنظور إليه مفترقة .



(١) المرجع السابق ص ٢٨ ، ٢٩ .

تحليله للسلوك البشرى والنزوع النفسى :

السلوك البشرى أمر حيرَّ الفلاسفة منذ عهد سقراط وأرسطو وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة اليونان ، كما حيرَّ الفلاسفة العرب منذ بدء نقل الفلسفة اليونانية إلى البيئة العربية فى أواخر القرن الثانى الهجرى ، واستكمالها فى أوائل القرن الرابع ، وقد صدق الله جل وعلا فى إبراز هذا السلوك البشرى فى قوله " ونفسٍ وما سواها . فآلهمهما فجورًا وتقواها " . فهذا الاستعداد الغريزى للعنف أو لجلب الخير ، كيف يمكن إدراكه فى النفس البشرية ، لقد درس أبو حيان قضايا النفس البشرية على أساتذة رواد منهم أبوسليمان المنطقى ، ويحيى بن عدى النصرانى ، وأبو على بن مسكويه ، وأبو سعيد السيرافى ، وفى كتابه الهوامل والشوامل " كثير من الشواهد على معالجته لهذه القضايا .

أهم الموضوعات الفلسفية عند أبي حيان :

قبل أن يتنبه الغرب المسيحى إلى العلوم التى وعها العرب بقرون عديدة ، كان فلاسفة الإسلام يضعون أيديهم على دوائر النفس البشرية ، وفى هذه البيئة العربية نشأ علم النفس وعلم الاجتماع قبل أن تظهر النظريات الحديثة التى استهدفت الكشف عن عالم النفس البشرية وأبعادها .

وقد كان أبو حيان التوحيدى فى الرعيل الأول من فلاسفة الإسلام ،^(١) وكان الإشكال البشرى من أهم الموضوعات الفلسفية التى شغلت فكره زما طويلا ، وكانت مشكلة الإنسان مقدمة عنده على غيرها من المشكلات الأزلية .

وفى سبيل الكشف عن مجاهل النفس البشرية كان يخترق الطرق الوعرة للوصول إلى نفس الإنسان ، ليفتح فيها أرضا خصبة ، صالحة للبحث والتأمل الفلسفى ، ويحاول الوقوف على أدق أسرار النفس البشرية ، ويسعى جاهدا بكل علمه ومعرفته لتشخيص ذلك الكائن البسيط المركب فى آن واحد والمسمى بالإنسان .

النفس والطبيعة والزمان :

فى كتابه (الهوامل والشوامل)^(٢) يضع النفس فوق الطبيعة بقوله : " ولما كانت النفس فوق الطبيعة ، وكانت أفعالها فوق الحركة ، أعنى فى غير زمان ، فإنز ملاحظتها الأمور ليست بسبب الماضى والحاضر ولا المستقبل ، بل الأمر عندها فى

(١) المرجع السابق ص ٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٠ .

السواء ، فمتى لم تعقها عوائق الهیولی والهیولیات ، وحجب الحس والمحسوسات أدركت الأمور ، وتجلت لها بلا زمان ... فالنفس علامة بالذات ، درأكة للأمور بلا زمان، وذلك أنها فوق الطبيعة ، والزمان إنما هو تابع للحركة الطبيعية ، وكأنه إشارة إلى امتدادها ، ولذلك اشتق اسم المدة منه ، لأن المدة فُعلة ، والامتداد افتعال ، وأصلها واحد من المدّ .

مراتب الانسان فى العلم :

وأبو حيان له نظرتة الثاقبة فى إيضاح العمل المبدع ^(١) حيث يقول فى كتابه «الإمتاع والمؤانسة» مراتب الانسان فى العلم ثلاث ، تظهر فى ثلاث أنفس ، فأحدهم ملهم فيتعلم ويعمل ، ويحير مبدأً للمقتبسين منه ، وواحد يتعلم ولا يلهم فهو يماثل الأول فى الدرجة الثانية أعنى التعلم ، وواحد يتعلم ويلهم ، فتجتمع له هاتان الخلتان فيصير بقليل ما يتعلم أكثرًا للعمل والعلم بقوة ما يلهم ، ويعود بكثرة ما يلهم مصغيا لكل ما يتعلم ويعمل .

النفس والفن والتذوق الفنى :

من وجهة نظر أبى حيان هناك شروط لصحة التذوق الجمالى ^(٢) ، تنبنى على علاقة الطبيعة بالنفس ، وإن الفن هو اقتفاء صور الطبيعة التى تشكلت بفعل النفس ، وإن تذوق الفن هو اتحاد النفس بأثر النفس ، مما يتبين معه أن الإدراك الجمالى ما هو إلا انفعال نفسى إزاء فعل النفس فى الطبيعة التى تنظم صور الهیولی ، وهنا نرى النفس فى دورين . دور فاعل يجعل الطبيعة موافقة لرغبة النفس ، ومطابقة لها ، مقتفية لجميع أثارها ، ودور منفعل تقوم به عملية الادراك الجمالى .

*الحقائق السيكولوجية الكبرى :

إذا كان علم النفس الحديث قد كشف حقيقة اللاشعور ^(٣) ، وعن طبيعة العُقد النفسية ، فإن التوحيدى - فى رأى الدكتور زكريا ابراهيم - كما ذكر الاستاذ خيرى شلبى - قد فطن إلى الكثير من الحقائق السيكولوجية الكبرى . وفى كتابه " الهوامل والشوامل " يوجّه إلى صديقه مسكويه أسئلة كثيرة حول ملاحظات نفسية جديدة بالبحث والتحليل ، كأن يذم الناس البخل مع غلبة البُخلِ عليهم ، أو يمتدحون الجود ،

(١) المرجع السابق ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٦ .

ت فيهم . وكان يقرر : أن الانسان حريص على ما منع ، وأن الرخيص . وب فيه ، وإذا ركب الأمير لا يحرص على رؤيته كما يحرص على رؤية الخليفة إذا نهر .

ويتساءل عن محبة الناس للرياسة ، وما يستتبع ذلك من صراعات خفية وظاهرة مع النفس ومع المجتمع ، ومن تدابير واحتياطات يتخذها الانسان للوصول إلى مركز الرياسة بأي سبب عن جدارة أو بدون وجه حق . ويقول : ما علة الانسان في سلوكه إذا كانت محنته عامة له ولغيره ، وما علة جزعه واستكثاره وتحسره إذا خصته المساءة ، ولم تعذه المصيبة ؟ ويقول : لم يضيق الإنسان في الراحة إذا توالى عليه ، وفي النعمة إذا خالفته ؟ وينتبه إلى ما في سلوك الناس من مفارقات غريبة وراء ظاهرة النفاق الاجتماعي ، وإلى ما ينتاب الناس من اعوجاج مفاجئ في السلوك .

تحليله للمرض النفسي عند الانسان :

ولربما كان التوحيدى من أوائل الذين انتبهوا ^(١) إلى ما نسميه اليوم بالمرض النفسى ، والمختلف عن المرض الجسدى ، وأنه لمن المدهش حقا أن يتنبه التوحيدى في ذلك الوقت المبكر إلى تمييز الصحة النفسية من المرض النفسى ، وأن يشخص ذلك يضعه على بساط البحث ، وها نحن نراه يحدد ذلك بالفاظ قد تكون معاصرة إلى حد كبير إذ يقول " إن النفس أمراضاً كأمراض البدن ، إلا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن في الشر والضرر ، كفضل النفس على البدن في الخير " فهو بنظرته العميقة قد ربط المرض النفسى بالشر كما ربط الصحة النفسية بالخير .

ثم يقول " وإذا كان الانسان ^(٢) قد علم أنه مركب من شيئين : أحدهما شريف وهو النفس ، والآخر دنى وهو الجسم ، فاتخذ للدنى منه أطباء يعالجونه من أمراضه التي تعروه ، ويوظفون عليه بأقواته التي تغذوه ، ويتعاهدونه بأدويته التي تنقيه . وترك أن يفعل بالشئ الشريف مثل ذلك ، فقد أساء الاختيار عن بينة ، وأتى الغلط على بصيرة وأطباء هذه النفوس هم أهل الفضل ، وأقواتها الغازية هي الآداب المأخوذة عنهم ، وأدويتهم المنقية هي النواهي والمواظع المسموعة عنهم " .

فالتوحيدى يضع طبيب النفس في مرتبة أعلى من مرتبة طبيب البدن ويصف أطباء النفوس بأنهم أهل الفضل ، ذلك أن مهمتهم أكثر تعقيدا من أطباء البدن ، فالذى يعالج

(١) المرجع السابق ص ٤٨

(٢) المرجع السابق ص ٤٩

القسم الشريف من الانسان - وهو النفس - يكون بالضرورة شريفا . ولكن هل من السهل أن يكتشف الناس أمراضهم ويتعرفوا عليها ؟ .

يرد التوحيدى على هذا السؤال بلسان أستاذه أبى سليمان المنطقى قائلا :
إن كثيراً من أخلاق الإنسان تخفى عليه ، وتطوى عنه ، وذلك جلى لصاحبه وجاره وعشيرته ، وهو يدرك أخفى من ذلك على صاحبه وجاره ومعامله وقريبه وبعيده ، وكأنه فى عرض هذه الأحوال عالم جاهل ، ومتيقظ غافل ، وشجاع جبان ، وحليم طائش ، يرضى عن نفسه شيئا هو المغتاز على غيره من أجله .

ومن الواضح أن أبى سليمان المنطقى هذا كان داهية من الدواهي الكبيرة ، فبهذه الكلمات القليلة شخص مرضاً نفسياً يشكل ظاهرة اجتماعية جديرة بالبحث والنظر العميق . ويزيد التوحيدى هذه النقطة شرحاً وبياناً فى كتابه (الإشارات الإلهية) على هذا النحو :

" يا هذا إذا وجدت طبيبا يجمع لك بين الحِذْق والنُّصح ^(١) ، فارفع إليه داءك ، واعرض عليه حالتك ، واصدِّقه عما تقدم من غيبك ، فى مطعمك ومشربك ، حتى يصدقك عنك ، ويخبرك منك ، ويتلافاك لك ، ويسقيك ما ينفعك ، ويحميك ما يضرُّك هذا ان كنتَ تحسُّ بذاتك ، وتحنُّ إلى شفائك ، وتعلم أنك مطبوب ، ومحتاج إلى قيمِّ بك ، ومرفق لك " .

ولنا أن نتصور أن عصر التوحيدى قد عرف الطبَّ النفسى ، بنفس المعنى الذى نعرفه الآن ، فهذا هو ذا أبو حيان يحضُّ المريض على الذهاب إلى الطبيب ، ويوصيه بأن يكشف لطبيبه عن ذات نفسه ، وعن كل شئ خاص بعاداته ، حتى الأكل والشرب وما إلى ذلك .

ويبدو أن شخصية الحكيم التى كانت قديما تعنى الطبيب ، كانت تقوم بمثل هذا الدور ، فضلا عن معالجتها للبدن ، ولا يتحفظ التوحيدى فى نصيحته للمريض ، فيطلب منه ألا يتحفظ فى كشف دخيلة نفسه للطبيب ، فليس هناك سرٌّ يجب الحفاظ عليه فى هذه الحال ، إذ ربما يكون هذا الذى يعتبره المريض سرا ، ويحرص على إخفائه هو السبب فى تفاقم مرضه النفسى .

(١) المرجع الاسبق ص ٥٠ .

والواقع كما يرى أبو حيان - أن السر منظور على الظهور من تلقاء نفسه مهما جاهد الانسان في إخفائه بعدم التكلم عنه ، إن السر يشكل ضغطا علي النفس ، والنفس عادة تضعف تحت وطاته ، ولابد حينئذ أن تنفّس عن نفسها بشكل أو بآخر . وفي كل الحالات سينكشف السر في النهاية .

نماذج للسلوكيات في الهوامل والشوامل :

كتاب (الهوامل والشوامل) ^(١) أثر فريد في التراث العربي لعلمين جليلين أولهما: أبو حيان التوحيدى ، الذى وجّه إلى الفيلسوف العربى مسكويه (اسمه : أبو على أحمد بن يعقوب بن مسكويه . ويسميه أبو حيان مسكويه) وجّه إليه أبو حيان مجموعة من الأسئلة شملت كافة مظاهر الحياة وهموم الانسان . أطلق عليها الهوامل : أى الابل السائمة المتفرقة ، التى يهملها صاحبها ويتركها ترعى . وأجابه مسكويه بمجموعة أجوبة سماها الشوامل ^(٢) . التى تضبط الإبل الهوامل فجَمَعَتْهَا . أى شوامل مسكويه جمعت وضبطت هوامل التوحيدى (ولعل أبا حيان هو صاحب تسمية هذه الاسئلة وهذه الاجوبة بالهوامل والشوامل) . وقد طبع هذا الكتاب عام ١٩٥١ بتحقيق الأستاذين : أحمد أمين والسيد أحمد صقر رحمهما الله رحمة واسعة .

والكتاب قد يبدو منسوبا فى أسئلته لأبى حيان وفى أجوبته لمسكويه والحقيقة أن مسكويه كان قد أجاب مشافهة على أسئلة أبى حيان ، إلا أن ذاكرا أبى حيان الحافظة لللاقط ، وقدرته الفائقة على تدوين الهوامل والشوامل جعلته ينقل إلينا هذا الأثر الفريد والفكر السديد ، فى أدق العبارات وأعمق المعانى ، وهذا هو شأن أبى حيان دائما فى بعض مؤلفاته مثل المقابسات والإمتاع والمؤانسة وسيجد القارئ فى نثر أبى حيان الجميل وخصائصه الفريدة ما يثبت أنه عمل من أعماله الخالدة .

وسنقتطف بعض النماذج السلوكية للانسان فى هذه الحياة :

* غرور العالم بعلمه : لم اقتترن العُجب بالعالم ، والعلم يُوجب خلاف ذلك من التواضع والركة ، وتحقير النفس ، والزراية عليها بالعجز ؟

قال أبو على مسكويه رحمه الله . أما العالم المستحق لهذه السمة فليس يلحقه العُجب ، ولا يُبلى بهذه الآفة ، وكيف يُبلى بها وهو يعرفها وذلك ان حقيقة العُجب هى

(١) الهوامل والشوامل - لأبى حيان . (أخبار الأدب وأبو حيان التوحيدى للدكتور أحمد محمد الحوفى)

(٢) المرجع السابق .

ظن الإنسان بنفسه من الفضل ما ليس فيه ، وظنه هذا كذب ، ثم يستشعره حتى يصدق به ، فتكون صورته صورة من يرى رجلاً في الحرب شجاعاً يحمل على الأبطال، ويظهر فضيلة لشجاعته فيكفي العدو ، ويفنى القرن وهذا الرأي عنه بمعزل ، ناكسٍ على عقبيه ، ناء بجانبه ، وهو في ذلك يدعى الشجاعة لنفسه ، فهو يكذبها في الدعوى ، ثم يصير مصدقاً بها ، وهذا من أعجب آفات النفس وأكاذيبها ، لأجل (١) أن الكذب فيه مركبٌ ، فقد يكذب الإنسان على غيره ليصدقه الغير فيموه نفسه عليه ، فأمّا أن يموه نفسه بالكذب ، ثم يصدق فيه نفسه فهو موضعُ العجب والعجب .

ولأجل هذا التركيب الذي عرض في الكذب ، صار أشنع وأقبح من الكذب نفسه البسيط المعروف ، وإذا كان العالم الفاضل لا تقترب به آفة الكذب - البسيط لمعرفة بجه ، لاسيما إذا استغنى عنه - فهو من الآفة المركبة أبعد .

فلذلك قلت : إن العالم لا يعجب . فقد صارت هذه المسألة مردودة غير مقبولة ، فأمّا ما يعرض من العجب لمن يظن أنه عالم فليس من المسألة في شيء (أى يخرج عن هذا الحكم ، من تحدثه نفسه بالعجب عرضاً) .

• **الحياء من القبيح** ما سبب الحياء من القبيح ؟ مرة . وما سبب التبجح به مرة ؟ وما ألحياء أولاً ، فإن في تحديده ما يقرب من البُغية ، ويسهل دَرَك الحق . وما ضمير قول النبي صلى الله عليه وسلم " الحياء شعبة من الإيمان " ؟ فقد قال بعض العلماء . كيف يكون الحياء - وهو من آثار الطبيعة - شعبة من الإيمان ؟ يدلُّك : أمن يؤمن إيماناً . وهناك حيي الرجل ، واستحيا فيه . يرُّ من باب الانفعال أى المطاوعة . وهل يُحمد الحياء في كل موضع أم هو موقوف على شأن دون شأن ؟ ومقبول في حال دون حال ؟

قال أبو علي ، «سكوت» - رحمه الله

أما الحياء الذي أحببت أن نبدأ به فحقيقته انحصار نفسٍ مخافة فعل قبيح يصدر عنها . وهو خلق مُرضٍ في الأحداث ، فإنه يدل على أن نفسه قد شعرت بالشئ القبيح ، وأشفقت من مواقعه ، وكهرت ظهوره منه ، فعرض لنفسه هذا العارض ، وإحساس النفس بالأفعال الفبيحة ، ونفورها عنها دليل على كرم جوهرها ومطمع في استصلاحها - جداً .

(١) المرجع السابق

قال صاحب الكتاب فى تدبير المنزل " ليس يوجد فى الصبى فراسة أصح ولا دليل أصدق لمن أثر أن يعرف نجاته ^(١) ، وفلاحه وقبوله الأدب من الحياء . وذلك لما ذكرناه من علة الحياء وبيئناه من أمره .

فأما المشايخ فلا يجب أن يعرض لهم هذا العارض ، لأنه لا ينبغي أن يحذروا وقوع فعل قبيح منه ، لما سبق من علمهم ودربتهم ، ومعرفتهم بمواضع القبيح والحسن ، ولأن نفوسهم يجب أن تكون قد تهذبت وأمنت وقوع شئ قبيح منهم . فذلك لا ينبغي أن يعرض لهم الحياء . وقد بين الحكيم هذا فى كتاب " الأخلاق " . فقد ذكرنا الحياء ما هو وأنه يحسن للأحداث خاصة ، وذكرنا سبب حسنه فيهم .

فأما المسألة عن سبب التبجح بالقبيح فمسألة غير لازمة ، لأن هذا العارض سببه الجهل بالقبيح ، وليس يعرض إلا للجهال من الناس ، والدليل على ذلك أنهم إذا عرفوا القبيح أنه قبيح اعتذروا منه ، وتركوا التبجح به . وإنما يتبجح حين لا يعلم وجه قبحه ، وهو فى تلك الحال إذا تبجح به خرج له وجهاً مموهاً فى الحسن ، فيصير تبجحه بالحسن الذى خرج له أو موه به . فإذا تيقن أنه قبيح ، أو ليس يتموه وجه الحسن فيه - عدل عنه . واستحيا منه - وترك التبجح به ..

فأما قوله عليه السلام " الحياء شعبة من الإيمان " فكلام فى غاية الحسن والصحة والصدق ، وكيف لا يكون شعبةً منه ، وإنما الإيمان التصديق بالله عز وجل . والمصدق به مصدق بصفاته وأفعاله التى هى من الحسن فى غاية لا يجوز أن يكون فيها وفي درجتها شئ من المستحسنيات . لأنها هى سبب حسن كل حسن وهى التى تفيض بالحسن على غيرها . إذ كانت معدنه ومبدؤه ، وإنما نالت الأشياء كلها الحسن والجمال والبهاء منها وبها .

وكذلك جميع أوامر الله - تعالى - وشرائعه وموجبات العقل الذى هو رسوله الأول ووكيله الأقدم عند جميع خلقه . ومن عرف الحسن عرف ضده لا محالة ومن عرف ضده حذره وأشفق منه ، فعرض له الحياء الذى حررناه ولخصناه .

وصديقك أبو عثمان ^(٢) يقول . الحياء لباسٌ سابغ ، وحجاب واقٍ ، وستر من المساوى ، أخو العفاف ، وحليف الدين ، ومصاحب بالتصنع ، ورفيق من العصمة وعين كائلة ، يزود عن الفساد ، وينهى عن الفحشاء والأدناس . وإنما حكيت لك ألفاظه لشغفك به . وحسن قبولك كل ما يشير إليه ويدل عليه .

(٢) يعنى الجاحظ .

(١) المرجع السابق .

*** الادعاء بالعلم :** ما سبب من يدعى العلم وهو يعلم أنه لا علم عنده ؟ وما الذى يحمله على الدعوى ، ويدنيه من المكابرة ، ويحوّجه إلى السفه والمهاترة ؟

قال أبو على مسكويه - رحمه الله

سبب ذلك محبة الإنسان نفسه ، وشعوره بموضع الفضيلة ، فهو لأجل المحبة يدعى لها ما ليس لها . لأن صورة النفس التى تحسن ، وعليها تحمد ، ومن أجلها تسعد - هى العلوم والمعارف . وإذا عرّيت منها أو من جلّها حصلت له من المقايح ووجوه الشقاء بحسب ما يفوتها من ذلك .

ومن شأن المحبة أن تغطى المساوئ ، وتظهر المحاسن إن كانت موجودة . وتدعيها إن كانت معدومة ، فإن كان هذا من فعل المحبة معلوما ، وكانت النفس محبوبة لا محالة ، عرض لصاحبها عارض المحبة ، فلم ينكر ادعاء الإنسان لهذه المعارف التى هى فضائلها ومحاسنها ، وإن لم يكن عنده شئ من ذلك .

*** الفرح بالجميل :** ما سبب فرح الانسان بخير ينسب إليه وهو فيه ؟ وما سبب سروره بجميل يُذكر به وليس فيه ؟

قال أبو على مسكويه - رحمه الله : الجواب عن هذه المسألة هو الجواب عن المسألة قبلها لأن الخير المختص بالنفس هو العلوم الصحيحة ، والأفعال الصادقة بحسبها عنها . فإذا اعترف الانسان بأن نفسه فاضلة خيرة . وجب أن يُسرّ لمحب . وقد شهد له بالجمال والحسن . وكذلك يُسرّ إن ذُكر بجميل ليس فيه لليلة التى ذكره فى المسألة الأولى .

*** قبح الثناء فى الوجه :**

لِمَ قَبِحَ الثَّناء فى الوجه^(١) حتى تواطأوا على تزييفه ؟ ولمَ حَسُنَ فى المغيب حين تَمَنَّى ذلك بكل معنى ؟ لأن الثناء فى الوجه أشبه الملق والخديعة وفى المغيب أشبه الإخلاص والتكريم . أم لغير ذلك ؟

قال أبو على مسكويه - رحمه الله

لما كان الثناء فى الوجه على الأكثر إعارة شهادة بفضائل النفس . وخديعة الانسان بهذه الشهادة ، حتى صار ذلك - لاغتراره وتركه كثيرا من الاجتهاد فى تحصيل

(١) المرجع السابق

الفضائل ، وغرضُ فاعل ذلك احترازُ مودة صاحبه إلى نفسه ، بإظهار مودته له ، ومحبتة إياه - صار كالمكر والحيلة فذمٌ وعيب .

فأما في المغيب فإنما حسنٌ لأنَّ قصدَ المُتَنِّي في الأكثر ، الاعتراف بفضائل غيره ، والصدق عنه فيها . وفي ذلك تنبيه علي مكان الفضل ، وبعث للموصوف والمستمع على الزدياد والإتمام ، وحضُّ على أسبابه وعِلَّله ، وربما كان القصدُ خلافَ ذلك ، أعنى أن يكون غرض المُتَنِّي في المغيب (التعلُّل) ولفتة العقل تشبيهةً بذلك لأنه من العقال ، وكذلك الحجر .

* حِلْمُ الْبَخِيلِ وَحِدَّةُ الْكَرِيمِ :

لم خُصَّ البَخِيلُ بالحلم ؟ وخصَّ الجَوَادُ بالحدَّة ؟ وهل يجتمع الحِلْمُ والجُود ؟ وهل تقتزن الحدة واللوم ؟ وما حكمهما في الأغلب فإنَّ الثابت على وجه غير المُتَقَلِّب إلى وجه آخر .

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

أظنُّكَ أُرِدْتَ بالبَخِيلِ اللَّيْمُ ؟ وبينهما فروقٌ ، وقد تكلمت على مرادك لأن باقي الكلام يدلُّ عليه . فلعمري إنَّ ذلك في الأكثر كذلك ، وإن كان قد ينعكس الأمر فيوجد حلِيم جَوَاد ، وبَخِيل حديد ، إلا أنَّ الأولى أن يكونَ الجَوَاد حديداً ، وذلك أنَّ البَخِيل هو الذي يمنع الحق من مستحقِّه على ما ينبغي فإذا منع البَخِيل الحقَّ على الوجوه التي ذكرت صار ظالماً ، وإذا أحسَّ بهذه الرذيلة من نفسه ، وجب أن يصبر على المتظلمين وهم الذَّامُونَ . لأنه من البَيِّن أن البَخِيل ، إذا ذمَّ الذَّامَ فإنما يذكره مواقع ظلمه^(١) ، وإخراج الحق الذي عليه على غير الوجوه التي تنبغى .

وإذا كان الذَّامُ صادقاً والبَخِيل يعرف صدقه بما يجده في نفسه فيجب أن يحلم لا محالة . لموافقته الصدق ، ولأنَّ النفس بالطبع تسكن عند الصدق ، وتستخذي له ، فالأشبه بالنظام الطبيعي أن يكون البَخِيل حلِيماً لما ذكرناه .

وربما عرَضَ ضدُّ ذلك ، وهو إذا كان البَخِيل جاهلاً بالحقوق التي تجب عليه ، على الشرائط التي ذكرناها ، فإذا جهل ذلك لم يعرف صدق من يصدِّقه عنه ، ولا ظلمه وإنصافه ، فيعرف قبح أفعاله فتعرض له رذيلتان . إحداهما منعُ الحقِّ ، والأخرى جهل بموضع الحقِّ . فربما عرض للجاهل الحدة والنزق ، والعدول عن الحلم ، لما ذكرناه وأخبرنا السبب فيه .

(١) المرجع السابق .

فأما قولك لم خُصَّ الجواد بالحدة ، فمسألة غير مقبولة ، لأن الجواد ليس يختص بالحدة ، وذلك أن حقيقة الجود هو بذل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي على ما ينبغي . ومن كانت له هذه الفضيلة لم يُنسب إلي الحدة . لأن الحديد لا يميّز هذه المواضع ، فهو يتجاوز حد الجود وإذا تجاوز (الحد) سُمي مسرفا ومبذرا . ولم يستحق اسم المدح بالجواد .

ولكن لما كانت لغة العرب وعاداتها مشهورة في وضع الجواد موضع السرف والتبذير حتى إذا كان الإنسان في غاية منهما كان عندهم أشد استحقا لاسم الجود - خفى عليهم موضع الفضيلة ومكان المدح . وصارت الحدة المقترنة بالمبذر والمسرف على حسب موضوعهم محمودة . لأنها لا تمكن من الروية ، فيبادر صاحبها إلى وضع الشد في غير موضعه فيسمى مسرفا عند الحكماء .

وقد تبين في كتب الأخلاق ^(١) أن الجود الذي هو فضيلة وسط بين طرفين مذمومين: أحدهما تقصير والآخر غلو . فأما جانب التقصير من الجود فهو الذي يسمى البخل ، وهو مذموم ، وأما الجانب الذي يلي الغلو فهو الذي يسمى السرف . والواجب على من أحب استقصاء ذلك أن يقرأه من كتب الأخلاق فإنها تستغرق شرحه .

* الأسرار وإفشاؤها : لم تحدث الناس على كتمان الأسرار ، وبألغوا في أخذ العهد به وخرجوا من الإفشاء ، وأكثروا في التواصي بالطنى ، ولم تنكتم هذه المقدمات؟ وكيف فشّت وبرزت من الحُجب المضروبة حتى نثرت في المجالس ، وخُلدت في بطون الصحف ، وأوعبت الأذان ورويت على الزمان ؟

قال أبو على مسكويه - رحمه الله

قد تبين في المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين : إحداهما معطية ، والآخره أخذة ، فهي بالقوة الأخذة تستثيب المعارف ، وتشتاق إلى تعرف الأخبار وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محبين لسما ع الخرافات ، فإذا تكهوا أحبوا معرفة الحقائق وهذه القوة هي انفعال وشوق إلى الكمال الذي يخص النفس .

وهي بالقوة المعطية تفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالا ، بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس

(١) المرجع السابق

بالذات لا بالعرض . فكل انسان يحرص بإحدى قوتيهِ على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . ولما كان ذلك كذلك ، لم يكن لينفعل المنفعل ، ولا ينفعل الفاعل لأنهما جميعا للنفس بالذات (١) .

فقد ظهر السبب الداعى إلى اخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتافت بإحدى قوتيها إلى الاستعلام ، واشتافت بالأخرى إلى الإعلام - لم ينكتم سرّيته .

وهذا هو تدبير إلهى عجيب ، ومن أجله نقلت الأخبار القديمة ، وحفظت (القصص) قصص الأمم ، وعُنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته .

ولذلك ضرب الحكماء فيه المثل ، وحزموا عليه القول ، وقطعوا به الحكم ، وقالوا : لا ينكتم سر . وإنما يتقدم ظهوره أو يتأخر ، وتقول العامة : أى شئ ينكتم ؟ ثم تقول فى الجواب " ما لا يكون " .

فحقيق على صاحب السر أن لا يستودعه إلا القادر على نفسه ، والقاهر لنزواتها ، عند حركاتها وسكناتها ، بل المجاهد لها ، المعتاد عند الجهاد غلبها وقهرها . ولما يتم للإنسان ذلك بخاصة قوة العقل الذى هو أفضل موهبة الله تعالى ، وأكبر نعمة له على العبد ، وبه فضل الإنسان على سائر الحيوان .

ولولا هذا الجوهر الكريم الذى هو مسيطر على النفس ومشرّف عليها ، لكان الإنسان كسائر الحيوانات غير الناطقة فى ظهور قوى النفس منه مرسله من غير رقبة ، ومهملة بغير رعية ، ولكنه بهذا الجوهر النفيس فى جهاد النفس عظيم .

ومعنى قولى هذا إن الإنسان دائما فى جهاد النفس بقوة عقله لأنه محتاج إلى ردعها به . وإلى ضبطها ومنعها من شهواتها الرديّة حتى لا يصيب منها إلا بمقدار ما يطلقه العقل ويحدّه لها ، وما يرسمه ويبيحه إياها .

ومن لم يقم بهذا الجهاد دائما مدة عمره فليس ممن له حظ فى الإنسانية ، بل هو خليع كالبهيمة المهملة التى لا رقيب عليها من العقل . وإذا انحط الإنسان عن مرتبته العالية إلى رتبة ما هو أدنى منه ، فقد خسر نفسه ورضى لها بأخسر المنازل ، هذا مع كفره بنعمة الله . ورده الموهبة التى لا أجلّ منها . وكراهيته جوار بارئه ، ونفوره من قربه .

(١) المرجع السابق .

وقد شرح الحكماء هذا المعنى واستقصوه ، وعلموا الناس جهاد النفس في كتب الأخلاق ، فمن اشتاق إلى معرفة ذلك فليأخذه من هناك ...

وقد تنبه مسكويه إلى أن أبا حيان كثير الشكوى ^(١) ، فنصحته بالاقلاع عن شكاياته من الزمان والخلان في قوله : " قرأت مسائلك التي سألتني أجوبتها ، في رسالتك التي بدأت بها فشكوت فيها الزمان ، واستبطأت بها الإخوان ، فوجدتك تشكو الداء القديم ، والمرض العقيم ، فانظر - حفظك الله - إلى كثرة الباكين حولك وتأس ، أو الصابرين معك وتسلى ، فلعمراً أباك إنما تشكو إلي شاك ، وتبكي على باك . وبعد : فيأني أرى لك إذا أحببت معايشة الناس ومخالطتهم أن تسامح أخاك - ولا تعود عشيرتك وجليسك استماع شكواك . استعذ بالله من الشيطان ووساوسه ، ومن دنس الجهل وملابسه واستعن بالله يُعِنِّكَ ، أو استكفهِ يَكْفِكَ .

الشهرة بعد الموت :

ما سبب الصيت الذي يتفق لبعضهم بعد موته ، وأنه يعيش خاملاً ويشتهر ميتاً كـ معروف الكرخي ؟

قال أبو علي مسكويه - رحمه الله :

معظم السبب في ذلك هو الحسد الذي يعتري أكثر الناس ، لاسيما إذا كان المحسود قريب المنزل من الحاسد ، أو كان في درجته من النسب أو الولاية والبلدية أو ما أشبهها ، فإن هذه النسب إذا تقاربت بين الناس فاشتركوا فيها تم انفرد واحد بفضيلة نافسه الباقون فيها ، وحسده إياها ، حتى يحملهم الأمر أن يجحدوه (فضله) ولذلك قيل أزهـد الناس في عالم جيرانه ، لأن الجوار وكثرة الاختلاط سبب جامع لهم يتساوون فيه ، فإذا انفرد أحدهم بفضيلته لحق الباقين (من ذلك) مآذركته .

وربما كان سبب زهدهم فيه غير هذا ، ولكن الأغلب مآذركته فأما البعيد الأجنبي لما لم يجمعه وإياه سبب حق عليه تسليم الفضل له ، وقل عارض الحسد فيه ، ولاتجد ذلك (من الحساد) إذا مات المحسود ، وانقطع السبب الذي بينه وبينهم (فتراهم) أنشأوا يفضلونه ، ويسلمون له ما منعه إياه في حياته .

(١) الدكتور أحمد محمد الحومى - أبو حيان التوحيدي - مرجع سابق ص ٨٦ .

(٢) المرجع السابق ح/٢ ص ٣٨ ، ٣٩ .

تعقيب على المسألة السابقة :

حينما اصطفى الله رسوله الكريم محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم وأكرمه بالرسالة ، عزَّ على سادة قريش هذا التكريم وودُّوا أن يكون لهم هذا الفضل . فهاكم ما قاله أبو جهل (الحكم بن هشام) للأخنس بين شريق . حينما كان يراقبه وهو يستمع لما نزل على الرسول (ص) قال «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذبنا على الرُّكْب ، وكنا كفريسي رهان . قالوا : منَّا نبي يأتيه الوحي من السماء . فمتى ندرك مثل هذه والله لانؤمن به ، ولا نصدقك فقام عنه الأخنس وتركه » وتأكيداً لهذه الواقعة نزل قول الله تعالى ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾^(١) . وتحليل الفيلسوف المؤمن ابن مسكويه للنفس الحاقدة الحاسدة تحليل صائب ويفسر حسد أبي جهل وغيره من زعماء قريش لصاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه . وهذا الحسد موجود في كل عصر ومصر ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى مشيراً لدعوة يوسف عليه السلام ﴿ ولقد جاعكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاعكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾^(٢) .

وبالنسبة لطرح أبي حيان التوحيدي هذا السؤال فهو كان يستشعر الإنكار لدى معاصريه وغمطه حقه ، كما كان يستشعر أنه سيكون ذا شأن بعد وفاته ، وقد حدث ما توقعه فيها هي ذى المحافل والمهرجانات تقام لمدارسة أفكاره ومراجعة أعماله .



(١) الآية رقم (١٣) من سورة التوبى .

(٢) الآية رقم ٣٤ من سورة غافر .

- ٣ -

أبو حيان التوحيدى ما له وما عليه

* الطعن فى عقيدته على رغم تصوفه

* اتهامه بالوضع على رغم أمانته فى النقل

* دفاع عن أبى حيان التوحيدى

* إحراقه كتبَه تبرّماً من حياته البائسة

أبو حيان التوحيدى ما له وما عليه

• الطعن فى عقيدته على رغم تصوفه :

قال ابن الجوزى (المتوفى سنة ٥٩٧هـ) " زنادقة ^(١) الإسلام ثلاثة ابن الراوندى والتوحيدى وأبو العلاء المعرى، وشرهم على الإسلام أبو حيان التوحيدى " .

وقد سبق ابن الجوزى من اتُّهم أبا حيان فى عقيدته مثل ابن فارس اللغوى (المتوفى سنة ٣٨٠هـ) فقد اتهمه بالزندقة فى كتابه الفريدة والخريدة ، ونقل ابن الجوزى عنه وقوله « كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان ، وتعرض لأمر جسام من القذح فى الشريعة ، والقول بالتعطيل » ثم قال ابن فارس :

« ولقد وقف سيدنا صاحب بن عباد وكافى الكفاة على بعض ما كان يدخله وبخفيه من سوء الاعتقاد ، فطلبه لقتله ، فهرب والتجأ إلى أعدائه ، ونفق عليه بزخرفه وإفكه ، ثم عثروا على جميع دخلته ، وسوء عقيدته ، وما يبطنه من الإلحاد ، وما يرومه فى الإسلام من الفساد ، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح ، ويضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح ، فطلبه الوزير المهلبى ، فاستتر منه ، ومات فى الاستتار ، وأراح الله منه ، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية » .

وجاء بعد ابن فارس وابن الجوزى من سار على نهجهما بإلصاق تهمة الإلحاد بأبى حيان ، بل قال عنه : « إنه عدو الله الخبيث اللسان السيئ الاعتقاد » ونعنى بهذا القائل الذهبى (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) ، هذا هو الفريق الذى شكك فى عقيدة أبى حيان التوحيدى ، وليس من العقل أن تُسمع هذه التهم ، ونحكم على الرجل بما حكموا عليه ، دون أن نستسمع إلى من قالوا فى صالحه ، وشهدوا بحسن عقيدته وصحة دينه ، وفهو فى رأى ياقوت « صوفى السمى والهيئة ، متعبد ، والناس على ثقة من دينه ، وابن النجار يصفه بأنه كان فقيراً متديناً ، صحيح العقيدة » .

ويقول السبكي رضى الله عنه « لم يثبت عندى إلى الآن من حال أبى حيان ما يوجب الوقية فيه ، ووقفت على كثير من كلامه ، فلم أجد فيه إلماً ما يدل على أنه كان قوى النفس ، مزدرياً بأهل عصره ، ولا يوجب هذا القدر أن ينال منه هذا النيل ، وسئل

(١) أبوحيان التوحيدى ج/١ تأليف الدكتور أحمد محمد الحوى ص ٩ ، ٩١ ، ٩٢ .

الوالد - رضى الله عنه فأجاب بقريبٍ مما أقول « وأرجع السبكي سبب حملة الذهبى عليه إلى محاكماته لما قاله ابن فارس ، وإلى ما قاله ابن الجوزى ، وإلى البغض الذى يكنه الذهبى للمتصوفة .

وقد كان أبو حيان صوفيا ، بل إنه عند الفرس عَلمٌ من أعلام المتصوفة ، قال عنه أبو العباس أحمد زركوب " إنه الإمام الموحّد ، والعالم الواسع العلم ، ليس له شبيه فى المكاشفات الإلهية ، والدراية بالتوحيد .

تعقيب :

إذا كنا لا نحمد لأبى حيان ذمه لابن العميد وللصاحب بن عباد ، حتى الذين أسدوا يد الإحسان إليه مثل مسكوبه ، والمدلجي الذى اتصل به وألّف له كتاب المحاضرات ، فأجزل له العطاء ، إذا كنا لا نحمد له هذا الخُلق ، ولا نحمد له هذا الطمع فإننا لا نقرّ من طعن فى عقيدته ، واتهمه بالزندقة ، واعتبره عدوًّا للإسلام .

ولنا أن نتساءل كيف يتهم أبو حيان بالزندقة والإلحاد ، وبصمه بعضهم بأنه شرٌّ على الإسلام من ابن الراوندى ، فى الوقت الذى عُرِفَ بتصوفه ، بشهادة رجال ثقات مثل ياقوت الحموى وأبى العباس زركوب والسبكي ، فهذا أبو العباس زركوب يقول . إنه إمام فى المتصوفة لا نظير له ، وذكر أن أبا الحسن بن أحمد بن سالية شيخ مشايخ الصوفية ، فى عصره ، رآه فى المنام ، وسمع منه أن الله غفر له ، فزار قبره فى جمع من مريديه ، وصلى عليه ، وأشار بوضع لوح على قبره يكتب عليه اسمه ، وقد حدثنا أبو حيان نفسه بأنه حجّ فى رفقة إخوانه المتصوفة سنة ٣٥٤ هـ ، ووصف ما احتملوا فى عودتهم إلى بغداد من مشقات جسام ، كادت تُؤدى بهم ، وله - كما ورد فى كتاب الإشارات الإلهية - أدعية كثيرة تشعُّ بالتصوف العالى منها :

« اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة النى تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب ، حتى نتعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة ، أنفین من ملامسة ما يقدر فى ذات الدين ، متزودين للعاقبة التى لا بد من الشخوص إليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، إنك تُؤثر من تشاء ما تشاء » ونحن إذا حكمنا قول الشاعر .

عن المرء لا تسأل وسلّ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يُقرن

(١) المرجع السابق ص ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ .

فسنبحث عن قرين أبى حيان ، وبخاصة مثله الأعلى ، أو الشخصية التى عاش مُعجبا بها ، وسنجد الإنسان الأمثل لديه هو أبا سعيد السيرافى فماذا يقول عنه حينما سألته عنه ابن سعدان : « أبو سعيد أجمع لشمع العلم ^(١) ، وأنظم لمذهب العرب ، وأدخل فى كل باب ، وأخرج من كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى فى الدين والخلق ، وأروى فى الحديث ، وأقضى فى الأحكام ، وأفقه فى الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفة وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام ، سألته عن مائة وعشرين مسألة أكثرها فى القرآن ، وباقى ذلك فى الروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن أصحابه رضوان الله عليهم » وذكر كتابات كثيرة وردت لأبى سعيد السيرافى ، تثنى على تدينه وفقهه وتستفتيه فى مسائل مختلفة . ثم يقول مقارنا به غيره فى تقواه « وأبو سعيد يصوم الدهر ولا يصلى إلا فى الجماعة ، ويقيم على مذهب أبى حنيفة ، ويلبى القضاء سنين ، ويتأله (يتعد) ويتخرج ، وغيره بمعزل عن هذا ، ولولا الإبقاء على حرمة العلم لكان القلم يجري بما هو خاف...»

رد الدكتور الحوفى على اتهام أبى حيان بالزندقة :

قال فى كتابه (أبو حيان التوحيدى) " ولنا على اتهامه بالزندقة ^(٢) وزعمهم انه نفى بسببها عدة ردود

١- المفهوم من كلام ابن فارس أن صاحب بن عباد طلبه ليقته ، ففر منه ، ثم تعقبه الوزير المهلبى فاستتر منه ، حتى مات فى الاستتار ، وهذا كلام تعوزه الصحة ، لأن أبا حيان - كما بينا فى صلتته بابن عباد - تركه سنة ٣٧٠هـ والوزير المهلبى توفى سنة ٣٥٢هـ فكيف يتفق هذا ^(٣) - لقد اتصل أبو حيان بالصاحب ثم تركه بعد ثمانية عشر عاما من وفاة الوزير المهلبى ، الذى قيل إنه تعقبه ليقته .

٢- لم يُشر أبو حيان - على دقته فى وصف الأشخاص والأحوال ولاسيما حالته - إلى أن ابن عباد فكر فى قتله أو أوعز بحبسه ، ولو أن شيئا من هذا حدث ، لذكره على عادته فى تفصيل الأحداث ، والتشنيع على ابن عباد ، ووصف ما لقي من حرمان وخيبة فى صلتته به .

(١) الامتاع والمؤاسدة لأبى حيان التوحيدى - مرجع سابق ص ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ .
(٢) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى ج١ مرجع سابق ص ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) المرجع السابق .

٢- يحملنا على التثك فيما زعمه ابن فارس عن نسبة الزندقة إلى أبي حيان ، ومن نسبة التفكير في قتل ابن عباد له ، أن ابن فارس كان أستاذاً لأبي الفتح بن العميد ، وقد هجا أبو حيان ابن عباد وابن العميد ، فمن المرجح أن ابن فارس أراد أن يشوه سمعته ، ويثار منه فالتصق به تهمة الزندقة ، وأراد أن ينسب إلى ابن عباد الغيرة على الدين ، فزعم أنه هم بقتله لكنه هرب منه .

٤- كان ابن فارس معاصراً لأبي حيان ، وقد ذمه أبو حيان ذماً شنيعاً ، وتنقّصه في مجلس ابن سعدان بقوله « إنه شيخ فيه محاسن ومساوئ إلا أن الرجحان لما يذمُّ به ، لا لما يحمد عليه ، فمن ذلك أن له خبرة بالتصوف ، وهناك أيضاً قسط من العلم بأوائل الهندسة ، وتشبه بأصحاب البلاغة ، إلا أن هذا كله مردود بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة ... »

٥- ابن فارس الذي يسند إليه اتهام أبي حيان بالزندقة ، والموت في الاستتار ، قد مات قبل أبي حيان ، وسواء أكانت وفاة ابن فارس سنة ٣٦٠ هـ أو سنة ٣٦٩ ، أو ٣٧٥ ، أو ٣٩٠ ، أو ٣٨٥ هـ فإنها كانت قبل وفاة أبي حيان .

فكيف يقرر وفاة شخص لم يمت بعد ؟ وإذا أخذنا بشق رأيه ، وهو الإتهام بالزندقة ، وذهبنا إلى أن الشق الثاني مدخول عليه ، فإن اتهامه بالتحيز لابن عباد وابن العميد ما زال قائماً (أى أن المتهم بالتحيز ابن فارس) يُقدح في طعنه أبا حيان ، على أننا لا نستبعد أن يكون ^(١) خصوم أبي حيان هم الذين فعلوا ذلك ، ولكنهم اسندوه إلى ابن فارس ليزيدوه قبولا وتبتيلاً في نفوس سامعيه .

٦- ابن الجوزي - كما ذكر السبكي - متعصب على الصوفية ، يبغضهم ، لهذا زاد من عنده قول " وأشدّهم على الإسلام أبو حيان لأنه مجمم ولم يصرح " وياقوت وصفه في معجم الأدباء بأنه كثير التخليط ولهذا لا يعتمد على ما انفرد به (أى أن ابن فارس كثير التخليط) .

٧- إذا ما وازناً بين أبي حيان وابن الراوندي وأبي العلاء المعري لم نجد تشابهاً يبيح لابن الجوزي أن يجعله أشد الثلاثة ضرراً بالإسلام .

أما ابن الراوندي فلا جدال في زندقته وكفره ، لأنه زعم أن في كلام أكثر ابن صيفي ما هو - والعياذ بالله - أحسن من بعض القرآن ، وأدعى أن القرآن غير معجز ،

(١) المرجع السابق .

وبأن المسلمين احتجوا لنبوّة نبيهم بالقرآن الذي تحدث به النبي ، فلم يقدر العرب على معارضته ، فيقال لهم : لو ادّعى مدّع لمن تقدّم من الفلاسفة مثل دعواكم في القرآن فقال . الدليل على صدق بطليموس أن أقليدس ادّعى أن الخلق يعجزون أن يأتوا بمثل كتابه ، وكانت نبوته تثبت . ويعقب الدكتور الحوفى على كلام ابن الراوندى وتعليه الفج بقوله : «وهذه حجة تافهة ساقطة ، لأنه قد أتى بعد أقليدس من برع أكثر منه وزاد عليه، ولا يزال العلماء يأتون كل يوم بجديد حتي ليعد كتاب أقليدس لا شئ بالنسبة لما يكتبون ، أما القرآن فقد مضت مئات السنين ، ولا يزال المعجزة الخالدة وسيبقى كذلك ابدا » .

وأما أبو العلاء فقد اتهم بالإلحاد لبعض آرائه ولمّا قيل عنه أنه عارض القرآن بكتابه الفصول والغايات ، على نسق السور والآيات ، وإن كان مظلوماً في اتهامه بالمعارضة لأن كتابه لا يشير إلى ذلك ، وليس في كلام أبي حيان ما ينبئ عن زندقة أو إلحاد ، كما هو ثابت على ابن الراوندى.

٨ - بل إن في كلام أبي حيان ما ينقض دعوى خصومه^(١) نقضا لا يبقى ولا يذر ، فقد كان يغار على الدين منذ حدثته ، وأورد الحوفى نقده لرائد من رواد الصوفية ، وهو أبو سعيد البسطامي لتعجرفه ، فتأثر في نفسه حمية لله ولرسوله ، وأورد له بعض ما جاء في كتاب البصائر والذخائر من إقرار بجلال القرآن وإعجازه من مثل قوله «كتاب الله الذي حارت العقول الناصعة في رصفه ، وكُتّ الألسن البارعة في وصفه » واستشهد أيضا بما ورد في ذلك الكتاب من تمجيد لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ووصفها بأنها المنار وسط الطريق الواضح ، والنجم اللائح ، والقائد الناصح ، ثم أورد له مناجاة صوفية من كتابه (الإشارات الإلهية) وفيها يقول « اللهم إنّنا نسألك ما يُسأل لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعنا في رحمتك الواسعة ، نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومنفعة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة - نسالك الا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظ الأسرار ، ومسبل الأستار ويا واهب الأعمار ... » .

(١) المرجع السابق .

وأخيراً . ماذا نقول بعد هذا الكلام الذى أوردناه للدكتور الحوفى إلا أن نُقرّه على كل كلمة قالها ، وصرّح بها فى حق أبى حيان التوحيدى ، وإحقاقاً للحقّ نورد بعض المثالب على أبى حيان وهى لا تسيئ إلى عقيدته ، وإن كانت تسيئ إلى مركزه الأدبى والعلمى .

١- لقد أدّت به الحاجة والفقر المدقع إلى التزلّف إلى صديقه أبى الوفاء المهندس بعبارات رجل قليل الحيلة ، ضعيف النفس والإرادة حيث يقول خلّصنى من التكدّف ، أنقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضّر ، اكفنى مؤونة الغداء والعشاء ، وإلى متى الكُسيرة اليابسة ، والبُقيلة الداوية ، والقميمص المرقّع إلى متى التادّم بالخبز والزيتون ... " .

٢- من قبيل ما تقدّم ما أخذه عليه أستاذه ^(١) مسكويه فى (الهوامل والشوامل) حين رآه كثير الشكوى فنصحته بالإقلاع عن شكاياته من الزمان والخلانّ فى قوله «قرأت مسائلك التى سألتنى أجوبتها فى رسالتك التى بدأت بها فشكوت فيها الزمان» - كما أوردنا ذلك آنفاً " .

٣- صعوبة أخلاقه - فى جملتها لم تكن أخلاق رجل يحسن مداخلة الناس ومعاشرة الحكام ونوى السلطان ، ولو أنه كان بعيد النظر لعرف أن الناس يتحاشونه إذا ما وجدوا منه السُخْط على من عاشرهم من قبل لأنهم يتوقعون أن يكون نصيبهم منه مثل نصيب سابقهم .

٤- معاداته للخاصة من حكام وعلماء ، كما سبق فى وصفه لأعوان ابن سعدان وحاشيته ، كقوله فى ابن فارس العالم اللغوي الأديب " إنه شيخ فيه محاسن ومساوئ إلا أن الرجحان لما يُدْمُ به لا لما يحمد عليه - وهذا كلام مردود عليه بالرعونة والمكر والإيهام والخسة والكذب والغيبة ... »

٥- خمول ذكره فى عصره عند العامة كما غُمِط حقه عند الخاصة ذلك أنه أساء إلى الخاصة ، وترفع على العامة ترفع من لا يعبأ بهم ، وكان فى ذلك متتلماً على أستاذه أبى سليمان المنطقى ، الذى نقل عنه قوله فى ازدراء معارف العامة بأنها " لا توحيد لها ، لا حقيقة معها ، ولا مبالاة بها " ورفض ان يقصّ على العامة ، ذاكرًا أن القاصّ على العامة لا يعدو إلا أن يكون أحد ثلاثة :

ترجع السابق ص ٨٩ ، ٧٤ .

إمّا رجل أبله فهو لا يدري ما يخرج من أمّ دماغه ، وإمّا رجل عاقل فهو يزدرية لتعرضه لجهل الجاهل ، وإمّا له نسبة إلى الخاصة من وجه وإلى العامة من وجه ، فهو يتذبذب من الانحياز الجالب للهجر ، والاعتراف الجالب للوصل .

٦- لقد أضرم عليه سُخْطُ معاصريه بكتابه (مثالب الوزيرين) واعتقدوا أنّه كتاب مشنوم لا يملكه أحد إلاّ ساعات حاله ، وقد ذكر ابن خلكان انه جرب هذا وجربه غيره من يثق بهم ، ومن هنا ^(١) تجافى الناس عن كتب أبي حيان كلها وتجاؤوا عن ذكره أيضا .

٧- تغافل المؤرخون عنه على علوّ قدره ، وسعة علمه ، ومقدرته فى البيان - إمّا نفورا من تطاوله على علماء عصره ، وإمّا ثاراً لأنه هجا ابن العميد وابن عباد ، وقد كان لهما أنصار كثير من العلماء والأدباء .

٨ - إنه سلق عصره كله بلسانه فى مواضع شتى من كتبه ^(٢) . كقوله فى حسرته على ماضيه وأساه من حاضره «بارت البضائع ، وكسد سوق العلم ، وخمد ذكر الكرم، وصار الناس عبيد الدرهم بعد الدرهم » .



(١) المرجع السابق ١٠٨ ، ١١١ .

(٢) ياقوت معجم الأدباء ح/١٥ ص ١٥ ، ١٦ .

• اتهامه بالوضع على رغم أمانته في النقل :

هذا الموضوع له جانبان ، الجانب الأول . أن أبا حيان قد أثهم بوضع رسالة أرسلها أبو بكر وعمر إلى على رضى الله عنهم ، والجانب الثانى : هو شهادة كثير من المؤرخين والنقاد لأبى حيان بالأمانة في النقل والرواية : فكيف يمكن التوفيق بين هذين الجانبين من هذا الموضوع . هذا ما سنناقشه في الصفحات التالية :

أولا : اتهامه بوضع رسالة من أبى بكر وعمر إلى على (رضى الله عنهم) :

لم يقتصر خصوم أبى حيان على اتهامه بالزندقة ، وادعاء أحدهم أنه شر على الإسلام من ابن الراوندى الزنديق الملحد - بل راحوا يوجهون له طعنات نجلاء في مكانته الأدبية ، إذا اتهموه بالوضع ، حتي لا يوثق برواياته في خبر من الأخبار أو في نص أدبى أو تاريخى ، وأول ما يسترعى النظر في هذا الاتهام أن القائلين به من رجال الحديث ، لا من رجال الأدب واللغة - مع أنه لم يكن من المحدثين الكبار المشهورين الذين يؤخذ برواياتهم ، وأن كان في رأى السبكي من المحدثين في عصره ، وروى عنه جماعة ، والحقيقة أنه لم يكن كذلك وإن استشهاده ببعض الأحاديث في كتبه لا يرتفع به إلى مرتبة المحدثين المعتمدين . مع أنها ليس فيها ما يتنافى مع روح التشريع ولا مع الصبغة العامة للأحاديث النبوية .

لماذا أثهم بالوضع إذن ؟ :

يقول الدكتور الحوفى : " وأغلب الظن أن ذلك الباعث هو الرسالة التي روى أبو حيان أن أبا بكر وعمر أرسلها إلى على حينما تأخر عن بيعة أبى بكر ، فجاء على وحاورهما وحاوراه ، وكان أبو عبيدة بن الجراح حامل الرسالة الشفهية إلى على .. وهى رسالة طويلة - أوردها ابن أبى الحديد في شرح نهج البلاغة وصاحبها صبيح الأعشى ، ونهاية الأرب - ذكر فيها أبو حيان أنه سمعها من القاضى (١) أبى حامد المروونى ، رواية عن عيسى بن دأب عن صالح بن كيسان ، عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير ، عن أبى عبيدة بن الجراح ، مع اختلاف في سلسلة الرواة في بعض مراجع الرسالة .

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى - الجزء الاول من ص ١٢٢ - ١٥٠ .

(١) المرجع السابق

ولهذه الرسالة مصدقون ومكذبون ، بينما وقف منها بعض الدارسين موقف الحيدة المطلقة فلم يثبتها ولم ينفيها ، أمّا الذين نفوها فهم الذهبى وابن حجر وابن أبى الحديد والسندوبى وزكى مبارك ، وذكر الذهبى أن المالينى ذكر الرسالة لأبى حيان فقال أبو حيان : هذه الرسالة عملتها ردّاً على الرافضة لأنهم كانوا يحضرون مجلس بعض الوزراء ويغالون في حال على ، فعملت هذه الرسالة ، وعلق عليها الذهبى ، بأن أبا حيان قد اعترف بوضعها .

وذكر ابن حجر في أدلته على عدم صحة الرسالة ، أن الشريف الرضى جامع نهج البلاغة كان شديد الحرص على التقاط ما روى عن على رضى الله عنه ، وإذا ظفر بكلمة من كلامه فكانه ظفر بمك الدنبا ، وقد أودع هذا كله كتبه ، فأين كان الرضى عن هذا الحديث ؟ كذلك فإن متكلمي الأشعرية ، أصحاب الحديث كابن الباقلانى على النقيض من الشيعة ، كانوا من أشد الناس عليهم وعلى أمير المؤمنين على ، لو ظفروا بكلمة من كلام أبى بكر وعمر ممّا ذكره هذا الحديث لمأوا الكتب بها .

وكان آخر المتحدثين عن عدم صحة هذه الرسالة هو الدكتور زكى مبارك الذى ذهب إلى أن التوحيدى اخترع حديث السقيفة ، وأنطق الصحابة بكلام مسجوع ، لأنه كان يعرف لغتهم كذلك ، ومن دقة محاكاته انه حرص على التسامح فى التزام السجع فى بعض الفقرات ، ليوافق المنهج الذى عرف فى نظم القرآن والحديث ، وخطب الصحابة والخلفاء الراشدين .

وقد صدّق الرسالة - فيما نعلم - اثنان هما محمد كرد على وعبد الرزاق محيى الدين ، أمّا الاستاذ محمد كرد على فذهب إلى أن الرسالة صحيحة ، واستبعد أن يضعها التوحيدى ، ويبعد عن العقل أن يضع التوحيدى هذه الرسالة ^(١) ، وهي بعيدة عن أسلوب كلامه ، وإن أحب ابن أبى الحديد أن يشبهها به ، أمّا التوحيدى فرواها عن رجل معروف كان يحفظها ، وبالجملّة فالدلائل كلها قائمة بأن الرسالة ليست من صنع أبى حيان ، وأنها كانت معروفة قبله ، وإذا أراد بعضهم إلّا أن يقول . إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدى بكثير ، وهى على كل حال لا تخلو من اصل ، وربما زيد عليه بأيدي من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلاً من أهل السنة ، فأرادوا نكايّة الشيعة فى كثير مما صنعوا " .

(١) المرجع السابق .

ثم جاء الدكتور عبد الرزاق محيي الدين ، فرجَّح أن الرسالة صحيحة ، لأن فيها نبلاً من أبي بكر وعمر ، ولم يكن أبو حيان جاهلاً بمذاهب الفرق الإسلامية حتى يتعمد إيداء الإمامية بالحط من مقام الخليفين ، لأنها تمثل حال القوة جملة ، وتصور نفسية أبي بكر وعمر وعلى أثناء حادث السقيفة ، ولأنها شبيهة بأساليبهم ، ولأن أبا حيان أعلن أنه رواها بالنص .

ماذا قال الدكتور الحوفي عن الرسالة :

قال «والذي أراه أن الرسالة موضوعة ، ولست أشك في أنها مصنوعة ، فمن الذي وضعها ؟ أهو القاضي أبو حامد المروزي ؟ أم أبو حيان التوحيدى ؟ كلا الاثنين محتمل .

فمن الجائز أن أبا حامد قد افترضها ، وكتبها زمناً ، ولم يطلع عليها غير الوزير المهلبى ، كما قال لجلسائه الذين كانوا يسمرون عنده ، فلما أخبرهم بها وأعلموه أنهم يجهلون ، وألحوا عليه أن يرويها لهم رواها .. فمن الجائز أن تكون الرسالة من صنع أبي حامد ، فلما سمعها أبو حيان صدقها وأثبتها ، لأنه كثيراً ما روى عن أبي حامد ، وكثيراً ما وثق به .

ومن الجائز أن تكون الرسالة من اختلاق أبي حيان ولكنه عزاه إلى أبي حامد ليقوى سندها ، وليسلم من تبعثها «^(١) .

ويؤكد الدكتور الحوفي على أن الرسالة مصنوعة بأن راويها أبا حامد المروزي بينه وبين أبي عبيدة أربعة رواة فكيف توافق كل منهم على أن يرويها لشخص واحد لا يتعداه ، وكيف بقيت الرسالة في طوايا الزمن هذا العمر الطويل ، وهي مجهولة غير متداولة ؟ وأردف ذلك بقوله «إن أسلوب الرسالة يغير تمام المغايرة أسلوب الزمن الذي قيلت فيه (يقصد زمن الصحابة رضوان الله عليهم) فهي كثيرة الأسجاع ، في جمل قصار متوازنة ، ولقد يتوالى سجعها ويطرّد ، وإذا لاحظنا أنها رسالة شفوية لا مكتوبة ، ثم إذا لاحظنا أن السجع القصير المتوازن كان كثيراً (أى كان متصنعاً) حتى في مشافهة عمر لعلى ، أزدنا شكاً في أسلوبها ورجحنا أنها من إنشاء القرن الرابع .

(١) المرجع السابق .

وأورد فقرة من الرسالة تدل بجمليها القصيرة المسجوعة على أنَّها مصنوعة ، ومنها قول أبي بكر " البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف (مغبر) والليل أغدق ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، الحق عطوف رؤوف ، والباطل نسوف عصوف " .

ثم ماذا نقول بعد هذه الآراء :

أولاً أرى أن أقدم العذر لصانع هذه الرسالة سواء أكان أبو حيان التوحيدي ، أو أبو أويحامد المروزي ، ذلك أن الشيعة قد تغالوا في القرن الرابع إلى حد اعتبار أبي بكر وعمر وعثمان مغتصبين للخلافة ، ومنهم من تجاوز الحد ، وقال بتكفير بعض الصحابة رضوان الله عليهم والرسول صلى الله عليه وسلم يقول " الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضا بعدى ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه " رواه الترمذي ^(١) عن عبد الله بن مغفل رضى الله عنه . ذلك وأن الشيعة في ذلك العصر - عصر صناعة هذه الرسالة - قد هيمنوا على دولة الخلافة في بغداد ، وصنع علماءهم أحاديث كثيرة أسندوا روايتها إلى آل البيت رضوان الله عليهم ، وهذه الأحاديث تؤكد أحقية الإمام على في الخلافة قبل أبي بكر وعمر وعثمان .

ثانياً : أن أبا حيان قد اعترف بأنه صانع لهذه الرسالة ، الاعتراف سيد الأدلة ، فقد ذكر الذهبي عن جعفر الحكاك أنه سمع من أبي النصر الشجري أنه سمع الماليني يقول : « قرأت الرسالة المنسوبة إلى أبي بكر وعمر (والمرسلة) مع أبي عبيدة إلى على رضى الله عنه على أبي حيان فقال لى : هذه الرسالة عملتها ردا على الرافضة ، لأنهم كانوا يحضرون مجلس الوزراء ويغالون في حال على فعملت هذه الرسالة » .

ثالثاً : أن صناعة هذه الرسالة وإن كانت تعيب نزاهة أبي حيان ، إلا أنها تؤكد غيرته على السنة وعلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكأنه أول من استخدم مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة " وهو مبدأ غير سليم ، إلا أنه ما كان

(١) المرجع السابق ، والرياض النضرة (المقدمة) .

سيُقدِّم على هذا الأمر لو كان فيه جناية على الإسلام ، فاعتقاده أنه يخدم الإسلام دفعه إلى مثل هذا العمل ، وهذا العمل - مع عدم إقرارنا له - يؤكد صدق عقيدته .

رابعاً : أن خطبة الإمام على عند مبايعته لأبي بكر ، وكذلك خطبة أبي بكر ^(١) تدحضان مثل هذا القول المنحول ، زد على ذلك أن الصحابة لم يتعاملوا فيما بينهم بالرسالة المطنبة ، على ما فيها من السجع المتكلف ، فلتقرأ ماذا أورده المحب الطبري في كتابه الرياض النضرة بشأن مبايعة الإمام على لأبي بكر رضي الله عنهما قال " وعن عائشة أن علي بن أبي طالب مكث ستة أشهر حتى توفيت فاطمة - رضي الله عنها - لم يبايع أبا بكر ولا بايعه أحد من بني هاشم حتي بايعه على . فإرسل علي بعد وفاة فاطمة إلى أبي بكر : أتتينا ، ولا يأتينا معك أحد ، وكره أن يأتيه عمر لما علم من شدته ، فقال عمر . لا تأتينا وحدك ، فقال أبو بكر والله لأتيتهم وحدي ، وما عسى أن يصنعوا بي ، فانطلق أبو بكر حتي دخل علي ، وقد جمع بني هاشم عنده ، فقام علي فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال " أما بعد - فإنه لم يمنعنا أن نبايعك يا أبا بكر إنكار فضيلتك ولا نفاسة عليك بخير ساقه الله إليك ، لكننا كنا نري أن لنا في هذا الأمر حقاً ، فاستبددتم به علينا ، ثم ذكر قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحقه فلم يزل علي يذكر ذلك حتي بكى أبو بكر ، فلما صمت علي تسهّد أبو بكر فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : " أما بعد : فوالله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصلكم من قرابتي ، وإنني والله ما ألوكم في هذه الأموال التي كانت بيني وبينكم على الخير ، ولكنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ، ما تركناه صدقة ، إنما يأكل آل محمد في هذا المال ، وإنني والله لا أذكر صنعة فيه إلا صنعتها إن شاء الله تعالى ثم قال علي موعدهم للبيعة العشية ، فلما صلى أبو بكر الظهر أقبل على الناس ثم عذر علياً ببعض ما اعتذر به " .

ثم قام على فعظم من حق أبي بكر فذكر فضيلته وسابقتها ، ثم مضى إلى أبي بكر فبايعه ، وأقبل الناس إلى علي فقالوا . أصبت وأحسن . حديث صحيح متفق عليه .

(١) المحب الطبري - الرياض النضرة - الجزء الأول ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٢) المرجع السابق .

ثانياً : امانته فى الرواية والنقل والوصف :

لقد شهد لأبى حيان بأمانته ودقته فى النقل وتحريّ الحقيقة فى الرواية كثير من مؤرخى الأدب ، فكانت الدقة عادة من عاداته ، بل لم يستطع الفكك من سلطانها ، فإسناده الحديث يدل على أمانته ، ومثال ذلك :

١- قال مسكويه : " قرأت مسائلك التي سألتني أجوبتها فى رسالتك ^(١) التي بدأت بها فشكوت فيها من ... " .

٢- وكان ينقل عن أستاذه أبى سليمان ولم يعلق عليه ثم قال عن رسائل إخوان الصفا : " وحملت جملة منها إلى أبى سليمان المنطقى وعرضتها عليه ، ونظر فيها أياماً ، واختبرها طويلاً ، ثم ردّها على وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا " .

٣- وقال على لسان ابن سعدان :

« قال . إنى أريد أن أسألك عن ابن عباد ، فقد انتجعته ^(٢) وخبرته ، وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعاداته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، وخطوب ما لديه ، فما أظن أنى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، وعلى أنى قد شاهدته بهمذان لما وافى ، ولكن لم أعجبه (لم أفهمه) ، لأن اللبث كان قليلاً ، والشغل كان عظيماً ، والعائق كان واقعا : فقلت : إنى رجل مظلوم من جهته ، عاتب عليه فى معاملته ، وشديد الغيظ لحرمانى وإن وصفته أريت منتصفاً ، وانتصفت منه مسرفاً ، فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عارياً منهما جملة . كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق ، على أنى علمت رسالة فى أخلاقه ، وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسى الغزير » .

مما تقدم ومن قراءتنا لما كتب يتبين أن أباحيان كان يتحرى الدقة والأمانة العلمية فى النقل ، وذلك راجع إلى ممارسته الطويلة للنسخ التي تلزمه بعدم التصرف فى أية جملة أو أسلوب ، أمّا بالنسبة لتأليفه المستقاة مما سمعه من غيره فهو يلتزم فيها بالمعنى دون اللفظ .

« ولو أن الرجل كان غير أمين لاضاف كثيراً من الآراء القيّمة إلى نفسه ^(٣) - وهو ينقل عن غيره بدلاً من نسبيتها إلى ذويها ، لأنها كانت ستحقّق له مجداً وسبقاً وشهرة ،

(١) د. أحمد محمد الحوفى أبى حيان التوحيدى ح/١ ص ٨٦ ، ٤٠ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى - الليلة الرابعة ح/١ ص ٥٢ ، ٥٤ .

(٣) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبى حيان التوحيدى - ح/١ ص ١٣٧ .

لكنه أثر أن ينسبها إلى ذويها ، وإن كان من الميسور أن يتبناها هو ، لأنه كان قد سمعها أو قرأها وحده .

هل يمكن التوفيق بين اتهامه بوضع رسالة السلف الصالح والأمانة العلمية في النقل وتحري الحقيقة ؟ :

إذا كانت ارجح الآراء إزاء الرسالة التي حملها أبو عبيدة من أبي بكر وعمر إلى علي رضي الله عنهم لحدث علي مبايعة أبي بكر - تقول هذه الآراء إنها مصنوعة ، وتتهم بصناعتها ، فإن ذلك لا يقوم مبرراً لإنكار أمانته العلمية في النقل عن أساتذته ومعاصريه فإذا كان لكل عالم هفوة ، وتلك الرسالة إن صح نسبتهما إليه مهما كانت المبررات في إنشائها تعتبر هفوة منه ، فإنها لا تقوم أساساً لإنكار أمانته العلمية في نقل تراث القرن الرابع الذي عاشه وعاشه ، واعتبر أهم شاهد عليه ، وأعظم مسجل له ، فالحكم جد مختلف في الوضعين .

هل يمكن التوفيق بين سُخف لسانه وذمه لبعض الناس وبين أمانته العلمية في النقل وتحري الصواب ؟ :

لقد ثبت مما أوردناه أن أبا حيان كان سليط اللسان ، قليل الرضا عند الإساءة إليه والاحسان ، كان كثير التشكي ، كثير الهجاء لمن لم يسارع في مكافأته على عمل أو مديح ، كما أنه كان يعترف في أكثر من موضوع بهذا الخلق ، مثل القصة التي أوردتها عن نفسه في كتابه (المحاضرات) إذ ذكر أنه كان بحضرة أبي سعيد (١) السيرافي ، فوجد لديه كتاب " اللع في سواند التفسير " ورأى مكتوباً عليه بخط أبي سعيد . قصة الأعرابي الذي ذم رجلاً نثراً وشعراً ، فما كان من أبي حيان إلا أن نسخها بشغف واهتمام ، فسأله أبو سعيد : ماذا تكتب فقال : الحكاية التي على ظهر هذا الكتاب ، فلما تأملها أبو سعيد قال له . تأبى إلا الاشتغال بقدرح الناس وذمهم ، فأجابه أبو حيان . «أدام الله الإمتاع (أى أنه يجد متعة في ذلك) شغل كل ناس بما هو مبتلى به مدفوع إليه» .

هذه القصة وغيرها من القصص المنسوبة إليه والتي تؤكد ولوعه بالنقد والتجريح والهجاء ، هل تتنافى مع الأمانة ؟ لمية في النقل ؟ لا نرى أن هناك ارتباطاً بين الأمرين ، وإن كانت تلك السمة تسيئ إلى شخصه ، إلا أنها لا تحط من أمانته ودقته في النقل وتحري الحقيقة والصواب

(١) المرجع السابق ص ٧٤ ، ٧٥ .

شهادة الحوفى والقفطى وياقوت الحموى له بالأمانة فى النقل :

- يقول الدكتور الحوفى " وإن أمانته لتتكشف فى تعقيبه أو تقديمه لبعض الآراء " (١).
- ١- كمثل الذى رواه عن أبى الحسين القطان وفيه تعريفات لمصطلحات أصولية ثم علق عليها : « وليس جميع ما قال مقروناً بالسلامة ، لكن رويته على ما علقته (أى على ما علق بذهنى) ، ولم أزين لفظه ، ولا نمقتُ عبارته » .
- وتكثر فى كتبه التعقيبات الدالة على أمانته ودقته كقوله " قد رويته كما رأيته ، وهكذا حفظته من المجلس .. وقال : « إن الناهل (هو) الريان والعطشان : هكذا جاء فى الأضداد ، وهذا التفسير حفظته سماعاً ورويته رواية » .
- ٢- وإذا اختصر الكلام الذى سمعه نبه على اختصاره كقوله فى آخر جواب أبى سليمان له عن سؤال من أسأله " وكان ذيل الكلام أطول من هذا ، شمّرت خوفاً من جناية اللسان فى الحكاية ونزوة القلم فى الكتابة " .
- ٣- وإذا حكى بالمعنى وعبر هو بأسلوبه صرح بذلك كقوله " فقال كلاماً كثيراً ، أنا أحكيه على وجهه من جهة المعنى ، وأن انحرفت عن أعيان لفظه ، وأسباب نظمه ، فإن ذلك لم يكن إملاء ولا نسخاً ، وأجتهد فى أن ألتزم متن المراد وسمتُ المقصود " وهذه الأمانة هى التى جعلت القفطى ينقل عنه وحده ما قاله فى إخوان الصفا قال القفطى . « كنتم مصنّفو هذه الرسائل أسماءهم ، فاختلف الناس فى الذى وضعها ، وكل قوم قالوا قولاً بطريق الحدى والتخمين ، ولم أزل شديد البحث والتطلب لذكر مصنفها حتى وفقتُ على كلام لأبى حيان التوحيدى جاء فى جوابٍ له .. فى حدود سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة وهو ... »
- ٤- كان أبو حيان أميناً ودقيقاً فى وصف مجالس العلم والمناظرة ونقل الحوار بين العلماء والأدباء وكان أميناً دقيقاً فى تسجيل الحوادث . ثم ذكر الحوفى (٢) قصة القبض على أبى الفتح ذى الكفایتين كما رواها أبو حيان ونقلها عنه ياقوت فى معجم الأدباء ، وقد سبق لنا إيراد جزء منها عند الكلام عن ذى الكفایتين ، نقلاً عن صاحب يتيمة الدهر ، وأجمل ما فى القصة التى رواها أبو حيان . رد صاحب على ذى الكفایتين حينما طلب من مؤيد الدولة أن يأمر صاحب الرجوع إلى

(١) المرجع السابق ص ١٣٨ - ١٤٢ .

(٢) المرجع السابق من ص ١٤٠ - ١٤٦ .

أصفهان ، قال أبو حيان « وتلطّف ابن عبّاد في حلال ذلك ، لأبى الفتح وقال له .
أنا أظلم منك إليك ، أتحمل بك عليك ، وهذا الإستيحاش سهل الزوال إذا تألفت
الشارد من حلمك ، وعطفت على الشائع من كرمك ، ولنى ديوان الإنشاء ،
واستخدمنى فيه ، ورثبني بين يديك ، واحضرني بين أمرك ونهيك ، وسمنى برضاك ،
فإننى صنّعة والدك ، واتخذنى بهذا صنّعة لك ، وليس يجمل أن تكرّ على ما بنى
ذلك الرئيس فتهدمه وتنقضه ، ومتى أجبتنى إلى هذا ، وأمنتنى فإننى أكون خادمك
بحضرتك ، وكاتباً يطلب الزلفة عندك فى صغير أمرك وكبيره ، وفى هذا إطفاء
النائرة التي قد ثارت بسوء ظنك ، وتصديقك أعدائى على ، فقال (أى أبو الفتح)
فى الجواب . والله لا تجاورنى فى بلد السرير ، وبحضرة التدبير ، وخلوة الأمير ،
ولا يكون لك علىّ عينٌ عندي ، وليس لك منى رضا إلا بالعود إلى مكانك بأصهبان
والسلا عما تحدّث به نفسك ، فخرج ابن عبّاد من الرى على صورة عبّية متكرّرا
بالليل ، وذلك أنه خاف الفتك والعلبة ، وبلغ أصهبان ، وألقى عصاه بها ... » .

تعقيب .

هذا ما أمكن اقتباسه من قصة ابن عباد مع أبى الفتح بن العميد وكلا الرجلين لم
يُنْصَحَ أباً حيان ما كان يطمع فى نيّله ، ولم يمنعه غضبه منهما وسخطه عليهما أن يُورِدَ
الأحداث التي حدثت لهما على وجه الدقّة والصواب ، ومع أنه أُلّفَ فيهما كتابه (مثالب
الوزيرين) . إلاّ أنّه كما كان صادقاً فى إيراد حديث ابن عبّاد إلى أبى الفتح - كان
صادقاً أيضاً حينما حدث حوارٌ بين مؤيّد الدولة ووزيره أبى الفتح بعد انصراف ابن
عباد. إذ حدث أن طمع صاحب خراسان فى الرى وأصفهان وكرمان على أثر موت
ركن الدولة وقيام مؤيّد الدولة بعده فأراد مؤيّد الدولة أن يستعدي عليه علىّ بن كامة
أحد أمراء الديلم وأن يطلب منه القرض لمحاربة صاحب خراسان "فقال مؤيّد^(١)
الدولة، وكان ملقّباً (لأبى الفتح) هذا ابنُ كامة وهو صاحب الذخائر والكنوز والجبّال
والحصون ، ويده بلاد وقد جمع هذا كله فى دولتنا وحازه من مملكتنا .. قال (أبو
الفتح) . مالى فيه كلام ، فإن بينى وبينه عهداً ما أخيس به ولو ذهبت نفسى . فقال :
اطلب منه القرض ، قال : أنه يستوحش ويراه باباً من الفضاضة ، وقدّر القرض لا يبلغ
قدّر الحاجة .. قال : وإنّ ليس ها هنا وجه فليس بأس بآن يطالع الملك بهذا الرأى

(١) المرجع السابق من ١٤٢ - ١٤٦ .

ليكونَ نتيجته من ثم .. قال : أنا لا أكتب بهذا فإنه غدرٌ قال : يا هذا فأنت كاتبى وصاحب سرى والزمام فى جميع أمرى ولا سبيل إلى إخراج هذا الحديث إلى أحد من خلق الله ، فإن أنت لم تتول حارّه وقارّه ، وغته وسمينه ، ومحبويه ومكروهه فمن ؟

قال : يا أيها الأمير : لا يسمنى الخيانة ، فإنني قد أعطيته عهدا يذر الديار بلاقع ، ومع اليوم غد ، ولعن الله عاجلةً تفسد الأجلة .. ثم حدث أن استعدى مؤيد الدولة على أبى الفتح أخاه عضد الدولة ، الذى كاد له عند ابن كامة ، وما كان من الأخير إلا أن قال " هذا الفتى يرتفع عن هذا الحديث ، لعلّ عدواً قد كاده بى ، وبينى وبينه مالا منفذاً للسحر فيه ... فلما شهد كاتبه الخثعمى بأن الخط الذى كتبت به الرسالة إلى صاحب خراسان هو خطُّ أبى الفتح ، حال على بن كامة عن سجيته ، وخرج من مسكنه وقال : ما ظننتُ بعد الأيمان المغلظة التى بيننا أن يستجيز مثل هذا .

هذا جانب من قصة المؤامرة على أبى الفتح بن العميد الذى قضى نحبه متمسكا بمبادئه على رغم ما دبره له مؤيد الدولة وأخوه عضد الدولة حكاها أبو حيان بأمانة واتقان ، متحريراً الصدق ووجه الحقيقة .

٥- ويقول الدكتور الحوفى للبرهنة على دقة أبى حيان ^(١) ، فى نقل أحاديث علماء عصره " ومن ذلك أحاديثه عن علماء عصره وأدبائه ، ودقته فى نقل ما دار بمجالسهم من آراء وفتاوى (كقول ياقوت) " وقال أبو حيان فى كتاب محاضرات العلماء : حضرت مجلس شيخ الدهر ، وقريع العصر ، العديم المثل ، المفقود الشكل أبى سعيد السيرافى ، وقد أقبل على الحسين بن مردويه الفارسى ، يشرح له ترجمة المدخل إلى كتاب سيبويه من تصنيفه ، فقال له : علّق عليه . واصرف همك إليه ، فإنك لا تدريه إلا بتعب الحواس ، ولا تتصوره إلا باعتزال الناس .

فقال (أبى ابن مردويه) . أيد الله القاضى - أنا مؤثر ذلك ، ولكن اختلاف الأمر ، وقصور الحال يحول بينى وبين ما أريده ، فقال له : ألك عيال ؟ قال . لا قال عليك ديون ؟ قال . دريهمات . قال فأنت ريح القلب ، حسن الحال ، ناعم البال ، اشتغل بالدرس والذاكرة ، والسؤاا، والمناظرة وأحمد الله تعالى على خفة الحاذ (قلة المال والعيال) وجسن الحال وأنشده .

(١) المرجع السابق ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

إذا لم يكن للمرء مال ولم يكن له طُرُقٌ يسـمى بهنّ الولائدُ
وكان له خبزٌ وملحٌ فففيهما له بُلغةٌ حتى تجيّ الموائدُ
وهل هي إلا جوعةٌ إن سدّدتها فكلُّ طعامٍ بين جنبيك واحدٌ

٦- " قال أبو حيان وكان أبو سعيد يفتي ^(١) على مذهب أبي حنيفة وينصره فجرى حديث تحليل النبيذ عنده ، فقال له بعض الخراسانيين أيها الشيخ دعنا من حديث أبي حنيفة وقول الشافعي . ما ترى في شرب النبيذ والقدر الذي لا يسكر ويسكر ؟ فقال . أما المذهب فمعروف لا عدول عنه ، وأما الذي يقتضيه الرأي ، ويوجبه العقل ويلزم من حيث الاحتياط ، والأخذ بالأحسن والأولى فتركه والعدول عنه (أي ترك النبيذ والابتعاد) عنه .

وقال له . بنّ لنا - عافاك الله - فقال . اعلم أنه لو كان المسكر حلالا في كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكان على العاقل رفضه وتركه بحجة العقل والاستحسان ، وإن شاربهم محمول على معرة ، مدفوع إلى كل بلية ، مذموم عند كل ذي عقل ومروءة .. " فقال الرجل . " والله إن قولك ووصفك له أعلو . بالقلب من كل كلام واضح ، وبرهان لا تح ، وحجة وأثر ، وقول وخبر .

فقال له لولا زهاب الوقت لا عوض له لا استدلت لكل خصلة ذكرتها ولفظة أوردتها بآية من كتاب الله ، أو خبر مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتي قلت : إن الألفاظ مشتقة من ذاك ، مستنبطة منه ، ولكن الأمر في هذا أظهر وأشهر ، من أن يبين ويوضح ، ولأبي حنيفة مسائل لا أرتضيها له ، وقد خالفه فيها أعيان أصحابه ، والناقلة لمذهبه ، ولكن لكل أريب هفوة ، ولكل جواد كجوة ، والكلام إذا كثر لا يخلو من الخطأ ، والقول إذا تتابع لا يعرّى من تناقض ، والله المعين على أمر الدنيا والدين " .

٧- وفي آخر كتابه (أبو حيان التوحيدي) يقول الدكتور الحوفي :

" وبعد فقد اتهم أبو حيان بالزندقة زورا ، ورأينا أن تعبه وتصوفه ، وأدعيته وما بقى من مؤلفاته كفيلاً بدحض هذه التهمة ، وكذلك اتهم بالوضع والاختلاق ، ورأينا أنه أمين فيما نقل ، وفيما روى ، وفيما وصف ، وإذن فهو بريء من هذه التهمة

^١ المرجع السابق ص ١٤٨ - ١٥٠ .

• أيضا ، ولم يكن الغرض من الحملات على الرجل إلا الغضُّ من شأنه ، والتنفير من قراءة أدبه ، والإعجاب به ، لأسباب شتى بسطانها .

لكن الحقيقة تأبى إلا أن تشرق ، فتمحو ظلمات التحامل ، والتجنى والإغفال ، فإذا أبو حيان جدير بأن يحتل مكانه في الصدارة بين كبار الأدباء والعلماء .

جزء من الرسالة السلفية التي أنتم أبو حيان بوضعها :

لعل الذين ذهبوا إلى أن الرسالة موضوعة رداً على الرافضة نظروا إلى أن الفكرة العامة للرسالة هي الرد علي من قالوا بأن علياً أحق بالخلافة من أبي بكر ، فاثبتوا بهذه الرسالة أحقية أبي بكر بها .

كقول أبي بكر (مخاطباً علياً) « لئن كان عرض لك ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن معرضاً عن غيرك ، وإن قال فيك فما سكت عن سواك ، وإن تلجلج في نفسك شئ فلهم فالحكم مرضى ، والصواب مسموع ، والحق مطاع . ولقد نقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل ، وهو عن هذه العصاة راض ، وعليها حذر ، يسره ما يسرها ، ويسوؤه ما ساءها أما تعلم أنه لم يدع أحداً من أقاربه وسُجرائه (أصدقائه) إلا أبانه بفضيلة ، وتخصه بمزية ، وأفرده بحالة ... وبعد فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة ، ودار جامعة ، إن استقالوني لك ، وأشاروا عندي بك ، فأنا واضع يدي في يدك ، وسائر إلى رأيهم فيك ، وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، وكن العون على مصالحهم ، والقاتح لمغالقتهم ، والمرشد لضالّتهم ، والرادع لغوايتهم ... ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل ، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن » .



(١) المرجع السابق ص ١٢٦ .

• دفاع عن أبي حيان التوحيدي :

لعل الاختلاف حول بعض الشخصيات التاريخية يجعلها ^(١) مثار الاهتمام ، ويدفع الباحثين دفعاً لتحليلها وإبداء الآراء فيها ، وأبو حيان التوحيدي أحد هؤلاء الرجال الذين اختلف في توصيفهم وتُنوِّع القولُ فيهم ، وأقصد بهذا تلك المقدمة أو ذلك التصدير لكتاب أبي حيان (الإرشادات الإلهية) بقلم الدكتور عبد الرحمن بدوي ، فقد كتب تحت عنوان : (أديب وجودي في القرن الرابع الهجري) وأدهشني هذا العنوان ، قبل أن أقرأ المقال ، وما أنذا سأعرض أهم ما جاء فيه قبل أن أتصدى لتحليله والرد عليه ، دون تحاملٍ أو انفعال .

قال الكاتب « الكتابة ضرب من الصلاة - هكذا قال أفرنتس كافكا ، وإن بين هذا الألماني المسلول التبريد في دنيا اللامعقول ، وبين صاحبنا العربي الغريب في وطنه لمشابهة (على وزن مشابه) وأى مشابهة . كلاهما تهاوت عليه الكوارث والأحزان من كل جانب ، وإن لم تكن إرهاب الحساسة ، أو نضاعة الذهن ، وعمق الانفعال ما يجعله يستمد من هذه الوليات غذاء لروحه ومادة لتفكيره ، فأجهز على خلايا نفسه بمبضع التشريح الباطن حتى قضى على ذاته بذاته ، فقال كافكا عن نفسه (أنا من حجر ، بل أنا حجر لقبر نفسي) لا منفذ فيه للشك أو للإيمان ، للحب وللنفور ، للشجاعة وللقلق ، على وجه التخصيص أو وجه التعميم ، كلاً بل ثم أمل واحد غامض يحيا لكنه من نوع تنوهد القبور . »

وإنه ليدهش هو نفسه من هذا التحطيم المنظم لنفسه خلال سنين ، وكأنه أسد يتقدم ببطء نحو الانقراض عليه، وهو يشاهد روحه تفضل هذا كله ، مغتبطة بانتصاراتها على نفسها فلماذا لا يشارك أيضا في هذا الاحتفال : الاحتفال بعيد قضاء ذاته على ذاته ، ويخيل إلى نفسه أنه صار كالجيفة ، أو كالذبيح وأن هناك غربانا سريّة مستورة ترنق حوله . . وصاحبنا العربي (أى التوحيدي) يصف نفسه وأطوارها فيقول " أمّا حالي فسيئة كيفما فلبّتها ، لأنّ الدنيا لم تواتني لأكون من الخائضين فيها ^(٢) . والآخر لا تغلب على فأكون من العاملين لها ، وأمّا ظاهري وباطني فما أشدّ اشتباههما ، لأنني في أحدهما متلطّخ تلتطّخ لا يقربني من أجله أحد ، وأمّا سرّي وعلايتي فممقوتان بعين الحقّ خلوهما من علامات الصدق ، ودنوهما من عوائق الرقّ ، وأمّا سكوني وحركتي فافتان محيطتان بي ، لأنني لا أجد في أحدهما

(١) الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي - مقدمة الكتاب من ص ١ إلى ١٨ .

(٢) المرجع السابق

حلاوة النجوى ، ولا أعرى فى الآخر من مرارة الشكوى ، وأما انتباهى ورقدتي فما أفرق بينهما إلا بالاسم الجارى على العادة ، ولا أجمع بينهما إلا بالوهم بون الإرادة ، وأما قرارى واضطرابى فقد ارتهننى الاضطراب حتى لم يدع فى فضلاً للقرار ، وغالب ، ظننى أننى قد علقت به لأنه لا طمع لى فى الفكاك ولا انتظار عندي للانفكاك ، وأما يقينى وارتياجى ، فلى يقين ولكن فى درك الشقاء ، فمن يكون يقينه هكذا كيف يكون خبره عند الارتياح .

ثم يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى : « وليس هذا منهما مجرد الاستمتاع بالتغنى بالألم إرضاء لنزعة أدبية ، أو هاتف رومنتيكي بل كان فى حياة كل ما يعدو إلى هذه المرارة فى الشكوى ، يواكب هذا عرامة إحساس وينفذ من الظاهر إلى الباطن فلا يتخذ من الأحداث إلا رموزاً وعلامات على الجوهر الباطن فى أعماق الوجود كله ، فالألم الذى يحياه فى لحظة هو ألم مرفوع إلى أس السرمدية ، والانفعال الذى ينطبع فى نفسه من موضوع محدود سرعان ما يفتح على الوجود الواسع بأسره ، وهذا ما يميز الأديب الوجودى الحق ، فكأن من حدث تافه عند الناس يصبح لديهم حدث الأحداث لا لمبالغة فى تقديرهم ، أو إفراط فى التخيل الجامح ، ولكن لأنهم يقولون مع جيته كل حادث رمز ، فما بالك وقد لقوا فى دنياهم عنتاً ليس بالهين .

فكافكا ينتسب إلى شعب مستأصل شارح ، عليه اللعنة والنقمة ، أينما حلّ وحينما سار ، وإن ادعى أنه (شعب الله المختار) (١) ، إلا أن يكون مختاراً للشقاء وإشاعة الشر بين الناس ، وإهدار القيم النبيلة عند الآخرين ، وصاحبنا لا نعرف له أصلاً إنمّا هو من أولئك الموالى الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر فكوّنت مركباً غريباً ، على أنه يشعر بواشجة قربى مع الغرباء والأفئدة حتى لو كان لا يخالط إلا « الغرباء والمجتدين الأوفياء الأردباء » وما هذا إلا لشعوره بأنه واحد منهم ، إذ كان يرتد إليهم مهما زجره عنهم زاجر من كبار القوم على أن الأرجح أن يكون فارسى الأصل ، مع احتمال دخول أجناس أخرى ، وبالجمله فهو رأى فى غالب الظن ، ولاتك أنه كان يشعر بالذحل العنصرى الذى كان بالغا أشده فى عهده ، أعنى القرن الرابع الهجري خصوصاً ، وقد بدأ عنصره ينتصر ، بل ويستقل بدويلات لا تكاد تربطها بمركز الخلافة إلا أو هى الروابط ، ومن هنا كانت عناية كليهما بأمر الشعوبية ، وما ذلك إلا لما يعانیه من تجربة أو شعور أليم يبلغ حد المأساة لأنه شعور عنصر بأمره . (فكلاهما يسير على قاعدة) : الابن الضائع يولع بالضائعة والنافلة والفضول .

(١) المرجع السابق .

والجاء والولد وتحمل المشاق فى سبيل الدعوي يؤدى بهم إلى القنوط من رحمة الله . وما معني قول الله تعالى " حتى إذا استيأس الرسل ^(١) وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا " .

رابعا : هل يفهم من مقال الدكتور أن مذهب الوجودية ليس وليدَ اليوم ؟ أى لم ينشأ فى أوروبا فى القرن العشرين وإنما هو قد نشأ فى أرض إسلامية فى القرن العاشر الميلادى على يد أبى حيان التوحيدى والسهرورودى .

خامسا : يقول الكاتب " ... فالألم الذى يحياه (أى الأديب) فى لحظة هو مرفوع إلى أسَّ السرمدية ، والانفعال الذى ينبثق فى نفسه ^(٢) من موضوع محدود ، سرعان ما يفتِّح على الوجود الواسع بأسره ، وهذا ما يميِّز الأديب الوجودى الحق " . وهو كلام فيه تعقيد " للكاتب الوجودى ، فإذا صحَّ هذا الكلام بالنسبة لأفرنتس كافكا ، فهل يصحُّ أن يقال لأديب إسلامي كالنوحيدى ، هل استشعاره الألم ، وشكواه مما ألمَّ به من فاقةٍ وحرمان ، ومصاحبه المتسوِّفة الفقراء يعنى أن هذا رمز وعلامة على جوهر هذا الشقاء داخل الوجود بأسره ؟

سادسا : إذا صحت هذه الفلسفة لمجتمع غربى تنمو فيه روح الانهزامية نتيجةً للقنوط وعدم الثقة أو الإيمان بأن لهذا الوجود خالقاً ومدبراً يبدل ولا يتبدل ، هل إذا صحت هذه الفلسفة بالنسبة لذلك المجتمع تصح بالتالى على المجتمع الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى ؟ هل انقصمت عراه عن الإسلام الحقيقى وما فيه من حقائق الإيمان ؟

سابعا : إذا حللنا كلام أفرنتس كافكا وقارئاه بكلام التوحيدى سنجد الإثنين على النقيض من بعضهما بعضاً ، فالأول يقول . أنا من حجر بل أنا حجر لقبر نفسى ، أى وصلت إلى حالة عدم الشعور بنفسى أو بمن حولى فأنا حجر لا منفذ فيه للشك أو للإيمان أى وصلت إلى الحد الذى لا يعرف التسك ولا الإيمان ، أو الحب أو النفور .. وهذا الكلام هو الذى أنبت عليه فلسفة الوجودية .

أما كلام النوحيدى ، فهو أجوبة عن أسئلة وجهها إليه صديق له شعُر بما آل إليه حاله من فاقة وحرمان ، عقب رجوعه من متجعه ، واهن النفس بلا طائل

(١) سورة يوسف الآية (١١٠) .

(٢) مقدمة كتاب الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى من ص ١ إلى ١٨ .

من دينار أودرهم ، فيقول له . أخبرني عن حالك الآن وعن ظاهرك وباطنك ، وعن سرّك وعلاانيتك ، وعن سكونك وحركتك ، وكيف أنت في يقظتك ورقدتك ، وما حالك في حلك وترحالك ، فلنستمع إلى أجوبته عن هذه الأسئلة

« أمّا حالي فسيئة كيفما قلّبتها » والسبب ^(١) في ذلك أنه لم يحظ بشيء مما كان يأمله في هذه الحياة الدنيا ، وليس هو من الأتقياء - كما يقول - الذين يفضلون الآخرة على الدنيا فيرضون بالقليل .

وأما ظاهري وباطني فما أشد اشتباههما . لأنني في أحدهما متلطخ تلطخا لا يقربني من أجله أحد « أي ظاهري الجري وراء متاع الدنيا الذي جعل الناس تنفّر مني » وفي الآخر متبذخ تبذخا لا يهتدي إلى رتد « أي باطني ليس عميقا وإنما هو سطحي للعيان » . عن الهداية الحقة .

« وأما سرّي وعلاانيتي فمقوتان بعين الحق ، لخلوهما من علامات الصدق ، ودنوهما من عوائق الرق » أي أعمال في السر والعلن يبغضهما الله تعالى ، فالحالتان مقوتتان بعين الحق ، لأنني في حالتي السر والعلن أظاهر بالفضيلة ، وفي كلتا الحالتين ألقى بنفسي في قيود الرق وهي أضرار الحياة الدنيا .

« وأما سكوني وحركتي فأفتان محيطتان بي ، لأنني لا أجد في أحدهما حلاوة النجوى ، ولا أعري في الآخر من مرارة الشكوى ، أي مقامي وتنقلي كلاهما أفتان لي ، لأنني إذا خلوتُ بنفسي في الحالة الأولى لا أجد حلاوة النجوى ، وفي حالة تنقلي أجدني عريانا مُنتقدا لتزلفي للآخرين .

« وأما استباهي ورقدتي فلا أفرق بينهما إلّا بالاسم » أي لا أعرف اليقظة من المنام في كلتا الحالتين .

« وأما قرارى واضطرابي » أي استقرارى وسفرى ، وهما مرادفان للسكون والحركة اللذين اشرنا إليهما ، ويذكر أنه تعود على الاضطراب أي السفر ، والاستقرار لا يحقق ما يريد .

« وأما يقيني وارتيابي ، هل يقين ، ولكن في دُرّك الشقاء ، فمن يكون يقينه هكذا كيف يكون خبره عن الارتياح » أي إذا سألتني عن اليقين أو الإيمان ، فأنا مؤمن ولدي يقين ، ولكن مالى إلى الشقاء ، وكما هو الحال في الدنيا ، وإذا كان هذا هو ردى بالنسبة لليقين ، فهل ثمة ارتياح مع هذا اليقين .

(١) المرجع السابق .

وبعد تحليلنا لكلا القولين فليس لنا تعليق بعد ذلك ^(١) إلا أن نقول . إننا يمكننا أن نصنّف أبا حيان التوحيدى فى طبقة المُكذِّين الظرفاء من الكتاب لا فى طبقة الوجوديين . (وأقصد بالظرفاء الساخرين من أنفسهم لما يلقونه من متاعب وآلام) .

ثامنا . ذَكَرَ الكاتبُ أنَّ الأديبين يستشعران العنصرية ، فإذا صحَّ هذا بالنسبة لكافكا اليهودى الذى تعرَّض للتمييز العنصرى ، فى ألمانيا النازية فهل يصحُّ هذا بالنسبة للتوحيدى الذى لم يتفق المؤرِّخون على نسبهِ ، والذى لم يستشعر التفرقة العنصرية ، فى أية كتابة من كتاباته ، وإذا كان الكاتب يرجِّح الرأى القائل بأنَّه فارسى - مع أنَّه يشير إليه بصاحبنا العربى - وفى ذات الوقت يؤكد غلبة العنصر الفارسى فى عصره ، فكيف باله يكون حال أبى حيان من الجُهد والفاقة إلى هذا الحدِّ وهو من بنى ساسان الحكام آنئذ كما حكى الكاتب ؟

تاسعا . هل وَجَدَ الكاتبُ مناداة بالشعبوية فى أدب أبى حيان ، بل لو أنه قرأ أدبه بإمعان لوجد كيف تصدَّى للمنادين بها كالجهاني ، وما أورده من كلام أبى حامد المرووذى ^(٢) فى تبكيت عقائد الفرس القديمة واعتزازهم بأصولهم ، وليست الشعبوية مرادفة للعنصرية . فالعنصرية اصطلاح حديث للأسس التى ينادى بها دعاة التمييز بين الناس عموماً ، وأما العبارة التى أوردها الكاتب واصفاً بها حال التوحيدى بأنَّه لا يخالط " إلاَّ الغرباء " ^(٣) والمُجْتَدِّين الأدياء الأُردياء " فهذه العبارة وردت على لسان صديقه أبى الوفاء المهندس ، وهو يعدُّ فضائله عليه بأنَّه هيأه لمجالسة الوزير ابن سعدان ، بعد أن كان فى حالة مُزريّة ، وهذه الحالة ألجأه إليها الفقر والحرمان ، فليست هذه فلسفته فى الحياة لتقعيد المذهب الوجودى كما زعم الكاتب .

عاشرا : وأخطر ما فى كلام الكاتب قوله عن التوحيدى وكافكا " أنَّهما التقيا فى النهاية واتفقا على أن عالم الإنسان هو عالم الخطيئة ، والخطيئة هى الشعور بالتضائل فى إمكان الوجود وأنَّه عالم القهر " . وهذا الكلام إنَّ دل على شيء فإنَّما يدل على أن التوحيدى - كما زعم الكاتب - يؤمن بالتعاليم المسيحية المبتدعة التى

(١) المرجع السابق .

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ج/١ ص ٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٧ .

تقول . إن الإنسان عليه أن يتحمل خطيئة آدم الذي خدعه إبليس وأخرجه من الجنة إلى عالم البؤس والآلام .

وأخيراً سأردُّ على الدكتور عبد الرحمن بدوي وعلى مَنْ شكَّك في عقيدة أبي حيان التوحيدي بهذه القصيدة : (ولا تعنى أننى أبكَّت أحداً أو أننى عجزت عن الإيفاء في الردِّ عليه نثراً) :

<p>ولا متنصِّراً أو باليهودي ولم يتعدَّ أعتاب الحدودِ فأنتى أن يسيرَ إلى الجُحودِ وأوغلَ في المجاهلِ والصُّعُودِ بتركِ عقيدةِ الأبِ والجدودِ يُثبِّتُن العقيدةَ في اللُّحودِ على الإيمانِ ليس على الجُمُودِ عن الدنيا بإشهادِ الشهودِ فذلكمُ الدليلُ على الصمودِ فلم يكلفُ برَّبابِ النهودِ بشكواهُ إلي ربِّ الوجُودِ فذا سُخْطٌ علي عَصْرِ كُنُودِ وغنماً في الحياة بلا حدودِ معاناةٌ تُكافأ بالصُدودِ ولا زادٍ ، وأخلد للقمُودِ</p>	<p>أبو حيانَ لم يكُ بالوجُودي حنيفاً مسلماً قد كان حقّاً من التوحيدِ مشتقُّ سنأهُ فإن أوردى زنادَ الفكرِ دوماً فهل يتقُولون لذا عليه أما قرأوا الإشارات اللواتي هوامله شُـوَامِلُهُ دليلُ وتلك مقابساتُ قد وعأها ورغمُ الفقرِ أولى العلمِ زهناً وذلكمُ الدليلُ على حجابهِ ولم يسلكُ سوى النجوى طريقاً وإن أبدى التبرُّم والتجافِي لأنَّ النفسَ تشتاق انتصافاً ولكنْ أقعدته عن المعالي فأثر أن يبيت بلا كسَاءِ</p>
---	---



❖ إحراقه كتبته تبرأ من حياته البائسة :

إنَّ المعاناةَ والألمَ اللذين عايشهما أبو حيان التوحيدى طيلة حياته البائسة ، ودفعاه فى آخر أيَّامه أن يحرقَ كُتبه ، فى غمرةٍ من النقمةِ والألمِ واليأسِ ^(١) والوسواس ، وقد أرسل فى عام أربعمائة هجرى رسالةً إلى القاضى أبى سهل على بن محمد رداً على رسالة القاضى التى عذله فيها على فعلته ، وعرفه قبح ما ارتكب من خطأ ، وقد ذكر أبو حيان فى أثناء رده على رسالة القاضى أسباب إقدامه على إحراق كُتبه .

وقبل أن نورد رسالته تلك التى ذكرها ياقوت وناقشه فيها ، نذكر نبذة أو مثلاً يدلُّ على مدى الفاقة والحرمان اللذين عاناها هو ومن عاش مثله فى ذلك العصر ، لنؤكد أن البؤس كان السَّمةَ الغالبة على العلماء والمفكرين فى ذلك العصر ، وربما كان أبو حيان أحسنَ حالاً من غيره لأنه قد أتاحت له فرصة مجالسة بعض الوزراء فى ذلك الوقت وإنعامهم عليه بما يحتاج .

مثال للبؤس والفاقة والحرمان عند أدباء ذلك العصر :

قال أبو حيان فى مقدمة كتابه (الصداقة والصدق) « ومن العجيب ^(٢) والبدیع أننا كتبنا هذه الحروف على ما فى النفس من الحرق والأسف والحسرة والغیظ والکمد والومد (الغضب) .. وذاك لعلمك بحالى وإطلاعك على دخلتى ... لأنى فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق مشفق ، والله لربما صليت فى الجامع فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق فبقال أو عصار أو نذاف أو قصاب .. فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعا بالوحدة ، معتادا للصمت ، ملازماً للحيرة .. »

وذكر فى كتابه (المحاضرات) ألواناً من بؤس الأدباء وشكائياتهم ، منها ما أنشده إيَّاه أبوبكر القومسى الفيلسوف ، ووصفه بأنه كان من الضرِّ والفاقة ومقاساة الشدة والإضافة بمنزلة عظيمة ، ونقل عن أبى بكر (القومسى) وصفه لنحسه بقوله ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلغ من إنسانٍ ما بلغ منى ، إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس ، ثم أنشده قصيدة للعطوى ، تصور البؤس والنحس سجَّلها أبو حيان .

(١) د أحمد محمد الحومى - أبو حيان التوحيدى ح/١ ص ٩١٤ ، ٩١٥ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٤ ، ٨٥ .

ويعلم أبو حيان في كتابه (الإمتاع والمؤانسة) زهده في (١) انده ، لأنه شغل بما هو أهم ألا وهو طلب القوت « على أن الزهد في هذا الشأن قد وضع عنا ، وعن غيرنا مؤونة الخوض فيه ، والتعنى به ، والتوفر عليه ، وتقديمه على ما هو أهم منه ، أعنى طلب القوت الذى ليس إليه سبيل ، إلا ببيع الدين ، وإخلاق المروءة وإراقة ماء الوجه ، وكد البدن ، (وتجرع الأسى ومقاساة الحرقة ، ومض الحمران) ، والصبر على ألوان وألوان ، والله المستعان . »

فهل فعل هذا أبو حيان بحق ؟ هل باع دينه بدنياه ؟ هل أخلق مروءته وأراق ماء وجهه ؟ لو قبل هذا لما عانى شظف العيش والحرمان ، ولكنه أخلص فى التحقيق والتدقيق وإظهار الناس على حقيقتها ، مما ألّبهم عليه ، فحاربوه فى قوته ، وضيقوا عليه معيشتة .

ومن أسباب ما ألمّ به من التعاسة والبؤس أنه كان شديد الخوف (٢) ، وضعيف العزيمة ، كثير الهية ، ومن هنا ملّ الوراقاة والنسخ ، وتطلع إلى كسب أيسر وأسهل ، ولم يتجّه إلى الارتزاق من عمل آخر يتشعر فيه بالحرية والكرامة ، على كثرة ما منى به من تصريح الأمل .

سأله الوزير ابن سعدان " لِمَ لا تُداخل صاحب الديوان ، ولمَ ترضى لنفسك بهذا اللبؤس ؟

فقال . أنا رجل حب السلامة غالب على ، والقناعة بالطيف محبوبة عندي .

فقال الوزير : « كُنَيْتَ عن الكسل بحب السلامة ، وعن الفسولة بالرضا باليسير . »

لهذا نقول . أين هو من الفقير المعدم الذى لا يستسلم لحياته البائسة وإنما يسعى جهده للتقلب على بؤسه وشظف عيشه ، أين هو من عروة الصعاليك الذى يقول (٣)

رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ	ذَرِينِي لِلْغِنَى أَسْمَعَى فَاإِنِّى
وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسْبٌ وَخَيْرُ	وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ
حَلِيلُهُ وَيَنْهَرُهُ الصُّغْفِيرُ	وَيُقْرِصِيهِ النَّدَى وَتَزْدْرِيه
يَكَادُ فَوَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ	وَتَلْقَى ذَا الْبَغْنَى وَلَهُ جَلالُ
وَلَكِنَّ الْغِنَى رَبُّ غَفُورُ	تَلِيلُ ذَنْبِهِ وَالذَّنْبُ جَمُّ

(١) الإمتاع والمؤانسة لآسى حيان ح/٢ ص ١٤٣

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ (ج/١)

(٣) المرجع السابق ص ٦١ .

ومن العجب العجائب أن أبا حيان كان يستشهد بهذه الأبيات ولكنه لم يعمل بما تقتضيه ، لهذا فقد وصل في أخريات أيامه إلى حالة من القنوط والبؤس والالام المصّة دقّته إلى إحراق كتبه .

رسالة أبي حيان إلى القاضي أبي سهل :

لما أحرق التوحيدى كتبه أرسل إليه القاضي أبو سهل ^(١) على بن محمد يعذله على فعلته ، يعرفه قبح ما ارتكب ، فرد عليه أبو حيان يعتذر من ذلك فى كتاب طويل حاول فيه تبرير عمله ، وصور فيه أطرافاً من حياته ، ورسالته هذه - وإن كان غير محق لتبريراته التي أوردها فيها - تعد فريدة فى الأدب العربى ، لأنها تصوّر لنا مدى الضيق واليأس اللذين يصل إليهما الأديب إذا اكتنفه الإغفال والنكران ، وأحاطه البلاء من كل مكان ، فيقدم على أعز شئ لديه فيحرقه تبرئاً بالحال التي وصل إليها ، وفى هذه الرسالة يقول : " حرسك الله ايها الشيخ من سوء ظنى بمودتك وطول جفائك ، وأعاذنى من مكافئك على ذلك ، أجارنا جميعاً مما يسود وجه عهد إن رغبناه كنا مستأنسين به ، وإن أهملناه كنا مستوحشين عن أجه ، وأدام الله نعمته عندك ، وجعلنى على الحالات كلها فداك .

وإفانى كتابك .. الذى وصفت فيه ما نال قلبك ، ^(٢) والتهب فى صبرك من الخبر الذى نُمى إليك فيما كان منى من إحراق كتبى النفيسة بالنار ، وغسلها بالماء ، فعجبت من انزواء وجه العنر عنك فى ذلك (أى أنا فى عجب لأنك لم تعزنى) كأنك لم تقرأ قوله جل وعز " كل شئ هالك إلا وجهه " ، له الحكم وإليه ترجعون " وكأنك لم تأبه لقوله تعالى " كل من عليها فان " وكأنك لم تعلم إنه لا ثبات لشيء من الدنيا ، وإن كان شريف الجواهر ، كريم العنصر ، ما دام مقلباً بين الليل والنهار ، معروضا على أحداث الدهر وتعاوير الأيام .

ثم إنى أقول . إن كان - أيدك الله - قد نَقَبَ خُفُّكَ ما سمعت ، فقد أدمى أظلى (باطن أصبعى) ما فعلت ، فليهن عليك ذلك ، فما أنبريت له ، ولا اجتأرت عليه ، حتى استخُرتُ الله عز وجل فيه أياماً وليالى ، وحتي أوحى إلى فى المنام بما بعث راقد العزم ، وأجد فاطر النية ، وأحيا ميت الرأى ، وحث على تنفيذ ما وقع فى الروع ، وترى (تحير) فى الخاطر .

(١) الدكتور أحمد محمد الحوى - أبو حيان التوحيدى ص ١١٥ ح/١ .

(٢) ياقوت . معجم الأبناء ج/١٥ - ص ١٦ - ٢٦ .

وأنا أجد عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت ، أو بالعذر إن استوضحت لتتق في ما كان مني ، وتعرف صنع الله تعالى في ثنائه لي (المراد صنعه لي) إن العلم - حاطك الله - يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل يراد للنجاة ، وإذا كان العمل قاصرا على العلم كان العلم كلاً على العالم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً ، وصار في رقة صاحبه غلاً .

ثم اعلم - علمك الله الخير - أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلايته ، فأما ما كان علانية فلم أصب من يحرض عليه طالبا .

على أني جمعت أكثرها للناس ، لطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولأن الجاه عندهم ، فحُرمت ذلك كله ، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي ، وناطه بناصيتي ، وربطه بأمرى .

وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة على لا لي^(١) ، مما شحذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أني فقدت ولدا نجيبا ، وصديقا حبيبا ، وصاحباً قريبا ، وتابعاً أدبيا ، ورئيساً منيباً (يريد المستحقين لهذه الكتب لا وجود لهم) . فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها ، ويشتمون بسهوى وغلطي إذا تصفحوها ، ويتراعن نقصى وعيبي من أجلها .

فإن قلت ، ولم تسمهم بسوء الظن ؟ وتقرع جماعتهم بهذا العيب ؟ فجوابي لك إن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات ، كيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم واد ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ ؟

ولقد اضطرت بينهم ، بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين ، والمروءة وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، وي طرح في قلب صاحبه الأمل .

وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرك ، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته ، بما قدمته ووصفته ، وما أمسكت عنه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، وأما خوفاً من القال والقليل .

(١) المرحع السابق

وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد ، فإننى فى عشر التسعين ، هل لى بعد الكبرة والعجز أمل فى حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة ألت من زمرة من قال القائل فيهم: نروح ونغسـو كل يوم وليلة وعما قريب لا نروح ولا نغسـو^(١) وكما قال الآخر

تفوقت درات الصبـا فى ظلاله إلى أن أتانى بالعظات مبشـيب والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان فى هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تقر بهم ، والنفـس تستير بقربهم.

فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والرى وما إلى هذه المواضع ، وتواتر إلى نعيمهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ؟ وهل لى محيد عن مصيرهم ؟ أسأل الله تعالى رب الأولين والآخرين ، أن يجعل اعترافى بما أعرفه موصولا بنزوى عما أقترفه إنه سميع مجيب. وبعد فلى فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ، ويعتسى إلى نارهم ، منهم : أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهره ، وورع معروف ، دقن كتبه فى بطن الأرض ، فلم يوجد لها أثر .

وهذا داود الطائى - وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة ، ويقال له تاج الأمة - طرح كتبه فى البحر ، وقال يناجيها نعم الدليل كنت ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول ، وبلاء وخمول .

وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غار فى جبل ، وطرحها فيه وسد بابه ، فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم فى الأول ثم كاد يضلنا فى الثانى فهجرناه ... (إلى أن يقول) : وإذا أمتعنا النظر ، تيقنت أن لله جل وعز فى خلقه أحكاماً لا يعار عليها ولا يغالب فيها ، لأنه لا يبلغ كنهها ولا ينال غيبها ولا يغرف قابها (قدرها) ولا يقرع بابها.

وهو تعالى أملك لنواصينا ، وأطلع على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر ... والسلام .

(١) المرجع السابق .

ملخص الرسالة والملاحظات عليها :

بدأ التوحيدى رسالته بالتسليم بأن كل حى مصيره للفناء إلا الخالق سبحانه ، وأنه استخار الله تعالى فى حرق كتبه ، يزعم أنه أوحى إليه فى المنام بما يؤيد رأيه فى إحراقها . وقال " إن العلم - حاطك الله - يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصرا عن العلم ، كان العلم كلاً (أى عبثاً) على العالم " أى أن علمه الذى أودعه بطون هذه الكتب لم يطبقه عملياً فهو عبء سيتحمل تبعته ، كما أنه لم يجد من يسعى إلى الاستزادة من هذه الكتب ، وقد أجهد نفسه فى كتابتها وإيصالها إلى نوى الجاه فلم ينل الحظوة عندهم ، وقال . " وكرّهت مع هذا وغيره أن تكون حجة على لى " ولما كانت هذه الكتب لم تكسبه الوجاهة بين الناس فهل يؤمل منها جزاءً عند الله ، وهو قد ألّفها لحياته الدنيا التى خذلته ؟ وجعل أمله فى عفو الله ورحمته لا فى مصنّفاته وكتبه .

كذلك لم يجد من يفهم كتبه فى حياته فخاف على إساءة فهمها بعد وفاته ، أو أن يتخذها الناس بعد وفاته أساساً للنيل منه ، وبعد أن جاوز الثمانين من عمره فلا أمل فى حياة لذيذة بعد هذا العناء وهذه المكابدة ، أن حسرتة على خلّائه الذين رحلوا قبله جعله يقطع الأمل فى هذه الحياة الدنيا ، وأن له أسوة بالعلماء الأجلّاء الذين أقدموا على مثل ما فعل ، خاصة وقد انتهى وقت المباحة بالعلم واستوجب الأمر أن يطلب من الله حسن الخاتمة .

ويلاحظ من هذه الأسباب التى قدمها أبو حيان لإحراقه كتبه ما يلى :

- ١- إن الأثر الأدبى هو ملك للإنسانية جمعاء فمتى خرج هذا النتاج إلى الحياة وصاحبه راضٍ عنه فلا ينبغى له أن يهلكه بعد إعادة النظر فيه .
- ٢- الدليل على ذلك أن أهم كتبه ما تزال بين أيدينا وتقرأ فى كل مكان وزمان ، فإن حرقه للنسخ التى كانت معه لم يقضِ على حياة تلك المؤلفات .
- ٣- إن المرء إذا جاوز الثمانين له الحق أن يدير ظهره للحياة الدنيا ، وليس هذا معناه أن يطوى عمله الذى عمله قبل بلوغ هذه السن ، فالسأم من الحياة فى تلك السن مفترض خاصة وأنه عاش حياة بائسة ، وزهير يقول .
سَسِئِمْتُ تَكَالِيفَ الْحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ثَمَانِيْنَ حَوْلًا - لَا أَبَالِكَ - يَسَامُ .

٤- إن إرادة الله تعالى شاعت أن تبقى هذه المؤلفات يستفيد منها كل مستفيد كأثر أدبي فريد . أمّا ما جاء فيها من كشف أسرار وهتك أستار ، وقذف وإيذاء ، ومدح مسرف وهجاء ، فهذا مرده إلى الله تعالى وهو أرحم الراحمين .

٥- إن أبا حيان حين أقدم على إحراق هذه الكتب رأى نفسه كالذى يقدم على إهلاك فلذة كبده ولذا استشهد بالآيتين الكريمتين اللتين يُستشهدُ بهما عند موت كل حبيب وعزيز .

لماذا وصلتنا أهم كتبه بعد أن أحرق أغلبها :

لقد وصلنا من كتب أبى حيان التوحيدى كتاب

« الإمتاع والمؤانسة » وهو من أهم الكتب التى ألّفها بعد اتصاله بالوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة بن بويه . فهل كان قد أحرق هذا الكتاب في عام ٤٠٠هـ- الذى وصلنا هو كتاب آخر ؟ بالتأكيد فإن كتاب الإمتاع والمؤانسة الذى وصلنا هو ذاته الذى ألّفه التوحيدى . فإن كان ضمن الكتب التى أحرقها فقد شاء الله تعالى أن تسلم إحدى نسخ هذا الكتاب من الإحراق . وقس على ذلك الكتب الأخرى التى وصلتنا ومنها .

١) الاشارات الإلهية وقد حققه الدكتور عبدالرحمن بنوى . وقد اطلعت عليه ، وسبق التعقيب على المقدمة التى وضعها المحقق .

٢) الهوامل والشوامل^(١) : وقد طبعت بتحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، ولنا لقاء مع هذا المؤلف فى الجزء التالى إن شاء الله .

٣) مثالب الوزيرين : وقد أورده ياقوت الحموى فى الجزئين الرابع عشر والخامس عشر من كتابه معجم الأدباء الذى حققه الدكتور أحمد فؤاد رفاعى ولنا معه أيضا لقاء فى الجزء التالى إن شاء الله .

٤) الصداقة والصديق . وقد أورده كاملاً ياقوت الحموى فى كتابه معجم الأدباء فى الجزئين المذكورين ، وقد اطلعت على ماكتبه الحموى وما نقله عنه الدكتور أحمد

محمد الحوفى .

(١) لم يذكر هذا الكتاب ضمن المؤلفات التى أوردها ياقوت الحموى مسبوقة إلى أبى حيان التوحيدى .

هذه الكتب الأربعة مضافا إليها كتاب «الإمتاع والمؤانسة» وهو أهمها جميعاً وفيه خلاصة فكر أبي حيان وقد حققه الأستاذان د. أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، أقول :
هذه الكتب الخمسة هي أهم مصادر هذا الكتاب عن أبي حيان التوحيدي ، وهناك مؤلفات أخرى له نقلها إلينا ياقوت الحموي في مؤلفه المشهور (معجم الأدباء) وهي كافية لإثبات جدارة أبي حيان التوحيدي بالبحث والدراسة . ولا يغض من شأن هذا المؤلف شيء إذا كنت لم أعتمد في تأليفه على مراجع سواها .



- ٤ -

أبو حيان التوحيدي نماذج من مؤلفاته

تمهيد :

- الهوامل والشوامل
- الإمتاع والمؤانسة
- عتالب الوزيرين.
- خصائصه الفكرية والفنية
- وموازنته بكتاب عصره .

أبو حيان التوحيدى نماذج من مؤلفاته

تمهيد :

تحدثنا فى الأجزاء السابقة من هذا الكتاب عن عصر أبى حيان السياسى والعلمى والأدبى - كما تحدثنا عن معالم حياته وأخلاقه وثقافته - وصلاته بوزراء عصره وأسلوبه الفلسفى الفريد الذى جعله فيلسوف الأدياء وأديب الفلاسفة ، وريادته للتحليل النفسى للإنسان ، ثم تحدثنا عن الذين طعنوا فى عقيدته ورموه بالزندقة وعن الذين برأوه من هذه التهمة ، وتحدثنا أيضا عن اتهامه بالوضع مع أنه كان أميناً فى النقل متحرراً الصدق فى الرواية ، ثم تعرضنا لمن ادعى بأنه أديب وجودى عاش فى القرن الرابع الهجرى فرددنا عليه - بتوفيق الله - رداً مقنعاً ، وأخيراً - ذكرنا حادثة إحراقه لكتبه فى أواخر حياته وما بدا لنا من ملاحظات عن هذه الواقعة .

وقد أن لنا أن نتحدث بإيجاز عن بعض مؤلفات التوحيدى - مستعينين بالله تعالى - فنقول . إن مؤلفات التوحيدى - على ما فيها من عظم ، وضمان - لم يبق الدهر منها إلا الأقل ، ولكن ما أبقاها فيه الإفادة والكفاية ، ولو لم يبق من مؤلفاته إلا الإمتاع والمؤانسة لكفى ، وإننى إن كنت فى تعرضى لهذه المؤلفات لم أت بجديد عما قاله من سبقنى من الأساتذة الأجلاء فإنما أعرض بخضها مردداً بعض ما قالوه للذكرى لأن " الذكرى تنفع المؤمنين " .

قال الدكتور الحوفى «عرضت لمؤلفاته^(١) كلها ، وحملت ما سلم من عوادم الدهر ، وذكرت من كل كتاب نماذج ، ثم درست فى تفصيل خصائصه الفكرية والفنية ، ورأيت أن الخصائص لا تتكشف على حقيقتها إلا بالموازنة المنصفة بينه وبين كتاب عصره . وإذا كان أبو حيان كلفاً بالجاحظ ، وتردد فى القديم وفى الحديث أنه خليفة الجاحظ ، كان لابد من الموازنة بينهما .

وفى نهاية الدراسة خاتمة سجلت فيها ما هدتنى إليه الدراسة من جديد . هذا ما ذكره الدكتور الحوفى فيما يتعلق بتحليله لمؤلفات التوحيدى التى أبقى عليها الدهر فيما أبقى ، لكننا لا نستطيع أن نقوم بهذه المهمة التى قلم بها وتصدى لها ،

(١) مقدمة كتاب أبى حيان التوحيدى للدكتور الحوفى .

ولذا فإننا نردد الحكمة الماثورة أو المثل القائل " رحم الله امرئاً عرف قدر نفسه ،
ونعد القارئ الكريم بالقيام بعرض ما أمكن عرضه من مؤلفات التوحيدى وهى .
الهوامل والشوامل ، ثم الإمتاع والمؤانسة ثم مثالب الوزيرين .

وفي نهاية الكتاب نتحدث عن خصائصه الفكرية والفنية ونعرض موازنة بينه وبين
كتاب عصره ، وخير عبارة نقولها فى هذا الصدد هى كلمات العماد الأصبهاني « لا
يكتب إنسان كتاباً فى يومه ، إلا قال فى غده . لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد كذا
لكان يستحسن ، ولو ترك هذا لكان أفضل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل على
استيلاء النقص على جملة البشر .

أو عبارة الدكتور الحوفى " ولست أزعم أننى - فيما خالفت فيه^(١) - صاحب الرأى
الصائب ، لأن من المجازفة أن يدعى باحث لنفسه كل الصواب ، فإن الدراسات تكشف
كل يوم عن جديد ، وتميط الستار عن حقائق كانت مجهولة بالأمس " .

مؤلفات أبي حيّان التوحيدى التي أوردتها صاحب معجم الأدباء :

ذكر ياقوت فى معجمه المؤلفات التالية للتوحيدى .

١- الهفوات لابن الصابى

٢- الصديق والصدّاقة (الصداقة والصديق)

٣- الاشارات الإلهية (جزآن)

٤- الإمتاع والمؤانسة (ثلاثة أجزاء)

٥- المقابسة (المقابسات)

٦- الزلفة .

٧- الرد على ابن جني فى شعر المتنبى

٨- رياض العارفين .

٩- تقرّيط الجاحظ .

١٠- ذم الوزيرين (مثالب الوزيرين)

١١ الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى.

(١) المرجع السابق ص ٥ .

- ١٢ - الرسالة البغدادية
- ١٣ - الرسالة فى أخبار الصوفية
- ١٤ - الرسالة فى الصوفية أيضا .
- ١٥ - الرسالة فى الحنين إلى الأوطان
- ١٦ - البصائر . (عشر مجلدات) أو البصائر والذخائر .
- ١٧ - المحاضرات والمناظرات .
- ولم يذكر ياقوت هذه الكتب :
- ١٨ - الهوامل والشوامل
- ١٩ - ثمرات العلوم
- ٢٠ - الحجيج ^(١)
- ٢١ - رسالة فى العلوم ^(٢)
- وأغلب الظن أن كتاب الحجيج هو كتاب الحج العقلى
- ٢٢ - رسالة لأبى بكر الطالقانى ^(٣)
- ٢٣ - رسالة الحياة ^(٤) .

* * *

(١) المرجع السابق ج/٢ ص ٨ عن امراء البيان لمحمد كرد على .
(٢) المرجع السابق ص ٨ عن الصداقة والصديق لأبى حيان .
(٣) المرجع السابق ص ٨ ذكرها بروكلمان وقال إنها مخطوط فى لندنبرج .
(٤) المرجع السابق ص ٨ ذكرها بروكلمان وقال إن منها مخطوطا فى مكتبة تشييد على .

• الهوامل والشوامل :

سبق الإشارة إلى هذا الكتاب واقتباس نماذج منه تتعلق بسلوك الإنسان الخُلُقِي (السيكولوجي) والنفسى (الفسولوجي) ، وذلك عند الحديث عن موضوع تحليل أبى حيان للسلوك البشرى والنزوع النفسى . حيث عرضنا بعض أسئلة فى هذا الموضوع والتي وجَّهها إلى أستاذه أبى على أحمد بن يعقوب بن مسكويه (والذى يسميه أبو حيان مسكويه فقط) . وقد ردَّ عليه ذلك الفيلسوف ردًّا حكيمًا مقنعًا .

وكتاب (الهوامل والشوامل) أثر فريدٌ فى التراث العربى لهذين العلمين الجليلين ، تعرَّضت فيه تساؤلات التوحيدى وأجوبة مسكويه لكافة مظاهر الحياة . وهموم الإنسان وتساؤله عن الماضى التليد والمستقبل الرهيب ، وعن أمور غريبة فى سلوك الناس .

تفسير الهوامل والشوامل :

وقد فسرَّ الأستاذان ^(١) محققًا هذا الكتاب (أحمد أمين والسيد أحمد صقر) الهوامل : بأنها الإبل المسيبة لا راعى لها ، وقالوا . جعل أبو حيان مسائله التى سأل عنها كأنها إبل سائمة لاضابط لها . وجعل مسكويه من إجابته عنها رعاة حفظة يرعونها ويضبطون أمرها ثم يرجعونها .

وبجانب هذا التأويل أجاز الدكتور الحوفى تأويلا آخر قائلا

أ- من الجائز ^(٢) أن أبا حيان أراد بها أسئلته المنطلقة الحرة التى تنتجع من يشبعها ، فهى كالإبل المسيبة ، ومن الجائز أن تكون جمعا (للهاملة) من هملت السماء أى دام مطرها فى سكون ، المراد إذن الأسئلة المنطلقة المتوالية الموجهة إلى ابن مسكويه كأنها المطر النازل المدرار .

ب - أما الشوامل فهى جمع لكلمة شامل أو شاملة من شملهم الأمر إذا عمَّهم ، والمراد إذن الأجوبة الشاملة المحيطة لما فى نفس السائل .

من الذى اختار اسم هذا الكتاب وما طريقته :

هل اسم الهوامل والشوامل من اختيار أبى حيان التوحيدى؟

أم الذى سماه هو ابن مسكويه ؟ المرجح ^(٣) أن الذى سماه هذا الاسم هو أبو حيان التوحيدى ، فهو الذى اختار اسم هذا الكتاب ، لأنه كان يبعث بالسؤال

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى ح/٢ ص ٢٠

(٢) المرجع السابق ص ٢٠

(٣) المرجع السابق ص ٢١ .

تَلُو السُّؤال إلى ابن مسكويه ، ويأتيه الردُّ فيضعه لفقِّ السُّؤال المتعلِّق به ، أى يتولى تدوين الأسئلة والأجوبة بخطِّه ، ولذا فمن المنطقيُّ أن يكون هو الذى اختار اسم الهوامل والشوامل .

وطريقة الكتاب - كما ذكرنا آنفاً - أسئلة موجهة من أبى حيان إلى مسكويه - وأجوبة من الأخير على السائل ، وقد كان السائل عظيم الثقة بالمستول ، مؤمناً بعلمه ، وإن جرَّحه أحياناً ، قال ردّاً على سؤال ابن سعدان .

«وأما مسكويه ، فقير^(١) بين أغنياء ، وعيى بين أبنياء (فُصحاء) لأنه شاذُّ ، وأنا أعطيته فى هذه الأيام (صفو الشرح لا يساغوجى وقاطيغورياس) من تصنيف صديقنا بالرئى . قال : ومن هو ؟ قلت : أبو القاسم الكاتب غلام أبو الحسن العامرى ، وصحَّحه معى وهو الآن لائذ بالخمار » .

وقال عنه أيضاً « وأما مسكويه^(٢) فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشى ، سهل المأخذ ، قليل السكب ، بطيئ السبك ، مشهور المعاني ، كثير التواني ، شديد التوقى ، ضعيف الترقى ، يردُّ أكثر مما يصدر ويتناول جهده ثم يقصر » .

على أنه كان من الحنكة لو أنه اعتذر عن هذا القول الذى يجرح أستاذه مسكويه ، وهو ذو فضل عليه ، ومن هو مسكويه ؟

هو أبو على أحمد بن يعقوب^(٣) بن مسكويه (كما عرفه الدكتور الحوفي) أو هو أبو على أحمد بن محمد مسكويه الخازن (كما عرفه أحمد أمين وأحمد الزين)^(٤) كان عارفاً بالفلسفة ، ألف كتاب تهذيب الأخلاق وتجارب الأمم ، وكان قيماً على خزانة كتب ابن العميد ثم قيماً على خزانة كتب عضد الدولة ثم اختص ببهاء الدولة البويهى ، وعظم عنده شأنه ومات سنة ٤٢١ هـ .

ونصل ما انقطع من الحديث عن ثقة أبى حيان فى أستاذه مسكويه فنقول : سأل أبا حيان سائلاً : هل تخرج الشريعة على مقتضى العقل ، وتردُّ بما يباه : ويخالفها فيه ، ويكرهه ولا يجيزه ؟ كذبح الحيوانات وإيجاب الدية على العاقلة ؟

فأجابه أبو حيان إجابة وافية ، ثم أراه من صواب جوابه ، فسأل مسكويه وقال له " وقد جهزت المسألة إليك ، أنت سحر لغريب العلم ومكنون الحكمة ،

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان ج/١ ص ٣٥

(٢) الإمتاع والمؤانسة ج/١ ص ١٣٥

(٣) أبو حيان التوحيدى / للدكتور أحمد محمد الحوفي ج/٢ ص ٢١

(٤) الإمتاع والمؤانسة ص ٢٢ .

فإن تفضلتَ بالجواب وإلا عرضتُ عليك ما قلتُ للسائل ، ورويتُ ما دار بيني وبين
المجادل ، فإن كان سديداً عرفتني ، وإن كان ضعيفاً نصحتني فيه ، فالعلم بعيدُ
الساحل ، عميق الغور ، شديد الموج .. " .

فأنظر أيها القارئ الكريم إلى أخلاق العلماء وتواضعهم فيما بينهم وهكذا كان
علماء ذلك العصر : عصر النور في القرن الرابع الهجري ، لا نجد فيهم من تأخذه
العزة بالإثم ، أو يتعالم دون فهم ، اعتداداً برأى أستاذه واحتراماً له ، أو اقتناعاً به ،
فهو لم يحذف من كلامه ما فيه مساس به هو أو بذاكرته أو بسؤاله عن أشياء ليس لها
غناء ، ويؤيد ذلك أن أسلوب مسكويه الذي أثبتته أبو حيان جواباً على أسئلته في
الهوامل والشوامل هو ذات أسلوبه في كتابه (تهذيب الأخلاق) . ولا تشابه بين
أسلوب أبي حيان وأسلوب مسكويه.

موضوعات كتاب الهوامل والشوامل :

والكتاب من الأسئلة والإجابات عليها بستان حافل بصنوف المعرفة المتنوعة لا جامع
لها ولا ضابط . ولهذا عُنُونُ أبو حيان لبعضها وترك الآخر بلا عنوان .

١- ففيه مسائل إرادية كقوله " لِمَ سَمِعَ مدحُ الإنسان ^(١) لنفسه وحسن مدحه
لغيره " ؟

٢- وفيه مسائل اختيارية . وهي مثل الإرادية أي الأمور التي في طاقة الإنسان
أن يفعلها أو يتركها ، مثل قوله " لِمَ قُبِحَ الثناء في الوجه ^(٢) حتى تواطأوا على
تزييفه ؟

٣- وفيه مسائل نفسانية كقوله " ما علّة حضور المذكور عند (انقطاع) ^(٣) ذكره
وهو لا يتوقع فيه " ؟

٤- ومسائل في مبادئ العادات ، كقوله : " ما مبدأ العادات المختلفة ^(٤) من هذه
الأمم المتباعدة ؟ وما هذا الباعث الذي رتب كل قوم في الزى وفي الحلية وفي
العبارة والحركة على حدود لا يتعدونها " ؟

(١) الهوامل والشوامل ص ١١٧ .

(٢) الهوامل والشوامل ص ٤٥ .

(٣) الهوامل والشوامل ص ٩٢ .

(٤) الهوامل والشوامل ص ١٢١ .

- ٥- ومسائل طبيعية كقوله ما سبب من يدعى العلم وهو يعلم أنه لا علم (١) عنده؟
- ٦- ومسائل خلقية . كقوله لم خُصَّ اللئيم بالحلم وخص (٢) الجواد بالحدة ؟
- ٧- ومسائل طبيعية وخلقية معا . كقوله . ما سبب الصَّيِّت (٣) ليعضهم بعد موته وأنه يعيش خاملا ، ويشتهر ميتا ؟
- ٨- ومسائل طبيعية واختيارية معا . كقوله . لم قال الناس (٤) لا خير فى الشركة ؟
- ٩- ومسائل لغوية : فقد كان أول سؤال وجهه إلى مسكويه (٥) هو التفرقة بين كلمات لغوية كالعجلة والسرعة والهزل والمزح والتكلم والنطق والسرور والحبور .
- ١٠- ومسائل طبية . كقوله . لم صار الصرع من بين الأمراض صعب العلاج (٦) ؟ .

ملاحظات الدكتور الحوفى على أسئلة أبى حيان :

لاحظ الدكتور الحوفى على أسئلة أبى حيان التوحيدى (٧) الموجهة لأستاذه مسكويه عدة ملاحظات منها :

أولا . بعضها ساقها فى جملة قصيرة :مثل :

ما سر النفس الشريفة فى إثثار النظافة ؟

ما الفراسة وماذا يراد بها ؟

ما ملتصق النفس فى هذا العالم ؟

ثانيا . وبعضها مبسوط مفصل ، لأن أبا حيان شقق من السؤال موضوعات ومسائل كقوله فى المسألة رقم (٤٩) :

ما السبب فى تصافى شخصين لا تشابه بينهما فى الصورة ، ولا تشاكل عندهما فى الخلقة ولا تجاور بينهما فى الدار ، كواحد من فرغانة وآخر من تاهرت ، هذا طويل قويوم وهذا قصير دميم ، وهذا أجود من السحاب إذا سحَّ بوقٍ، وهذا أبخل من كلب على عِرْقٍ إذا ظفر بعقر .

(١) الهوامل والشوامل ص ٤٣ .

(٢) الهوامل والشوامل ص ٥٠ .

(٣) الهوامل والشوامل ص ٦٩ .

(٤) الهوامل والشوامل ص ٦٤ .

(٥) الهوامل والشوامل ص ٥ .

(٦) الهوامل والشوامل ص ١١٢ .

(٧) الدكتور أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى ح/٢ ص ٢٢ - ٢٨ .

ثالثاً : وأحياناً يفرّغ من السؤال عدة أسئلة :، أو يؤكّد من الفكر أفكاراً ، فهو يتعمّق في سؤاله تعمّق من يبتغي الوقوف على العلة الأولى :

وقد شَعر ابنُ مسكويه بذلك فطالبه بالرفق ، واعتذر بأنه لا يدعى العلم بكل ما يريد . الإجابة عليه ، يتضح ذلك من سؤاله الآتى :

لِمَ تُوَاصِي الناسَ في جميع اللغات والنحل ، وسائر العادات والمأل (١) ، بالزهد في الدنيا ، والتقلّل منها ، والرضا بما زجا به الوقت (يسره) وتيسر مع الحال ؟

هذا مع شدة الحرص والطلب ، وإفراط الشدة (٢) والكّب ، وركوب البر والبحر بسبب ربح قليل ونائل نزر ، حتى أنك لا تجد عليّ أقيمها الا متلفتاً إلى قاشئها تحريثاً ، أو هائماً علي حاضرها مفتوناً ، أو متمنيا لها بغي المستقبل معنى ، وحتى لو تصفحت الناس لم تجد الا متحسراً عليها ، أو متحيراً قهياً ، أو مسكراً منها ، وأشرفهم عقلاً أعظمهم حُبلاً ، وأشدّهم فيها إزهاداً (حثّاً على الزهد) أشدّهم بها انعقاداً ، وأكثرهم في بغضها دعوى ، أكثرهم في حبها بلوى .

وهات السبب في ذلك والعلة ؟

وعلى ذكر السبب والعلة ، فما السبب والعلة هما ؟ الواصل بينهما ؟ إن كان واصل ؟ وهل ينوب أحدهما عن الآخر ؟

وإن كانت هناك نيابة أهيّ في كل مكان وزمان ؟ أو في مكان دون مكانيّ ؟ وزمان دون زمان ؟

وعلى ذكر المكان والزمان ، ما الزمان وما المكان ؟ وما وجه التباس أحدهما بالآخر ؟ وهل الوقت والزمان واحد ؟ والدمر الحين واحد ؟

وإن كان كذا فكيف يكون شيئان شيئاً ، وإن جاز أن يكون شيئان شيئاً واحداً فهل يجوز أن يكون شيئ واحد شيئين اثنين ؟ هنا - أيدك الله - مما ينشعب الريق ، ويضرع الخد ، ويجيش النفس ، ويفضح المدعى ، ويبعث على الاعتراف بالتقصير والعجز ، ويدل علي توحيد من هو محيط بهذه السرائر والدقائق ويبين أن العلم بحر ، وفأنت الناس أكثر من مدرّكه ومجهوله أضعاف معظّمه ، وظنه أكثر من يقينه "

فأجابه مسكويه وصدر أجابته بقوله :

(١) المرجع السابق من ص ٢٥ - ٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥ - ٢٧ .

هذه المسألة موشَّحة بعدة مسائل طبيعية^(١) ، وقد جعلتها مسألة واحدة ، ولعل التي صيرتها أذناها هي أشبه بأن تكون رعو سا .

وقد عرض لك فيها عارض من العُجب ، وسانح من التَّيَّه ، فخطرت خطران الفحل ومشيت العريضة (أن يعترض غيره في السير) فلو تركت هذا الغرض للمتكم على مسائلك .

ارفق بنا أبا حيان - رفق الله بك - وارخ من خناقنا ، وأسغن ريقنا ، ودعنا وما نعرفه في أنفسنا من النقص ، فإنه عظيم ، وما بلينا به من الشكوك فإنه كثير ولا تبتكنا بجهل ما علمناه وقوت ما أدركناه ..

أما طريقة مسكويه في الإجابة . فإنها في الأعم الأغلب مفصلة ، وفي قليل منها إيجاز وإيماء ، أو إحالة على معلوم ، أو على جواب سابق^(٢) ، وربما يرفض الإجابة كقوله : ذكرت - أيدك الله - مسائل لا تستحق الجواب من آراء العامة ، وجهالات وقعت لهم ، مثل قولهم إذا دخل الذباب في ثياب أحدهم يمرض ، وقولهم .دية نملة تمررة ... وهذه المسائل وأشباهاها ، ينبغي أن يهزأ بها ويتملح بإيرادها على طريق النادرة ، فأما أن تطلب لها أجوبة ، فما أظن عاقلا يعترف بها ، فكيف نجيب عنها ؟ والله يغفر لك ويصلحك .

أمثلة من الهوامل والشوامل :

اتصال النفس بالبدن :

متى تتصل النفس بالبدن ؟ ومتى توجد فيه^(٣) ؟ أفي حال ما يكون جنينا أم قبلها أم بعدها ؟

قال أبو على مسكويه - رحمه الله

إن اتصال النفس بالبدن ، ووجودها فيه ألفاظ متسع فيها ، والأولى أن يقال : ظهور أثر النفس في البدن ، على قدر استعداد البدن وقبوله إيَّاه ، إنما تحرزنا من تلك الألفاظ لأنها توهم أن لها اتصالاً عرضياً وجسماً ، كلاً هذين غير مطلق على النفس . والأشبه إذا عبرنا عن هذا المعنى أن نقول .

(١) المرجع السابق ص ٢٢ - ٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٣) الهوامل والشوامل ص ٣٥٠

إن النفس جوهر بسيط إذا حضر مزاج مستعد لأن يقبل له أثرا ، كان ظهور ذلك الأثر على حسب ذلك الاستعداد ، لنسلم بهذه العبارة من ظن من زعم أن النفس تتقلب، وتعمل أفعالها على سبيل القصد والاختيار ، أعني أنها تفعل في حال ، وتمنع في أخرى فإن هذا يجلب كثيرا من الشكوك التي لا تليق بخصائص النفس وأفعالها وإذا قد تحققت هذه العبارة ، فنقول إن النطفة التي يكون منها الجنين إذا حصلت في الرحم الموافق ، كان أول ما يظهر فيه من أثر الطبيعة ما يظهر مثله في الأشياء المعدنية ، أعني أن الحرارة - اللطيفة تنضجه وتمخضه وتعطيه - إذا امتزج بالماء الذي يوافق من شهوة الانثى - صورتمركبة كما يكون ذلك في اللبن إذا مِزج بالأنفحة.

إخفاء العمر الحقيقي

لم صار بعض الناس إذا سئل عن عمره نقص في الخبر ، وآخر يزيد على عمره في الخبر؟

قال أبو على مسكويه - رحمه الله

غرض الرجلين جميعا (أعني من ينقص ^(١) ومن يزيد في العمر) غرض واحد ، وإن اختلفا في الخبر . وربما فعل الرجل الواحد ذلك بحسب زمانين مختلفين ، أو بحسب حالين في زمان واحد وهو من رذائل الأخلاق ، لأنه يوهم بالكذب فضيلة لنفسه ليست فيها ، وسبب هذا الفعل هو محبة النفس ، وذاك أن الإنسان يحب أن يُعتقد فيه من الفضل أكثر مما هو (معروف) ، ويحب أن يُعذر في نقص إن وجد فيه .

وهو إذا كان حدثاً ، وظهرت منه فضيلة أو نقيصة نقص من زمان عمره ، ليعلم غيره أن الفضيلة حصلت له في زمان قصير ، وأن ذلك لم يكن ليتم له إلا بعناية كثيرة، وحرص شديد ، ونفس كريمة ، وانصراف عن الشهوات وإن كانت منه نقيصة عذر في فعله لقلّة الحنكة والدربة ، وانتظر فلاحه ، ورجى تلافيه وإنابته .

وأیضا فإن المكتهل وذا السن الكثير التجربة ممن صحب الزمان ولقى الرجال ، وتصرف في العلوم .. مهيب في النفوس جليل في الصدور .. فإذا بلغ الإنسان من السن ما يحتمل أن يدعى فيه هذه الدعوى ، أو يشبه نفسه بأصحاب هذه المراتب زاد في عمره لتسلم له هذه المرتبة فتعتقد فيه .

فكل واحد من الرجلين أو الرجل الواحد في الزمانين أو الحالتين غايته في الكذب بما ينقص أو يزيد من عمره هي التمويه بالفضل وإدعاء رتبة ليست له .

وهذا شر ظاهر ، فمتمغاطيه شرير ، وأفاضل الناس لايعتريهم هذا الشر ، لأنهم لايتدنسون بالكذب ، ولا يتكثرون بالباطل .

(١) المرجع السابق ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) الهوامل والشواغل ص ٧٨ .

الولع بالتبذير :

لِمَ صار لبعض الناس (أن) يولع بالتبذير مع علمه بسوء العاقبة ؟ وآخر يولع بالتقتير مع علمه بقبح القالة فيه ؟ وما الفرق بين الرزق والمك كثير الرزق ، وكم من كثير الملك قليل الرزق ، أحمد الله عز وجل .

قال أبو على مسكويه - رحمه الله

قد تقدم فى هذه المسائل كلام فى السبب الذى يختار الناس له فعل ما تقيح عاقبته مع علمهم بذلك ، وضربنا فيه المثل بالمرضى الذى يعلم أن تناول الغذاء الضار يبطل صحته ، فإنما الغذاء إنما احتيج إليه للصحة ، فيختار للشهوة الحاضرة أخذ الغذاء الضار بسوء مسلكه وضبطه لنفسه ، وانقياده للنفس البهيمية ، وعصيانته للنفس الناطقة ، ولا وجه لإعادته .

وكذلك قد بينا مائئة الرزق (ماهيته) ، والفرق بين الملك والرزق ، إذا قرأته ممّا تقدم : كان جواباً لهذه المسألة .

الشباب والشيخوخة *

لِمَ لم يرجع الإنسان بعد ما شاخ وخرف كهلاً ثم شاباً غيراً^(١) ، ثم غلاماً صبيّاً ، ثم طفلاً كما نشأ ؟ وعلام يدل هذا النظم ؟ وإلى أى شئ يشير هذا الحكم ؟

قال أبو على مسكويه - رحمه الله :

ليست الشيخوخة والهموم نهاية نشوء الإنسان ، ولا غاية الحركة الطبيعية أعنى النامية ، فتروم (أى أنت تحب) - أيدك الله - أن يعود الشيخ فى مسالكها إلى المبدأ الذى تحرّك منه ، بل ينبغي أن تعلم أن غاية النشوء والحركة إنما هو عند منتهى الشباب ثم حينئذ يقف ، وذلك زمان الكهل ، ثم ينحط ، وذلك زمان الشيخوخة ، وذلك أن الحرارة الغريزية التى فى الأجسام المركبة من الطبائع الأربع ما دامت فى زيادة قوتها ، فهى تنشئ الجسم الذى هى فيه - بأن تجتذب إليه الرطوبات الملائمة بدل ما يتحلل منها فتكون غذاءً له ، ثم تبقى بقية جذبها فضل القوة فاضلة عن قدر الغذاء الذى عوض من المتحلل فزادتها من مساحة الجسم ومددت بها أقطاره فلذا تناهت القوة وقفت فلم تزد فى الأقطار شيئاً ، بل غايتها حينئذ أن تحفظ ذلك الجسم أقطاره ومقداره . بأن تغذيه أعنى أن تجتذب من الرطوبات مقداراً ما يسرى فى الجسم عوضاً عما تحلل بلا زيادة تنصرف إلى التزديد والتعديد .

(١) الهوامل والشوامل .

ثم إن الحرارة تضعف قليلا ، وتأخذ في النقصان بعد أن تقف وقفة في زمان التكهل ، فيبتدىء البدن في النقص ، ويصير الإنسان إلى الانحطاط عن تلك الحركة الأولى ، فلا يزال الغذاء ^(١) ينقص عن مقدار الحاجة ، فلا يقى ما يعتاض من الرطوبة بما تحلل منها ، فهو كذلك إلى أن يهرم ، ويبلغ إلى الانحلال الذي هو مقابل التركيب ، الذي بدأ منه وهو الموت الصحيح الطبيعي .

وهذه سبيل كل حركة قهرية ، في أنها تبتدى بتزيد ثم تنتهي إلى غاية ، ثم تقف وقفة ، ثم تنحط ، لما كان مزاج الإنسان وكل مركب من الطبائع المتضادة إنما كان بجامع جمعها ، وقاهر قهرها ، حتى ألفها ، حتى مع تضادها ونفور بعضها من بعض - صارت حركته قهرية ، ومن شأن الحركة القهرية ما ذكرت من أمرها إذا لم يتبعها المقاهر ابتداء بقهر بعد قهر ، فوجب في حركة النشوء ما وجب في كل حركة من جنسها ، ولم يعد الشيخ كهلا ، ثم شابا ، ثم طفلا ، لأن الحركة لم تقع على هذا النظام ، ولا الشيخوخة هي غاية الحركة ، بل هي غاية الضعف ونظير الطفولة .



(١) الهوامل والشوامل .

الإمتاع والمؤانسة:

الإمتاع والمؤانسة أشهر كتاب لأبي حيان التوحيدى^(١)، ألفه خصيصاً لأبي عبد الله العارض - هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان - وزير صمام الدولة البويهى فيما بين سنتى ٣٧٣، ٣٧٥ هـ - ألفه بناءً على طلب مشدد من صديقه (صديق أبى حيان) أبى الوفاء المهندس. وهو كتاب فريد فى الأدب العربى، إذ جمع بين العلم والمتعة الأدبية كما حوى بين دفتيه ألوان المعرفة المختلفة فى الفلسفة والأخلاق والتاريخ والأدب - واللغة والدين والإلهيات.

وقد نهج أبو حيان فى هذا الكتاب نهجَ بديع الزمان الهمذاني فى مقاماته، شهير لاسيما وأنه معاصر له، وربما تأثر به، وإذا كانت مقلّمت البديع قد شقت طريقها فى دنيا الخيال، فإن ليالى أبى حيان كانت من وحى الواقع الأدبى والسياسى.

وقد سبق أن سردنا على القارئ الكريم كيف وصل أبو حيان عن طريق صديقه أبو الوفاء المهندس إلى بلاط ابن سعدان، وأنه طلب منه أولاً أن ينسخ له كتاب الحيوان للجاحظ كما فاتحه عن رسالة حدثه بها زيد بن رقاعة حيث بينه وبين زيد هذا فى عام ٣٧١ هـ أى قبل أن يتولى ابن سعدان الوزارة يستتين، وهى رسالة فى الصداقة والصديق، وطلب منه الوزير أن يتمها، وقد أنستهما الأيام ذلك المؤلف، ولم يكمله أبو حيان إلا فى عام أربعمائة هجرى (بعد مضى وقت ليس بالقصير على وفاة ابن سعدان).

أما مؤلفه "الإمتاع والمؤانسة" فإنه قد حرره عقب الانتهاء من منحه مع الوزير ابن سعدان، ووافى صديقه أبا الوفاء تبعاً بما دار بينه وبين الوزير طيلة سبع وثلاثين ليلة سامره فيها - وكان ذلك كما أسلفنا القول بناءً على طلب ذلك الصديق - فقد أبان له أبو الوفاء أنه كان صاحب الفضل عليه فى وصوله إلى مجلس الوزير، ولذا ألزمه أن يبايعه كتابة بكل عبارة قالها فى حضرة الوزير خلال تلك المدة.

وأكد عليه بأن يتحرى الدقة فى كتاباته بدون حذف أو إضافة، وكتبه بـ "قد غسلت يدي من عهدك بالأشنان البارقي"^(٢) (مادة لغسل الأيدي والثياب) وسلّوت من قربك بقلب معرض وعزم حى، إلا أن تطلعتنى طلع جميع ما تحاورتما وتجاذبتما هذب الحديث عليه، وتصرفتما فى هزله وجده، وخيره وشره، وطيبه وخبيثه، وباده

(١) مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ص (و).

(٢) الإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى، ص ٦، ٧.

ومكتومه ، حتي ، أننى كنت شاهدا معكما^(١) ، رقيباً عليكما ، أو متوسطا بينكما ، ومتى لم تفعل هذا ، فانتظر عقبي استيحاشى منك " .

فما كان من أبى حيان إلا أن يلبى هذا الأمر تلبية العبد المطيع لسيدته الأمر ، مع أنه كان شديد الخوف على نفسه من عقبي الأمور التي طرقتها ابن سعدان والتي قد تُسبب له إزعاجا شديدا ، إذا ما اطلع عليها من تكلم عنهم فى غيبتهم . فيقول :

"قأول ما أبذوك به أننى ظننت ظنا لا كيقين^(٢) ، أن شيئاً مما كنت فيه مع الوزير - أدام الله أيامه ، وقصم أعداءه - ليس مما يهكم ، ولا هو ما يقرع سمعك سماعك له ، وحسبت . " أيضا أننى إن بدأت بشئ منه رذلتنى عليه ، وتنقّصتنى به ، وزريت عليّ فيه ، وأنتك ربما قلت . لم بدأت بما لم أسألك عنه ، ولم أرخص لك فيه ، هالأ كظمت على جرتك (ما يجتره البعير) وطويت بين جيبك ، وما على مما يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء ، الناظرين فى أمور الدماء ، والمتصفّحين لأحوال العامة والخاصة ، لهم أسرار وغيوب ، لا يقف عليهما أقرب الناس إليهم ، وأعز الناس عليهم ، وأنت أيضا فلم تسألنى عنه ، فكان فى تقديرى أنك قد عرفت وُصولى فى وقت دون وقت ، وأنتك قد حصلت أمرى على الخدمة التي ليس للعلم بها فائدة ، ولا فى الإعراض عنها فائتة .

وإذا جرى الأمر على غير ما كان فى حسابى ، وتلبّس بظني ، فإنى أهدى ذلك كله بغثائته وسمانته ، وحلاوته ومرارته ، ورقته وخثارته ، فى هذا المكان ، ثم أنت أبصر بعد ذلك فى كتمانته وإفشاءه ، وحفظه وإضاعته وستره وإشاعته ، والله ما أرى ذلك صعبا إذا وصل إلى مرادك ، ولا كلفة شاقة إذا أكتسبتنى مرضاتك .

وأما عن مجلس ابن سعدان الوزير ، فقد كان مجلسا يجمع بين الفقيه والمنطقى ، والطبيب واللغوى ، والشاعر والناثر ، والعالم بأمور الدنيا ، والعالم بأمور الدين ، والمسلم والنصرانى ، واليهودى والمجوسى ، فمنهم الفيلسوف ابن مسكويه صاحب (تهذيب الاخلاق) و(تجارب الأمم) وأبو سعد بهرام بن أردشير ، وابن زرعة الفيلسوف النصرانى ، وأبو الخير الحسن بن سوار النصرانى المعروف بابن الخمار ، وأبو بكر الفومسى الفيلسوف ، وابن السمع المنطقى ، ويحيى بن عدى النصرانى ، وابن حجاج الشاعر الماجن ، والكاتب أبو عبيد الخطيب ، وابن شاهويه ، وزيد بن رقاعة .

(١) ابو حيان التوحيدي - الإمتاع والمؤانسة ج/١ ص ٦ ، ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢

وكان يباهي بجلسائه ، وبما يدور فى جلساته ^(١) من علم وأدب ، لم ترق إليهما مجالس الوزراء والأمراء المعاصرين له والسابقين له مثل : ابن العميد والصاحب بن عباد والوزير المهلبى ، ومن ذلك قوله فى وصف جلسائه " والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، إنهم لأعيان أهل الفضل ، والسادة ذوو العقل ، إذا خلا العراق منهم رقت على الحكمة الروية والأدب المتهادى (أى ان الحكمة بعد هؤلاء تصير مبهمة إلى حاجة من يجلوها) .

أتظن أن جمع ندماء المهلبى يفوق بواحد من هؤلاء ؟ أو تُقدَّر أن جميع أصحاب ابن العميد يشبهون أقل من فيهم ؟ فقال له أبو حيان : هذا ابن عباد بالرى ، وهو ما يعرف ويسمى ، فقال له ابن سعدان : ويحك وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدال الذى يشغبون ويحمقون ويتصايحون ؟ وهو فيما بينهم يصيح ويقول : قال شيخنا أبو على وأبو هاشم " .

طريقة كتاب الإمتاع والمؤانسة:

كان ابن سعدان يسأل أبا حيان ، فيجيبه إجابة ^(٢) وافية شافية ، وأحيانا كان الوزير يتخذ من الجواب موضوعات لأسئلة أخرى يفرعها " فقد يسأله سؤالاً يأتى أثناء إجابته ذكر " لابن عباد أو ابن العميد أو أبى سليمان المنطقى ، فيسأله الوزير عنهم ، وعن رأيه فيهم ، وهكذا يستطرد من باب لباب " وأحيانا يطرح عليه السؤال ويمهله إلى الغد لإعداد الرد ثم يُعده له شفاهة أو كتابة ، وقد يسمع منه بعض الجواب ويرجئ باقيه إلى أن يكتبه له ويقدمه مكتوباً .

وكثيرا ما كان يعجب من سرعة بديهة أبى حيانى ، وكثرة حفظه ، وقدرته الفائقة على الإجابة السديدة ، وفى نهاية المسامرة يطلب منه ملحّة الوداع عندما يُحس بثقل رأسه وحاجته إلى النوم .

والكتاب - كما وصفه القفطى - ممتع على الحقيقة ^(٣) لمن له مشاركة فى فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر وغاص كل لجة ، وما أحسن ما رأيت على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتداء أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدثاً وختمه سائلاً ملحفاً ..

(١) الإمتاع والمؤانسة لاسى حيان التوحيدى ، المقدمة ، ص - ط

(٢) مقدمة الإمتاع والمؤانسة ص (م ، ز)

(٣) المرجع السابق ص (م)

ملحة الوداع فى إحدى ليالى أبى حيان :

كان من عادة الوزير ابن سعدان اذا طال الليل ودنا من الفجر أن يطلب من أبى حيان ملحة الوداع ، لإنهاء حديث الليلة على أمل اللقاء به فى الليلة القابلة ، وعادةً ما تكون ملحة الوداع نادرة لطيفة ، أو أبياتاً رقيقة " وأحياناً ^(١) يقترح الوزير أن تكون ملحة الوداع شعراً بدوياً يشمُّ منه ريح الشيخ والقيصوم .

ففى نهاية الليلة الثانية يقول

" قال . هذا فى الحُسْنِ نهاية ، وقد اكتهل الليل ^(٢) ، وهذا ما يحتاج إلى بدء زمان ، وتفريغ قلب ، وإصغاء جديد ، هات خاتمة المجلس .

قلت له قرأنا يوم الجمعة على أبى عبيد المرزبانى لعبد الله بن مصعب

إذا استمتعتُ منك بلحظٍ طرفي	حيي نصفي وماتَ عليك نصفي
تلذذُ مقلتي وينوبُ جسمي	وعيشي منك مقروُنٌ بحتفي
فلو أبصرتني والليل داج ..	وخدي قد توسطَ بطنَ كفي
ودمعي يستهلُّ من المأقي	إذاً لرأيتَ ما بى فوقَ وصفي

وانصرفُ .

رؤوس موضوعات بعض ليالى الكتاب :

قسَمَ أبو حيان كتابه إلى أربعين ليلة ^(٣) فى ثلاثة أجزاء فكان يدوّن تبعاً ما دار الحديث فيه الليلة السابقة ، فيما بينه وبين الوزير على طريقة (قال لى ، وسألنى وقلت له ، وأجبتُه) . وكان الذى يقترح الموضوع غالباً هو الوزير ، وأبو حيان يجيب عما اقترح وربما بدأ المجلس بتساؤل الوزير عن موضوع عابر ، ثم يدلف منه إلى موضوع هامّ ثم إلى موضوع أهم ، والذى يجعله يستطرد من موضوع إلى آخر هو فضوله وحبه للمعرفة والتزوّد من علم أبى حيان ، حينما يجيبه عن السؤال الأول ، ويسمع فى إجابته ما يثير اهتمامه ، فيسأله مرة أخرى عن شئٍ ورَدَ فى إجابته الأولى ، وكذلك فى الإجابة الثانية وهكذا .

(١) المرجع السابق ص (ن)

(٢) المرجع السابق ص ٤١ .

(٣) تمت مساعرة أبى حيان للوزير فى سبع وثلاثين ليلة ودوّنّت فى أربعين ليلة

وحيث أنَّ المسامرة لا تدور حول موضوع واحد فحسب كل ليلة ، بل إنَّها موضوعات متفرعة ومتشعبة في أكثر من فن ، لهذا فمن الصعب وضع عنوان ، لموضوع معيَّن في كلِّ ليلة ، وحسبنا في هذه العجالة أن نضع أمثلة للموضوعات التي دار النقاش في بعض الليالي بشأنها أي إعطاء فكرة موجزة عن موضوع واحد من الموضوعات التي نوقشت في بعض هذه الليالي :

● الليلة الأولى :

وهي أول ليلة أخبر فيها شيخه (أبا الوفاء المهندس) ^(١) بوصوله إلى مجلس الوزير فقابله بمقابلة حسنة ، وكان أول شيء ، سأله ، عنه ، أنه في عجب إقامته بأمر البيمارستان كما أخبره بذلك أبو الوفاء ، وعرض عليه شيئاً أنبأه له من ذلك ، هو حضوره المحادثة معه ، والتعرُّف على أشياء كثيرة تمرُّ بخلدته دائماً ، ووعدته بأن يطرحها عليه في كل مجلس ، وقدمَّ له نصائح كثيرة حتَّى ينجح في هذا الأمر ، فأجابه أبو حيان شاعراً بامتنان الوزير عليه - بل أجابه بالامتثال لكلِّ ما نصحه به طالبا منه ان ياتن له في كافِ الخطابة ، وتاء المواجهة (أي رفع الكلفة فيما بينهما) فأتن له الوزير ، فكان موضوع الليلة الأولى - كما جاء مصادفة - هو ثناء أبي حيان على أريحية وكرم الوزير .

● الليلة الثانية :

وكان الحديث في هذه الليلة عن ^(٢) أستاذه أبي سليمان المنطقي ، وهو أبو سليمان محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، أكبر علماء بغداد في عصر أبي حيان في المنطق والحكمة والفلسفة ، كان مجلسه حافلاً بالعلماء والحكماء ، واسع الاطلاع في الفلسفة ، وكان به عور وبرص لم يمنعه من مجالسة الأمراء والوزراء له ، وهو أكبر شيوخ أبي حيان وفيه يقول البديهي :

أبو سليمان عالمٌ فطنٌ . ما هو في علمه بمنقَصٍ
لكن تطيَّرتُ عند رؤيته . من عورٍ موحشٍ ومن برصٍ
وبابنه مثلُ ما بوالده . وهذه قصَّةٌ من القصصِ .

(١) الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ .

● الليلة الثالثة :

بدأت الليلة بموضوع^(١) الرجل الخراساني الذي رآه أبو حيان ، حينما مرَّ على الجسر في الجانب الشرقي من بغداد ، فرأى ابن بقیة الوزير مصلوباً بينما الذي صلبه مدفون (وهو عضد الدولة) بباطن الأرض ، فقال : لا إله إلا الله ، ما أعجب هذه الدنيا وما أمل المفكر في عبّرها وغيّرها : عضد الدولة تحت الأرض ، وعدوه (ابن بقیة) فوق الأرض . فقال ابن سعدان . هكذا حدثني أبو الوفاء . ولذا استأذنتُ (الملك) في دفنه (دفن ابن بقیة) .

● الليلة الرابعة :

بدأ الوزير هذه الليلة بهذا السؤال^(٢) كيف رضاك عن أبي الوفاء (المهندس) " قلت أرضى رضا ، بأنتم شكر وأحمد ثناء ، أخذ بيدي ، ونظر في معاشي ، ونشطني ، وبشرني ، ورعى عهدي ، ثم ختم هذا كله بالنعمة الكبرى (يقصد مسامرة الوزير) وقلّدتني بها القلادة الحسنى ، وشملني بهذه الخدمة ، وأذاقني حلوة هذه المزية ، وأوجهني عن نظرائي . قال مات شيئاً من الغزل ، فأنشدته :
كلانا سواء في الهوى غير أنّها تجلّد أحيانا ومابى تجلّد
تخاف وعيد الكاشحين وأنما جنونى عليها حين أنهى وأبعد

● الليلة الخامسة :

" قال لى .^(٣) ألا تتم ما كنّا بدأنا به (يريد إتمام الحديث الذي بدأه أبو حيان عن ابن عبّاد وعبد العزيز بن يوسف وابنى العميد - أبى الفضل وابنه أبى الفتح) قلت بلى ، فأما أبو إسحاق (أبو اسحاق الصابى) فإنه أحب الناس للطريقة المستقيمة ، وأمضاهم على المحجة الوسطى ، وإنما ينقم عليه قلة نصيبه من النحو .. " .

● الليلة السادسة :

" ثم حضرته الليلة أخرى^(٤) ، فأول ما فتح به المجلس أن قال : أفضّل العرب على العجم ، أم العجم على العرب ؟ قلت : الأمم عند العلماء أربع : الروم والعرب وفارس والهند ، وثلاث من هؤلاء عجم ، وصعب أن يقال . العرب وحدها

(١) المرجع السابق ص ٤١ ، ٤٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠ ، ٥١ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٧ .

(٤) المرجع السابق ص ٧٠ .

أفضل من هؤلاء الثلاثة " وهو حديث مستفيض وممتع لا يستغني عنه محب للاستزادة من المعرفة .

● الليلة السابعة :

" ولما عُدْتُ إليه ^(١) في مجلس آخر . قال سمعتُ صياحك اليومَ في الدار مع ابى عبيد ، ففيم كنتما ؟ قلت : كان يَذْكُرُ أَنَّ كِتَابَةَ الحِسابِ أنفعُ وأفضلُ وأعلَقُ بالملك والبلاغة زخرفة وحيلة ، وهي شبيهة بالسراب كما أَنَّ الأخرى (كتابة الحساب) شبيهة بالماء قال (الوزير) : هذه ملحمة منكرة . فما كان من الجواب : قلت ما قام من مجلسه إلا بعد الذلِّ والقماعة ، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكف ، والشمس بالكسوف .. " .

● الليلة الثامنة :

" وقال مرةً أخرى : أوصل ^(٢) (أرسل) وهب بن يعيـش الرُّقى اليهودي رسالة يقول في عرضها بعد التقريظ الطويل العريض : إِنَّ هَذَا طَرِيقاً فِي إدْرَاكِ الفِلسَفَةِ مِثْلَةُ مَسْلُوكَةٍ ، مختصرة فسيحة ، ليس على سالِكها كَدٌّ ولا مشقَّةٌ في بلوغ ما يريد من الحكمة ... " إلى أن يصل الحديث إلى المناظرة التي حدثت بين أبى سعيد السيرافي النحوي وبين أبى البشر متى القناني المنطقي في مجلس الوزير أبى الفضل بن الفرات وقد أوردناها آنفاً .

● الليلة التاسعة :

" وعُدْتُ ليلةً أخرى ^(٣) فقال (أبى الوزير) : فاتحة الحديث منك (أى أنت تقترح الموضوع) فهات ما عندك . فكان الجواب : إِنَّ أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة ، مؤتلفة في نوع الإنسان ... " .

● الليلة العاشرة :

" ولما عدت في الليلة الأخرى ^(٤) ونعمت بهذه الفضيلة ، تفضل وقال . ما في العلم شيء إلا إذا بُدِئَ بالكلام فيه اتَّصَلَ وتسلَّسَ ، حتى لا يوجد له مقطع ولا منفذ ، ثم قرأت عليه نواير الحيوان ، وغرائب ما كنت سمعته ووجدته ، فزاد عجباً ، وأنا أرويه في هذا المكان حتى يكون تذكرة وفائدة ... "

(١) المرجع السابق ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٤٣ .

(٤) المرجع السابق ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

ليلة من ليالى الإمتاع والمؤانسة (الليلة السابعة عشر)

لقد أثار اهتمامى ما دار من نقاش وتجاوز^(١) فى هذه الليلة الممتعة ، والذي (شخص) هذا الحوار وصوره فى تلك الليلة هو أبو حيان التوحيدى ، حينما أدّى دور كل محاور اشترك فى تلك المحاور الفريدة ، فقد حكى أبو حيان للوزير العارض ما فعله أستاذه أبو سليمان المنطقى من تبكيت لإخوان الصفا: الذين دعوا قى رسائلهم إلى مذهب يجمع بين الدين والفلسفة ، ونادوا بأمر كثيرة لا يتسع المجال لإيرادها ، وقد أوضح أبو سليمان مذهب المنطقى وحدود الفلسفة من الدين ، ولما سأل الوزير أبا حيان عما إذا كان أحد رجال إخوان الصفاء - ويغنى به أبا سليمان محمد بن معشر البيستى المعروف بالقدسى - سمع هذه الأفكار تهجأه أنه قد أسمعه ما قاله المنطقى فى إخوان الصفا فلم يعره انتباهها ، ولكن الحريرى غلام ابن طوّارة هيّجه ودفعه دفعا للنقاش معه عن الفلسفة وإخوان الصفا ، كما شارك فى النقاش البخارى أبو العباس - ثم راح أبو حيان يوضح مذهب أبى سليمان المنطقى وسرّ إعجابه به ، وينتهى هذا الحديث الذى حكاه أبو حيان بأن طلب منه الوزير ملحة الوداع . وكانت حكمة لابن المقفع . ونسوق هذا الحديث الطويل الممتع كدليل على قدرة أبى حيان الفائقة على استيعاب أفكار كل الطوائف فى عصره ، وقدرته على سرد كل ما قاله كل فريق . على أننا سنورد الحديث بنصّه على صورة الحوار لا على طريقة الراوى التى قام بها أبو حيان وذلك لتسهيل استيعابه وفهمه :

قال الوزير (مستحاثا أبا حيان) حدثنى عن شيء هو أهم من هذا لى ، وأخطر على بالى ، إني لا أزال أسمع من زيد بن رفاعه قولاً ومذهباً لا عهد لى (به) ... فعلى هذا ما مذهبه ؟

أبو حيان : لا ينسب إلى شيء (أى زيد بن رفاعه) ، ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شيء ، وغلّياته فى كل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطة تبيينه ، وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبصرة طويلاً وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم ، وأنواع الصناعة (يقصد إخوان الصفا) منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيستى ، ويعرف بالقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجاني ، وأبو أحمد المهرجاني ، والعوفى وغيرهم فصحبهم وخدمهم^(٢) ، وكانت

(١) المرجع السابق الجزء ٢ من ص ٣ إلى ص ٢٤

(٢) المرجع السابق من ص ٣ إلى ص ٢٤ (الجزء التالى) .

هذه العصابة قد تألفت بالعشرة^(١) ، وتضافت بالصدقة واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة فوضعوا بينهم مذهباً ، زعموا أنهم قربوا به (الطريق) إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته ، وذلك أنهم قالوا : (مزارع إخوان الصفا) : الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، (وذلك) لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنّفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة : علميها ، وعمليها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها رسائل إخوان الصفاء وخالفوا الوفاء وكتموا أسماءهم وبثوها في الوراقين ، ولقنوها للناس من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس ، والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابها ، والأفعال المذمومة التي يشقى بها أهلها ، وحشّوا هذه الرسائل بالكلم الدينية والأمثال الشرعية والحروف (الكلمات) المحتملة والطرق الموهمة .

فقال الوزير : هل رأيت هذه الرسائل ؟

أبو حيان قلت : قد رأيت جملةً منها ، وهي ميثوبة من كل فن تُنفأ بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات وتلفيقات وتلزيقات وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها .

وحملتُ عدّةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني (محمد بن بهرام) وعرضتها عليه ، ونظر فيها أياماً واختبرها طويلاً ، ثم ردّها عليّ ثم قال :

أبو سليمان المنطقي : تعبوا وما أغنوا ، ونصبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغنّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلّلوا ، ومشطوا ففلفلوا ، ظنوا ما لا يكون وما لا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسّوا الفلسفة - التي هي علم النجوم والأفلاك والمجسطى والمقادير ، وأثار الطبيعة ، والموسيقى التي هي معرفة النغم والإيقاعات والنقّرات والأوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال والاضافات والكميات والكيفيات - في الشريعة ، وأن يضمّوا الشريعة للفلسفة .

(١) المرجع السابق ج/٢ من ص ٣ إلى ص ٢٤ .

وهذا مرامٌ لونه حَدْدٌ (دفع ومنع) ^(١) وقد توفّر على هذا قبلَ هؤلاء قومٌ كانوا أحدَ أنياباً ، وأحضرَ أسباباً ، وأعظمَ أقداراً ، وأرفعَ أخطاراً ، وأوسعَ قوًى ، وأوثقَ عُراً ، فلم يتم لهم ما أرادوا ، ولا بلغوا منه ما أملوه ^(٢) ، وحصلوا على لوثاتٍ قبيحةٍ ولطخاتٍ فاضخةٍ ، وألقابٍ موحشةٍ ، وعواقبٍ مخزيةٍ وأوزانٍ مثقلةٍ .

فقال له البخارى أبو العباس ^(٣) : ولم ذلك أيها الشيخ ؟

(أبو سليمان المنطقي) . قال : إن الشريعة مأخوذة عن الله - عز وجل - بوساطة السفير بينه وبين الخلق عن طريق الوحي ، وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات ، على ما يوجبُه العقل تارة ، ويجوزُه تارة لمصالح عامة متقنة ، ومراشد تامة مبينة ، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه ، والغوص فيه ، ولابدٌ للتسليم للداعى إليه ، والمنبئ عليه ، وهناك يسقط (لِمَ) ويبطل (كيف) ويزول (هلاً) ويذهب (لو) (وليت) فى الريح ، لأن هذ المواد عنها محسومة ، واعتراضات المعارضين عليها مردودة ، وارتباب المرتابين فيها ضارٌ ، وسكون الساكنين إليها نافع ، وجملتها مشتملة على الخير ، وتفصيلها موصول بها على حسن التقبل وهى متداولة بين متعلق بظاهر مكشوف ، ومحتج بتأويل معروف ، وناصر باللغة الشائعة ، وحام بالجدل المبين وذاب بالعمل الصالح وضارب للمثل السائر ، وراجع إلى البرهان الواضح ، ومتفقه فى الحلال والحرام ، ومستند إلى الأثر والخبر المشهورين بين أهل الملّة ، وراجع إلى اتفاق الأمة . وأساسها على الورع والتقوى ومنتهأها إلى العبادة وطلب الزُلفى .

ليس فيها حديث المنجم فى تأثيرات الكواكب ، وحركات الأفلاك ومقادير الأجرام ومطالع الطوالع ومغارب الغوارب . ولا حديث تشاؤمها وتيامنُها وهبوطها وصعودها ، ونحسها وسعدها ، وظهورها واستمرارها ، ورجوعها واستقامتها وتربيعها وتثليثها ، وتسديسها ، ومقارنتها . ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر فى آثارها ، وأشكال الأسطُقسات ، بثبوتها وافتراقها ، وتصريفها فى الأقاليم والمعادن والأبدان ، وما يتعلق

(١) المرجع السابق من ص ٣ إلى ص ٢٤ (الجزء ١ لثانى)

(٢) أحد جماعة إخوان الصفا

بالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وما الفاعل^(١) وما المنفعل منها ، وكيف تمازجها وتزاوجها ، وكيف تنافرهما وتسايرها ، وإلى أين تنحرف قواها ، وعلى أى شيء يقف منتهاها .

ولا فيها حديث المهندس الباحث عن مقادير الأشياء ونقطتها وخطوطها^(١)، وسطوحها وأجسامها وأضلاعها وزواياها ومقاطعها ، وما الكرة ؟ والدائرة ؟ وما المستقيم ؟ وما المنحنى ؟ .

ولا فيها حديث المنطقي الباحث عن مراتب الأقوال ، ومناسب الأسماء والحروف والأفعال وكيف ارتباط بعضها ببعض على موضوع رجل من يونان ، حتى يصح بزعمه الصدق ويبذو الكذب . وصاحب المنطق يرى أن الطبيب والمنجم والمهندس وكل من فاه بلفظ وأم غرضاً فقرأ إليه ومحتاجون إلى ما في يديه . قال : فعلى هذا كيف يسوع لإخوان الصفاء أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة ؟

(وراح أبو سليمان يوضح أن بين إخوان الصفاء وبعض المشعوذين صلوات)

على أن وراء هذه الطوائف جماعة أيضاً لهم مأخذ من هذه الأغراض كصاحب العزيمة وصاحب الطلسم ، وعابر الرؤيا ، ومدعى السحر ، وصاحب الكيمياء ومستعمل الوهم .

قال : ولو كانت هذه جائزة وممكنة لكان الله تعالى نبه عليها ، وكان صاحب الشريعة يقوم شريعته بها ، ويكملها باستعمالها ، ويتلافى نقصها بهذه الزيادة التي يجدها في غيرها ، أو يحض المتفلسفين على إيضاحها (بها) ويتقدم إليهم بإتمامها ، ويفرض عليهم القيام بكل ما يذب به عنها حسب طاقتهم فيها ، ولم يفعل ذلك بنفسه ، ولا وكله إلى غيره من خلفائه والقائمين بدينه ، بل نهى عن الخوض عن هذه الأشياء وكره إلى الناس ذكرها وتوعدهم عليها ، وقال : من أتى عرفاً أو طارفاً (الذى يطرُق الحصى مستخبراً بطلب غيبه الله منه) فقد حارب الله ،

(١) المرجع السابق .

ومن حارب الله حُرْبَ ، ومن غالبه غُلِبَ ^(١) ، حتى قال (أى أبو سليمان)
ولو أن الله حبس عن الناس القَطْرَ سَبْعَ سنين ، ثم أرسله لأصبحت
طائفة به كافرين ويقولون . مُطِرْنَا بِنَوءِ الْمُجْدَح ، فهذا كما ترى ،
والمجدح الدُّبْرَان .

ثم راح يوضح أن اختلاف الأمة في الأمور الدينية لم يحوِّجها إلى الفلسفة) .

ثم قال : ولقد اختلفت الأمة ضروباً من الاختلاف في الأصول والفروع ،
وتنازعا فيها فنوناً من التنازع في الواضح والمُشْكَل من الأحكام ،
والحلال والحرام والتفسير والتأويل ، والعيان والخبر ، والعادة
والاصطلاح ^(١) ، فما فرغوا في شيء من ذلك إلى منجم أو طبيب ، ولا
منطقي ولا مهندس ولا موسيقي ، ولا صاحب عزيمة وشعبذة وسحر
وكيمياء ، لأن الله تعالى تمم الدين بنبيه صلى الله عليه وسلم ، ولم
يُحوِّجْهُ بعد البيان الوارد بالوحي إلى موضوع بالرأى .

قال : ولم نجد في هذه الأمة من يفزع إلى أصحاب الفلسفة في شيء
من دينها فكذاك أمة عيسى عليه السلام وهى النصراني ، وكذلك
المجوس .

قال : ومما يزيدك وضوحاً ويريك عجباً أن الأمة اختلفت في آرائها
ومذاهبها ومقالاتها فصارت أصنافاً فيها وفرقاً ، كالمرجئة والمعتزلة
والشيعة والسنية والخوارج ، فما فرغت طائفة من هذه الطوائف إلى
الفلاسفة ، ولحققت مقالاتها بشواهدهم وشهادتهم ، ولا اشتغلت
بطريقتهم ، ولا وجدت عندهم ما لم يكن عندها بكتاب ربها وأثر نبيها .

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام من الحلال والحرام منذ أيام
الصدر الأول إلى يومنا هذا لم نجدهم تظاهروا بالفلاسفة
فاستنصروهم ، ولا قالوا لهم ، أعينونا بما عندكم ، واشهدوا لنا أو علينا
بما قبلكم .

قال . فأتين الدين من الفلسفة ؟ وأين النبي المأخوذ بالوحي النازل ، من
الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؟

فاذا أدلوا بالعقل ، فالعقل موهبة من الله جل وعز لكل عبد ، ولكن بقدر

(١) المرجع السابق

ما يُدرك به ما يعلوه ، كما لا يخفى به عليه ما يتلوه ، وليس كذلك الوحي فإنه على نوره المنتشر وبيانه الميسر

قال : وبالجُملة النبىُّ فوق الفيلسوف ، والفيلسوف دون النبىِّ ، وعلى الفيلسوف أن يتَّبِع النبىِّ ، وليس على النبىِّ أن يتبع الفيلسوف ، لأنَّ النبىَّ مبعوثٌ إليه .

قال : ولو كان العقل يُكتفى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء ، على أن منازل الناس متفاوتة فى العقل ، وأنصباهم مختلفة فيه ، فلو كنَّا نستغنى عن الوحي بالعقل كيف كنَّا نصنع ، وليس العقل بأسره لواحد منَّا إنما هو لجميع الناس ، فإنَّ قال قائل بالعبث والجهل كل عاقل موكلٌ إلى قدر عقله ، وليس عليه أن يستفيد الزيادة من غيره ، لأنَّه مكفى به ، وغير مطالب بما زاد عليه .

(ويرد أبو سليمان على ذلك الذى يدعى أنه يكتفى بهداية عقله ، يردُّ بقول الناس فيه)^(١) قيل له : كفاك تمادياً بهذا الرأى ، إنه ليس لك فيه موافق ولا عليه مطابق ، ولو استقلَّ إنسانٌ واحد بعقله فى جميع حالاته فى دينه ودنياه ، لاستقلَّ أيضاً بقوته فى جميع حاجاته فى دينه ودنياه ، وكان وحده يفى بجميع الصناعات والمعارف ، وكان لا يحتاج إلى أحد من نوعه وجنسه ، وهذا قول مردول ورأى مخدول .

قال البخارى (أبو العباس) : وقد اختلفت درجات النبوة بالوحي ، وإذا ساع هذا الاختلاف فى الوحي ولم يكن ذلك ثالماً له (ماعاً) ، ساع أيضاً فى العقل ولم يكن مؤثراً فيه .

فقال (أبو سليمان موجهها كلامه للبخارى)

يا هذا ، اختلاف درجات أصحاب الوحي لم يُخرجهم عن الثقة والطمأنينة بمن اصطفاهم بالوحي وخصَّهم بالمناجاة واجتباهم للرسالة وأكملهم بما ألبسهم من شعار النبوة ، وهذه الثقة والطمأنينة مفقودتان فى الناظرين بالعقول المختلفة لأنهم على بُعد (على عميق) من الثقة والطمأنينة ، إلا فى الشيء القليل ، والنزُّ اليسير ، وعوار هذا الكلام ظاهر ، وخطل هذا المتكلم بين .

(١) المرجع السابق

قال الوزير (لأبى حيان) :

أفما سمع شيئا من هذا المقدسى ؟ (أحد أنصار إخوان الصفا) .

أبو حيان . بلى قد ألقيتُ عليه هذا وما أشبهه بالزيادة والنقصان ، والتقديم والتأخير
فى أوقات كثيرة بحضرة حمزة الوراق فى الوراقين فسكت ، وما رأتى
أهلاً للجواب لكنَّ الحريرى غلام ابن طرارة هيجه يوماً فى الوراقين بمثل
هذا الكلام فاندفع فقال .

أبوسليمان المقدسى^(١) . الشريعة طبُّ المرضى ، والفلسفة طبُّ الأصحاء ، والأنبياءُ
يطبُّون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية
فقط وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا
يعتريهم مَرَضٌ أصلاً ، فبين مدبرِ المريض ومدبرِ الصَّحِيح فرقٌ ظاهر
وكشوف ، لأن غاية مدبرِ المريض أن ينتقل به إلى الصحة ، هذا إذا
كان الدواء ناجحاً ، والطبع قايلاً ، والطبيب ناصحاً ، وغاية مدبرِ
الصَّحِيح أن يحفظ الصحة ، وإذا حفظ الصحة فقد أفاده كسبُ
الفضائل ، وفرغها لها ، وعرضه لاقتنائها ، وصاحب هذه الحال فائزٌ
بالسعادة العظمى ، ومتبَوِّئُ الدرجة العليا ، وقد صار مستحقاً للحياة
الإلهية ، والحياة الإلهية من الخلود ، والديمومة والسرمدية .

فإن كَسَبَ من يبرأ من المرض^(١) بطبِّ صاحبه الفضائل أيضاً ، فليست
تلك الفضائل من جنس هذه الفضائل ، لأن إحداها تقليدية ، والأخرى
برهانية ، وهذه مظنونة وهذه مستيقنة ، وهذه روحانية وهذه جسمية ،
وهذه دهرية وهذه زمانية .

وقال أيضاً . إنَّما جمعنا بين الفلسفة والشريعة ، لأن الفلسفة معترفة
بالشريعة وإن كانت الشريعة جاحدة لها ، وإنَّما جمعنا بينهما لأن
الشريعة عامة والفلسفة خاصة ، والعامة قوامها بالخاصة ، كما أنَّ
الخاصة تمامها بالعامة ، وهما متطابقتان إحداها على الأخرى ، لأنهما
كالظَّهارة التى لا بدَّ لها من البطانة ، وكالبطانة التى لا بدَّ لها من
الظَّهارة.

(١) المرجع السابق .

فقال له الحريري : أما قولك طبُّ المَرَضَى وطِبُّ الأصحاء ^(١) وما نَسَقْتَ عليه كلامك . فمَثَلٌ لا يعبرُ به غيرُكَ ، ومن كان في مُشْكلٍ ، لأنَّ الطبيبَ عندنا الحاذق في طبِّه هو الذي يجمعُ بين الأمرين ، أعني أنَّه يبرئ المريض من مرضه ، ويحفظُ الصحيح على صحته ، فأما أن يكونَ ها هنا طبيبان : يعالج أحدهما الصحيح ، والآخر يعالج المريضَ فهذا ما لم نعهده نحن ولا أنت وهو شيء خارج عن العادة فمَثَلُكَ مردودٌ عليك ، وتشنيعُك فاضحٌ لك ، وكلُّ أحد يعلم أن التدبير في حفظ الصِّحة ودفع المرض - وإن كان بينهما فرق (هما شيء) واحد ، فالطبُّ يجمعهما ، والطبيب الواحد يقوم بهما وبشرائطهما .

وأما قولك في الفصل الثاني : أن إحدى الفصيلتين تقليدية ، والأخرى برهانية ، فكلام مدخول (مغلوط) ، لأنك غلطت على نفسك ، ألا تعلم أن البرهانية هي الواردة بالوحي ، - النازمة للرشد ، الداعية إلى الخير ، الواعدة بحسن المآب ، وأنَّ التقليدية هي المأخوذة من المقدمة والنتيجة ؟ والدعوى التي يُرجع فيها إلى من ليس بحُجَّة ، وإنما هو رجل قال شيئاً فوافقه آخرُ وخالفه آخر ، فلا الموافق له يرجع إلى الوحي ، ولا المخالف له يستند إلى حق ، والعَجَبُ أنك جعلت الشريعة من باب الظنِّ ، وهي بالوحي ، وجعلت الفلسفة من باب اليقين ، وهي من الرأي .

وأما قولك هذه روحانية - تعنى الفلسفة - وهذه جسمية - تعنى الشريعة ، فزخرفة لا تستحق الجواب ، ولتلك هذا فليعمل المزخرفون ، على أننا لو قلنا : بل الشريعة هي الروحانية ، لأنها صوت الوحي ، والوحي من الله عز وجل ^(١) ، والفلسفة هي الجسمية لأنها برزت من جهة رجل باعتبار الأجسام والأغراض ، وما هذا شأنه ، بل هو بالجسم أشبه ، وعن لطف الروح أبعد (لا أبعدنا) .

وأما قولك الفلسفة خاصة ، والشريعة عامة فكلام ساقط لا نور عليه ، لأنك تشير به إلى أن الشريعة يعتقدها قوم - وهي العامة - والفلسفة ينتحلها قوم - وهي الخاصة - فلم جمعتم رسائل إخوان الصفا ،

(١) المرجع السابق .

ودعوتهم الناس إلى الشريعة ، وهى لا تلزم إلا العامة ، ولم تقولوا للناس : من أحب أن يكون من العامة فليتحل بالشريعة ، فقد ناقضتم ، لأنكم حشوتهم مقالكم بآيات من كتاب الله تزعمون بها أن الفلسفة مدلول عليها بالشريعة ، ثم الشريعة مدلول عليها بالمعرفة ، ثم ها أنت تذكر أن هذه للخاصة وتلك للعامة ، فلم جمعتم بين مفترقين ، ومزقتم بين مجتمعين ، هذا والله الجهل المبين ، والخُرق المشين .

وأما قولك إننا جمعنا بين الفلسفة والشريعة ، لأن الفلسفة معترفة بالشريعة ، وإن كانت الشريعة جاحدة على الفلسفة ، فهذه هتناقضت أخرى : وإننى أظن أن حسك كليل وعقلك عليل ، لأنك قد أوضححت عُذر أصحاب الشريعة ، إذا جحدوا الفلسفة وذلك أن الشريعة لا تذكرها ولا تحض على الدينونة بها ، ومع ذلك فليس لهم علم بأن الفلسفة قد حثت على قبول الشريعة ، ونهت عن مخالفتها وسُمّتها بالناموس الحافظ لصالح العالم .

ثم قال الحريري : حدثني أيها الشيخ على أي شريعة دلت الفلسفة ؟ أعلى اليهودية أم على النصرانية ؟ أم على الإسلام ؟ أم ما عليه الصابئون ؟ فإن ها هنا من يتفلسف وهو نصراني كابن زُرعة وابن الخمار وأمثالهم ، وها هنا من يتفلسف وهو يهودي كأبي الخيو بن يعيش ، وها هنا من يتفلسف وهو مسلم كأبي سليمان والنوشجلى وغيرهما أفترقول : إني الفلسفة أباحت لكل طائفة من هذه الطوائف أن تدين بذلك الدين الذى نشأت عليه ؟ - ودع هذا ليخاطب غيرك ، قلئك من أهل الإسلام بالهدى والجبلة والمنشأ ، والورثة ، فما بالناس^(١) لا نرى واحداً منكم يقوم بأركان الدين ، ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف النافلة ؟ وأين كان الصدر الأول من الفلسفة ؟ أعتنى الصحابة ، وأين كان التابعون منها ؟ ولم خفى هذا الأمر العظيم - مع ما فيه من الفوز والتعظيم - على الجماعة الأولى والثانية والثالثة : إلى يومنا هذا وفيهم الفقهاء والزهاد والعُباد وأصحاب الورع والتقوى والتأطرون فى الدقيق ودقيق الدقيق ، وكل ما عاد بخير عاجل وثواب أجل ، هيهات أقد أسررتهم الحسوة فى

(١) المرجع السابق .

الارتغاء (أزيدتم وأرغيتم . مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويريد خلافه)
 واستقيتم بلا دلو ولا رشاء وودلتكم على فُسولتكم (ضعفكم وخستكم)
 وضعف مُنتكم وأردتم أن تقيموا ما وضعه الله وتضعوا ما رفعه الله ،
 والله لا يُغالب بل هو غالبٌ على أمره ، فعال لما يريد .

(واستطرد الحريري في كشف الذين كادوا للشرية)

قد حاول هذا الكيد خلق في القديم والحديث فنكصوا على أعقابهم
 خائبين ، وكُبُّوا لوجوههم خاسرين منهم أبو زيد البلخي ، فإنه ادَّعى أن
 الفلسفة مقاومة للشرية (أى مساوقة لها) ، وإن إحداها أم والأخرى
 ظُئِر (الحاضنة لولد غيرها) ، وأظهر مذهب الزيدية ، وانقاد لأمير
 خراسان الذى كتب له أن يعمل فى نشر الفلسفة بشفاعة الشريعة ،
 ويدعو الناس إليها باللفظ والشفقة والرغبة ، فشئت الله كلمته ، وقوَّض
 دعامته ، وحال بيته وبين إرادته ، ووكله إلى حوله وقوته ، فلم يَتَمَّ له من
 ذلك شيء .

وكذلك رام أبو تمام النيسابورى ، وخدم الطائفة المعروفة بالشيوعية ولجأ
 إلى مطرّف بن محمد وزير ابن مَرْدَاوِيج الجبلى ليكون له به قوة ، وينطق
 بما فى نفسه من هذه الجملة ، فما زادت إلا صِفراً فى قَدْره ، ومهانةً
 فى نفسه، وتوارياً فى بيته ، وهذا بعينه قصد العامرى فما زال مطروداً
 من صُقَحٍ إلى صُقَحٍ يَنْذِرُ دمه ويراد قتله ، فمرةً يتحصَّن بفناء ابن
 العميد ، ومرةً يلجأ إلى صاحب الجيش نيسابور ، ومرةً يتقرب إلى
 العامة، بكتب يصنّفها فى نُصرة الإسلام ، وهو على ذلك يَتَّهم ويُعرف
 بالإلحاد^(١) ، ويقدم العالم والكلام فى الهَيُولَى والصورة والزمان والمكان ،
 وما أشبه هذا من ضروب الهديان التى ما أنزل الله بها كتابه ، ولا دعا
 إليها رسوله ، ومع ذلك يناغى كل صاحب بدعه ، ويجلس إليه كل مُتَّهم ،
 ويلقى كلامه إلى كل من ادَّعى باطننا للظاهر وظاهراً للباطن .

وما عندي أن الأئمة الذين يأخذ عنهم ويقتبس منهم ، كأرسطوطاليس
 وسقراط وأفلاطون ، ، رهط الكفر ، ذكروا فى كتبهم حديث الظاهر
 والباطن ، وإنما هذا من نسيج المَقْدَّاحين فى الإسلام ، الساترين على

(١) المرجع السابق .

أنفسهم ما هم فيه ، من النُّهم . وهنَّا بعيه دبره الهَجْرِيُون بالأمس ،
وبهذا دندن الناجمون بقزوين ويؤنُّوا الدعاة فى أرجاء الأرض ، ويدلُّوا
الرغائب وفتنوا النفوس .

وقد سمعنا تأويلات لهذه الطوائف لآيات القرآن فى قوله عز وجل :
(انطلقوا إلى ظلٍّ ذى ثلاث شعبٍ) وفى قوله تعالى (بإطنُّه فيه الرحمةُ
وظاهره من قبله العذابُ) وفى قوله تعالى (عليها تسعة عشر) وفى
قوله تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه
الحق) إلى غير ذلك ممَّا يطول ويعول فدعونا من التورية والحيلة ،
والإيهام والكناية عن شيء لا يتَّصل ، بإرادة والإرادة لشيء لا يتَّصل)
بالتصريح ، فالناس أنقذ لأديانهم وأحرص على الظفر ببيغيتهم من
الصارفة لسايرهم ودراسهم .

قال أبو حيان . فلما ابهر المقدسى بما سمع وكاد يغفري إهابه من الغيظ والعجز وقلة
الحيلة .

قال المقدسى^١ الناس أعداء ما جهلوا ، ونشر الحكمة فى غير أهلها يورث العداوة
ويطرح التشنأ ويقدح زند الفتنة .

(قال أبو حيان) ثم كرَّ الحيرى كرَّ المدلِّ ، وسطع عطفه الواثق بالظفر وقال .
الحيرى : يا أبا سليمان (المقدسى أو اليبستى) ، من هذا الذى يُقر مشكِّم عصا
موسى انقلبَ حياة ، وأنَّ البحر انقلبَ: وأنَّ يداً خرجت بيضاء من غير
سوء ، وأنَّ بشراً خلُق من تراب وأُتخِذَ لَدُنْهُ أنثى^(١) من غيو ذكر ،
وأنَّ ناراً مؤجَّجَةً طُرِحَ فيها إنسانٌ قصارت له برداً وسلاماً ، وأنَّ رجلاً
مات مائة عام ثم بُعِثَ فنظر إلى طعامه وشرا به على حالهما لم يتغيَّر ،
وأنَّ قبراً تفقأ عن ميِّتٍ حى ، وأنَّ طيِّفاً دُبِّرَ (صنع) فنُفِخَ فيه فطار ،
وأنَّ قمرأ أنشق ، وأنَّ جذعاً حنَّ ، وأنَّ ذنباً تكلم ، وأنَّ ماءً نبع من
أصابع فروى منه جيشٌ عظيم وأُنْجِست ساعة شبيعت من ثريدته فى قدرٍ
جسم قِطاة ؟

وعلى هذا أن كنتم تدعون إلى شريعة من الشرائع التى فيها هذه
الخوارق والبدائع فاعترفوا بأنَّ هذه كلها صحيحة ثابتة كاشفة لا ريب

(١) المرجع السابق .

فيها ولا مرئية ، من غير تأويل ولا تدليس ، ولا تضليل ، ولا تعليل ، ولا تلبيس ، واعطونا خطكم بأن الطبائع تفعل هذا كله والمواد تُواتى له ، والله تعالى يقدر عليه ، ودعوا التورية والحيلة والغيلة ، والظاهر والمباطن ، فإن الفلسفة ليست من جنس الشريعة ، ولا الشريعة من جنس الفلسفة ، وبينهما يرمى الرامى ويهمل الهامى ، على أننا ما وجدنا الديانين من المتألهين (المتعبدین) من جميع الأديان يذكرون أن أصحاب شرائعهم قد دعوا إلى الفلسفة وأمروا بطلبها واقتباسها من اليونانيين هذا موسى وعيسى وإبراهيم وداود وسليمان وركريا ويحيى إلى محمد صلى الله عليه وسلم – لم نحقق (لم نجد على وجه الحقيقة) من يعزوا إليهم شيئا من هذا الباب ، ويعلق عليهم هذا الحديث .

قال الوزير (ابن سعدان) ما عجبى من جميع هذا الكلام إلا من أبى سليمان (يقصد المنطقى) فى هذا الاستحقار والتغضب ، والاحتشاد والتعصب ، وهو رجل يعرف بالمنطقى ، وهو من غلمان يحيى بن عدى النصرانى ، ويقرأ عليه كتب يونان ، وتفسير دقائق كتبهم بغاية البيان .

أبو حيان . إن أبا سليمان (المنطقى) يقول : إن الفلسفة حق ، لكنها ليست من الشريعة فى شيء ، والشريعة حق لكنها ليست من الفلسفة فى شيء ، وصاحب الشريعة مبعوث ، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه ، وأحدهما مخصوص بالوحى ، والآخر مخصوص ببحثه ، والأول مكفى والثانى كادح ، وهذا يقول : أمرت وعلمت وقيل لى ، وما أقول شيئا من تلقاء نفسى ، وهذا يقول . رأيت ونظرت واستحسنمت واستقبحت^(١) ، وهذا يقول . نور العقل أهتدى به ، وهذا يقول معنى نور خالق الخلق أمشى بضياءه ، ويقول: قال الله تعالى : وقال الملك ، وهذا يقول : قال أفلاطون وقال سقراط ، ويسمع هذا ظاهر تنزيل وسائغ تأويل ، وتحقيق سنة ، واتفاق أمة ، ويسمع الآخر الهيولى والصورة والطبيعة والأسطقس والذاتى والعرض والأيسى والليسى ، وما شاكل هذا مما لا يسمع من مسلم ولا يهودى ولا نصرانى ولا مجوسى ولا مانوى .

(١) المرجع السابق .

ويقول أيضا • من أراد أن يتفلسف فيجب عليه أن يعرض بنظره عن الديانات ومن اختار الدين فعليه أن يعرِّد (يبتعد) بعناينه عن الفلسفة ويتحلَّى بهما مفترقين في مكانين على حالين مختلفين ، ويكون بالدين متقرباً إلى الله تعالى ، ويكون بالحكمة متصفِّحاً لقدرة الله تعالى في العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين ، المحيِّرة لكل عقل ، ولا يهدم أحدهما بالآخر ، أعني لا يجحد ما ألقى إليه صاحب الشريعة مُجملاً ومفصلاً ، ولا يغفل عما استخزن الله تعالى هذا الخلق العظيم على ما ظهر بقدرته ، واشتمل بحكمته ، واستقام بمشيئته ، وانتظم بإرادته واستتم بعلمه ، ولا يعترض على ما يبعد في عقله ورأيه من الشريعة (أى لا يحكم عقله في الغيبيات) ، وبدائع آيات النبوة بأحكام الفلسفة فإن الفلسفة مأخوذة من العقل المقصود على الغاية ، والديانة مأخوذة من الوحي الوارد من العلم بالقدره .

قال أبو سليمان المنطقي • ولعمري إن هذا صعب ، ولكنه جِماع الكلم ، وأخذ المستطاع ، وغاية ما عرض له الإنسان المؤيد باللطائف ، المزاح بالعلل وضروب التكليف . قال : ومن فضل بعمة الله تعالى على هذا الخلق أنه نهج لهم سبيلين ، ونصب لهم علمين وأبان لهم نجدتين (يقصد بهما العقل والعلم) ليصلوا إلى دار رضوانه ، إما بسلوكهم وإما بسلوك أحدهما .

قال له البخارى : فهلا دل الله على الطريقين اللذين رسمتهما في هذا المكان ؟ قال أبو سليمان : دل وبين ، ولكنك عم ، أما قال (وما يعقلها إلا العالمون) وفي فحوى هذا : وما يعلمها إلا العالمون ؟ فقد وصل العقل بالعلم ، كما وصل العلم بالعقل ، لأن كمال الانسان بهما ، ألا ترى أن العاقل متى عرئ من العلم^(١) قل انتفاعه بعقله ، كذلك العالم متى خلى من العقل بطل انتفاعه بعلمه ، أما قال (وما يتذكر إلا أولو الألباب) أما قال (فاعتبروا يا أولى الأبصار) أما قال • (أفلا يتدبرون القرآن) أما ذم قوماً حين قال (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون) أفما قال : (أو من كان ميتاً فأحييها وجعلنا له نورا) يمضى به في الناس كمن مثله

(١) المرجع السابق

فى الظلمات ليس بخارجٍ منها) أَمَا قَالَ (وَكَأَيُّنْ مِنْ آبَةٍ فِى السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) أَمَا قَالَ (إِنْ فِى ذَلِكَ لَذِكْرٌ
لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) وَكَتَابَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحِيطٌ
بِهَذَا كُلِّهِ ، وَإِنَّمَا تَقَادُ إِلَى طَاعَةِ (١) رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ
هَذَا فِيمَا لَا يَنَالُهُ عَقْلُكَ وَلَا يَبْلُغُهُ ذَهْنُكَ ، وَلَا يَعْلُو إِلَيْهِ فِكْرُكَ ، فَامْرُكْ
بِاتِّبَاعِهِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ ، وَإِنَّمَا دَخَلَتْ الْآفَةُ مِنْ قَوْمٍ دَهْرِيَّينَ مُكْحِدِينَ رَكِبُوا
مِطْيَةَ الْجَدَلِ وَالْجَهْلِ ، وَمَالُوا إِلَى الشَّيْبِ بِالتَّعَصُّبِ ، وَقَابَلُوا الْأُمُورَ
بِتَحْسِينِهِمْ وَتَقْبِيحِهِمْ وَتَهْجِينِهِمْ ، وَجَهِلُوا أَنَّ وراءَ ذَلِكَ مَا يُفُوتُ ذُرْعَهُمْ ،
وَيَتَخَلَّفُ عَنْ لِحَاقِهِ رَأْيُهُمْ وَنَظَرُهُمْ ، وَيَعْمَى دُونُ كُنْهِ ذَلِكَ بِصَرِّهِمْ ، وَهَذِهِ
الطَّائِفَةُ مَعْرُوفَةٌ مِنْهُمْ . صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ ، وَابْنُ أَبِي الْعَوِيْجَاءِ ،
وَمُطَرِّ بْنُ أَبِي الْغَيْثِ ، وَابْنُ الرَّائِدِ وَالْحَصْرِيُّ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ طَاحُوا فِى
أَوْدِيَةِ الضَّلَالَةِ وَاسْتَجَرُوا إِلَى جَهْلِهِمْ أَصْحَابُ الْخَلَاعَةِ وَالْمَجَانَةِ .

قَالَ الْبُخَارِيُّ . فَمَا الَّذِى تَرَكْتَ بِهَذَا الْوَصْفِ لِلَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْفَلَسْفَةِ وَالدِّينَانِ ،
وَوَصَلُوا هَذِهِ بِهَذِهِ عَلَى طَرِيقِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، الْخَفَى وَالْجَلَى وَالْبَادِىَ
وَالْمَكْتُومَ ؟ .

قَالَ (أَبُو سُلَيْمَانَ) . تَرَكْتُ لَهُمُ الطَّوِيلَ الْعَرِيزَ . الْقَوْمُ زَعَمُوا أَنَّ الْفَلَسْفَةَ مَوَاطِنَةٌ
لِلشَّرِيعَةِ ، وَالشَّرِيعَةُ مُوَافِقَةٌ لِلْفَلَسْفَةِ ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ قَوْلِ الْقَائِلِ : قَالَ
النَّبِيُّ وَقَالَ الْحَكِيمُ ، وَإِنْ أَفْلَاطُونُ مَا وَضَعَ كِتَابَ النُّوَامِيسِ إِلَّا لِنَعْلَمَ
كَيْفَ نَقُولُ ؟ وَبَأَى شَيْءٌ نَبْحُثُ ، وَمَا الَّذِى نَقْدُمُ وَنُؤَخِّرُ ، وَأَنَّ النُّبُوَّةَ فَرْعٌ
مِنْ فُرُوعِ الْفَلَسْفَةِ ، وَأَنَّ الْفَلَسْفَةَ أَصْلُ عِلْمِ الْعَالَمِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ مُحْتَاجٌ
إِلَى تَقْيِيمٍ مَا يَأْتِى بِهِ مِنْ جِهَةِ الْحَكِيمِ ، وَالْحَكِيمُ غَنَى عَنْهُ ، هَذَا
وَمَا أَشْبَهَهُ ، وَأَنَّ صَاحِبَ الدِّينِ لَهُ أَنْ يُعَيِّنَ وَيُورِى وَيُكْنِى حَتَّى تَتِمَّ
الْمُصْلَحَةُ وَتَنْتَظِمَ الْكَلِمَةُ ، وَتَتَّفِقَ الْجَمَاعَةُ وَتَثْبُتَ السُّنَّةُ ، وَتَحُلُوَ الْمَعِيشَةُ ،
وَحَتَّى قَالَ قَائِلُ مَذْهَبِهِمْ : أَوَائِلُ الشَّرِيعَةِ أُمُورٌ مُبْتَدَعَةٌ وَوَسَائِطُهَا سُنَنٌ
مُتَّبَعَةٌ ، وَأَوَاخِرُهَا حَقُوقٌ مُنْتَزَعَةٌ . وَأَنَّ هَذَا النَّعْتُ مِنْ قَوْلِى : إِنَّ الشَّرِيعَةَ
إِلَهِيَّةٌ ، وَالْفَلَسْفَةُ بَشَرِيَّةٌ (٢) : أَعْنَى أَنَّ تِلْكَ بِالْوَحَى وَهَذِهِ بِالْعَقْلِ ، وَأَنَّ تِلْكَ
مَوْثُوقَةٌ بِهَا وَيَطْمَأَنُّ إِلَيْهَا ، وَهَذِهِ مُشْكُوكٌ فِيهَا مُضْطَرَبٌ عَلَيْهَا .

(١) سَبَقَ أَنْ نَوَّهْنَا إِلَى هَذَا الْمَعْنَى فِى ص ١٠١ وَوَعَدْنَا الْقَارِئَ بِالاسْتِشْهَادِ بِكَلَامِ ابْنِ سُلَيْمَانَ الْمُنْطَقِ .
فَلْيَعِدِ الْقَارِئُ إِلَى الصَّفْحَةِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا وَلِيَرْبِطَ هَذِهِ بِتِلْكَ

(٢) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ .

قال له البخارى : فلم ينهج صاحب الشريعة هذه الطريق ، وكان يزول هذا الخصل ،
ويُفَى هذا الظن ، وتكسد هذه السوق ؟

فقال أبو سليمان : إن صاحب الشريعة مستغرق بالنور الإلهى ، فهو على ما يراه
ويبصر ، ويجده وينظره ، لأنه مأخوذ بما شهد بالعيان وأدركه بالحس
وناله بوديعة الصدر عن كل ما عداه ، فلهذا يدعو إلى اقتباس كماله
الذى حصل له ، ولا يسعد بدعوته إلا آمن وفق لأجابته ، وأذن لطاعته
واهتدى بكلمته ، والفلسفة كمال يشرى فقير إلى الكمال الإلهى ،
والكمال الإلهى غنى عن الكمال البشرى والكمال البشرى فقير إلى
الكمال الإلهى ، فهذا هذا ، وما أمر الله عز وجل بالاعتبار ، ولا حث على
التدبر ، ولا عك القلوب إلى الاستنباط ، ولا حب إلى القلوب البحث فى
طال المكنونات ، إلا ليكون عبادهم حكماء الباء أتقياء أذكىاء ، ولا أمر
بالسليم ولا حظر الغلو والإفراط فى التعمق إلا ليكون عبادهم لاجئين إليه
امتوكلين عليه ، معتصمين به ، خائفين منه ، راجين له يدعونه خوفاً
وطمعاً ، ويعبدونه رغياً ورهباً ، فبين ما بين حرصاً على معرفته وعباده ،
وطاعته وخدمته ، وأخفى ما أخفى لتدوم حاجتهم إليه ، ولا يقع الغنى
عنه ، وبالحاجة يقع الخضوع والتجود ، وبالاستغناء يعرض التجبر
والتمرد ، وهذه أمور جارية بالعادة ، موثابة بالسيرة الجائرة والعدالة ،
ولا سبيل إلى دفعها ورفعها وإنكارها وجحدها ، فلهذا لم ينس كل من أدرك
بعقله شيئاً أن يتم نقصه بما يجده عنده كل من أدرك بوحى من ربه .

وقال أيضا : مما يؤكد هذه الجملة أن التريعة قد أتت على مقتول كثير ،
بنور الوحي المنير ولم تأت الفلسفة على شيء من الوحي لا كثير ولا
قليل . قال : وليس ليونان نبي يُعرفه ولا رسول من قبل الله صادق ،
وإنما كانوا يفرعون إلى حكمائهم ، فى وضع ناموس يجمع مصالح
حياتهم ، ونظام عيشهم ، ومنافع أحوالهم فى عاجلتهم ، وكانت ملوكهم
تحب الحكمة وتؤثر أهلها وتقدم من تحلى بجزء من أجزائها ، وكان ذلك
الناموس يعمل به ويرجع إليه ، حتى إذا أبلاه الزمان ، وتغلب الليل
والنهار ، عانوا فوضعوا ناموساً آخر جديداً بزيادة شيء على ما تقدم

أو نقصان ، على حسب الأحوال الغالبة على الناس ، والمغلوبة بين الناس ، ولهذا لا يقال إن الاسكندر فى أيام ملكه حين سار من المغرب إلى المشرق كانت شريعته كذا وكذا ، وكان يذكر نبياً يقال له فلان ، أو قال : أنا نبي^(١) ولقد واقع دارا وغيره من الملوك على طريقة الغلبة فى طلب الملك ، وحيازة الديار وجباية الأموال والسبى والغارة ، ولو كان للنبوّة ذكرٌ وللنبي حديث لكان ذلك منشورا مذكورا ، ومؤرخا معروفا .

قال الوزير (ابن سعدان) . هذا كلام عجيب ما سمعت مثله على هذا الشرح والتفصيل .

(قال أبو حيان مثنيا على أبي سليمان) قلت إن شيخنا أبا سليمان غزير البحر ، واسع الصدر ، لا يغلق عليه فى الأمور الروحانية ، والأنباء الإلهية والأسرار الغيبية ، وهو طويل الفكرة ، كثير الوحدة وقد أوتى مزاجاً حسن الاعتدال ، وخاطراً بعيد المنال ، ولساناً فسيح المجال ، وطريقته هذه التى اجتباها مكتنفة بمعارضات واسعة ، وعليها مداخل لخصائمه ، وليس يفى كل أحد بتلخيصه لها لأنه قد أفرز الشريعة من الفلسفة ، ثم حث على انتحالهما معا ، وهذا تشبيه بالمناقضة ، وقد رأيت صاحباً لمحمد بن زكريا فى هذه الأيام ورد من الرى يقال له . أبو غانم الطبيب يشادّه فى هذا الموضع ويضايقه ، ويلزمه القول بما أنكره على الخصم ، وإذا أذنت رسمت كلامهما فى ورقات . (أى وضحت ذلك كتابة) .

فقال الوزير (ابن سعدان) قد بان الغرض الذى رعى إليه ، وتقليبه بالجدل لا يزيده إلا إغلاقاً ، والقصد معروف ، والوقوف عليه كافٍ ، ومع هذا فليت حفظنا منه كان يتوفر بالتلاقى والاجتماع ، لا بالرواية والسماع ، هات فائدة الوداع ، فلقد بلغت فى المؤانسة غاية الإمتاع .

(قال أبو حيان) قلت : أكره أن أختم مثل هذه الفقرة الشريفة بما يشبه الهزل وينافى الجد ، فإن أذنت رويت ما يكون أساساً ودعامة لما تقدّم .

قال الوزير : هات ما أحببت ، فما عهدنا من روايتك إلا ما يشوقنا إلى رؤيتك .

قال (أبو حيان) قلت : قال ابن المقفع . عمل الرجل بما يعلم أنه خطأ هو ، والهوى آفة العفاف ، وتركه العمل بما يعلم أنه صواب تهاون ، والتهاون آفة

(١) المرحع السابق

الدِّينَ ، وإقدامه على ما لا يعلم أصوابُ هو أم خطأ . لجاج ، واللجاج
أفة الرأي .

فقال (الوزير) حرس الله نفسك . ما أكثر رونق هذا الكلام ، وما أعلى رتبته في كُنه
العقل أكتبه لنا ، بل اجمع لى جزءا لطيفا من هذه الفقر ، فإنها تروِّح
العقل فى الفينة بعد الفينة ، فإنها نُور العقل ليس يشعُّ فى كل وقت ، بل
يُشعُّ مرة ويبرق مرة فإذا شعَّ عم نفعه ، وإذا برَّق خص نفعه ، وإذا
خفى بطلَ نفعه



• مثالب الوزيرين

تحدثنا في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب في أكثر من موضع عن الوزيرين الشهيرين : أبى الفتح بن العميد ، والصاحب بن عباد ، وهما الوزيران اللذان قصدهما أبو حيان التوحيدى بالرأى عاصمة النوبيين طالباً عطاءهما ، ولكنهما لم ينيلاهما ما كان يأمله منهما فرجع فى عام ٢٧٠ هـ إلى بغداد باقما على الصاحب بن عباد ، عازماً على إنشاء كتاب يعد فيه مثالبه ومخازيه ، ولم ينس ما لقيه أيضاً من ذى الكفائتين أبى الفتح بن العميد الذى وَزَرَ لركن الدولة بن بويه بعد وفاة والده الوزير أبى الفضل فى عام ٣٦٠ ، وظل أبو الفتح فى الوزارة إلى عام ٣٦٦ فالت الوزارة بعد ذلك إلى الصاحب بن عباد ، حيث وَزَرَ لمؤيد الدولة الذى تولى الملك بعد وفاة أبيه ركن الدولة فى ذلك العام (٣٦٦) وهو ذات العام الذى قبض فيه على أبى الفتح وفيه أيضاً اغتيل بيد عضد الدولة أخى مؤيد الدولة .

ففى هذين الوزيرين . أبى الفتح بن العميد^(١) والصاحب بن عباد أُلّف أبو حيان كتابه المذكور (مثالب الوزيرين) ويسميه ياقوت أحياناً بأخلاق الوزيرين أو ثلب الوزيرين أو كتاب الوزيرين ومرة خامسة باسم كتاب هفوات ابن الصابى (يريد ابن عباد) .

ابن سعدان يسأل أبا حيان عن ابن عباد :

حينما تولى أبو عبد الله بن سعدان الوزارة لصمصام دولة البويهى ببغداد فى عام ٣٧٣ هـ . كان لأبى حيان التوحيدى شرف مسامرته والحديث إليه بواسطة صديقه أبى الوفاء المهندس ، وفى إحدى ليالى أبى حيان سأل الوزير بنحوه .

" قال . إننى أريد أن أسالك عن ابن عباد فقد انتجعت^(٢) وخبرته وحضرت مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته وعن علمه وبلاغته ، وغالب ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ، فما أظن أننى أجِدُ مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له على أننى قد شاهدته بهمدان لما وافى ولكننى لم أعجمه ، لأنَّ اللُّبَّ كان قليلاً ، والشغل كان عظيماً ، والعائق كان واقعا .

فقلت : إننى رجلٌ مظلوم من جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديد الغيظ لحرمانى ، وإنَّ وصفته أربيت (زدت) منتصفاً ، وأتقصفت منه مسرفاً ، فلو كنت

(١) الدكتور / أحمد محمد الحومى - أبو حيان التوحيدى - ج/٢ ص ٦٩ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة - لأبى حيان التوحيدى ح/١ ص ٥٢ ، ٥٤ .

معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عارياً منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلق على أنى علمت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسي الغزير ، ولغظي الطويل والقصير ، وهى فى المسودة ولا جسارة على تحريرها ، فإن جانبه مهيب ، ولمكره ديب ، وقد قال الشاعر

إلى أن يغيب المرء يرجى ويُتقى ولا يعلم الإنسان ما فى المغيب

قال . دع هذا كله ، وانسخ لى الرسالة من المسودة ولا يمنحك ذاك ، فإن العين لا ترمقها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها (أى أنت فى مأمن من ابن عباد) .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جيل عليه ، أو بما اكتسب هو بيديه من خير وشر ، وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنه مع علمه الواسع ، وكرمه السابغ ، يصف المحسن والمسيئ ، ويتثنى على هذا ويتثنى على ذاك (يخبر بذنوبه) فاذا ذكر لى من أمره ما حف اللفظ به ، و ، بـر خاطر إليه وحضر السبب له .

قلت . إن الرجل كثير المحفوظ حاضر الجواب ، فصيح اللسان ، قد نف من كل أدب خفيف أتهباء ، وأخذ من كل فن أطرافاً ، والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة ، وكتابتُه مهجنة بطرائقهم ، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب ، وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهيدسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد^(١) ، وليس (عنده) بالجزء الإلهى خبر ، ولا له فيه عين ولا أثر ، وهو حسن القيام بالعروض والقوافى ويقول الشعر ، وليس بذاك ، وفى بديهته غزارة ، وأما رويته فجواره ، وطالعه الجوزاء والتعري قريبة منه ، ويتشيع لمذهب أبى حنيفة ومقالة الزيدية ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة ، والناس كلهم محجمون عنه لجرأته وسلاطته ، واقتداره وبسطته ، شديد العقاب طفيف الثواب ، طويل العتاب بذئ اللسان .

وأخذ أبو حيان التوحيدى يسرد وسعد من صفات الصاحب بن عباد التى وصفه بها ، وأسمات التى خلعها عليه ، لكى يصوره بالصورة التى يرتئىها لابن سعدان ، وحتى يرجع هو فى كفة الميزان ، وقلمًا يصفه بصفة ترفعه ولا تخفضه ، أو عبارة تعلية ولا تدحضه ، فهو فى رأيه «حسود ، حقود حديد ، وحسده وقف على أهل الفضل ، وحقده سار إلى أهل الكفاية ، وأما الكتاب والمتصوفون فيخافون سطوته ، وأما المنتجعون فيخافون جفوته ، وقد قتل خلقاً وأهلك ناساً ، ونفى أمة نخوة وتعنتاً ، وتجبراً وزهواً ، وهو فى هذا يخدعه الصبى ويخلبه الغبى ...» .

(١) المرجع السابق .

وف . ولم يزر للرجل صفة طيبة - وفي رأى أن الزرابة التي ألد
 بالصاحب بن عباد ، هي الدافع الأول لإحراقه كتبه في أواخر أيامه ، وإن لم يذكر ذلك
 صراحة في رسالته التي بعث بها إلى القاضي أبي سهل على بن محمد - وراح أبو
 حيان يحكى للوزير ابن سعدان ، ويؤكد له أن الذين أوصلوا الصاحب بن عباد لهذا
 الحد من الزهو والخيلاء هم طالبو رفته ، ومنتجعوه لعطاياه ، وضرب أمثلة بالرسائل
 التي ترد إليه وما فيها من التزلف والنفاق ، والتكلف والاسترقاق .

ولم يقف أبو حيان عند هذا الحد من مهاجمة الصاحب بن عباد ، بل جعل
 المترددين عليه كقطع الشطرنج ، في يده يلعب بهم كيف يشاء^(١) ، ويجتذهم للهدف
 الذى يريد ، بل إنه قد يصوغ بيتا أو بيتين من الشعر ، يدفعهما إلى أحد الناس
 المترددين عليه ، يعلى فيهما من قدر نفسه ويخفف من قدر المادح ما شاء ، ويوعز
 لذاك الرجل أن يتهافت عليه متطفلاً لإلقاء هذين البيتين من الشعر فيسمح له بتأفف .

ولم ينج من نقده ولّى الأمر وصاحب السلطان الملك مؤيد الدولة بن بويه وكذلك أخوه
 فخر الدولة وهما اللذان استوزراه وأحلاه تلك المكانة فيقول « وقد أفسده أيضا ثقة
 صاحبه به ، وتعويله عليه ، وقلة سماعه من الناصح فيه فعذر بازدهاء المال والعلم
 والاقتدار ، والأمر والكفاية ، وطاعة الرجال وتصديق الجلساء والعادة الغالبة ، وهو فى
 الأصل محدود (محظوظ) لا جرم ، ليس يقله مكان دلالا وترفا وعجبا وتيها وصلاحا » .

فقال (الوزير ابن سعدان) : « لاشك أن المسودة جامعة لهذا كله - يقصد ما كتبه
 عن ابن عباد من مثالب - (فرد عليه أبو حيان) : تلك تجزئ (تجزئ) فى دست كاغد
 فرعونى ، فقال . أجد تحريرها وعلى بها ، ولك الضمان ألا يراها إنسان ، ولا يدور
 بذكرها لسان . قلت السمع والطاعة » .

أبو حيان يسوق الشواهد من النقد فى تقييم ابن عباد :

" قال (ابن سعدان) قد تركنا من حديثه ما هو أولى مما مر بنا ، كيف بلاغته من
 بلاغة ابن العميد ؟ وأين طريقتة من طريقة ابن يوسف والصابى ؟ قلت : قد سألت
 جماعة عن هذا ، فأجابنى كل واحد بجواب ، إذا حكيت عنه ، كان ما يقال فيه ألصق ،
 وكنت من الحكم عليه وله أبعد .

(١) المرجع السابق ص ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١ .

قال : صف هذا .

قلت . سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عبّاد في كتابته ، فقال . يرتفع عن المتعلمين فيها بدرجة أو بدرجتين ، وقال على بن القاسم . هو مجنون الكلام ، تارة تبدو لك منه بلاغة قُسرٌ ، وتارة يلقيك بعىّ باقل ، تحريف كثير المعاني ، وإحالة في الوضع ، وغلط في السجع ، وشروء عن الطبع .

وقال ابن المرزبان . هو كثير السرقة ^(١) سيء الإنفاق ، ردى القلب والعكس ، فَرَوقة (شديد الفزع) في إirاده ، هزيمته قبل هجومه ، (وإحجامة) أظهر من إقدامه . وقال الصابي . هو مجتهد غير موفّق ، وفاضل غير منطّق (غير بليغ) ؟ ولو خطأ كان أسرع له ، كما أنه لما عدا كان أبطأ عليه ، وطباع الجبلى مخالف لطباع العراقي . يثب مقاربا فيقع بعيدا ، ويتناول فيتقاعس قعيدا .

وقال علي بن جعفر . ممّ كانت الطبائع . هو يكذب نفسه بحُسن الظنّ في البلاغة ، وطباعه تصبّق عنه بالتخلف ، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى ، فأما شيء اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة ، وأما إحالته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة... "

عود إلى كتاب مثالب الوزيرين :

قبل أن نعود للحديث عن هذا الكتاب ، وقبل أن ننساق مع أبي حيان وهو في نشوة التشفّي من ابن عبّاد ، نذكر بعضنا بعضا بشيء من حياة الرّجل ، قال الدكتور حامد حفي : « ولم تكن ^(٢) ثقافة صاحب مقصورة على ما أخذه من ابن العميد (أبي الفضل) من صناعة الكتابة ، أو ما أفاده في رحلاته إلى بغداد من علوم اللغة ، بل أضاف إلى جانب ذلك ثقافات شيعية تلقنها من بيئته ، وقد كانت بلاد ايران منذ عصر بنى بويه مهذا للتشيع والشيعية ، كذلك تلقن في هذه البيئة ثقافات اعتزالية تتعلق بعلم الكلام ، والمناظرات وطرائق الجدال والحوار وقد كان أكثر الشيعة يدينون بالاعتزال . فأنت ترى - مما قدمته لك - أن صاحب بن عبّاد شيعي معتزلي ، وكاتب شاعر واسع الثقافة ذو مشاركة في كثير من العلوم المعروفة في عصره » .

(١) المرجع السابق ص ٦١ .

(٢) الدكتور حامد حفي داود - الآداب الاقليمية في العصر العباسي الثاني

وأما الكتاب محل الدراسة فموضوعه تعديد الجوانب الضعيفة - في رأى أبي حيان - لكل من أبي الفتح بن العميد والصاحب بن عباد ، ويتبين من القدر الذي نقله من هذا الكتاب - وهو غير قليل - أن ما يخص الصاحب أكثر مما يخص ابن العميد ، وإن الحق على الصاحب أشد من السخط على أبي الفتح - خاصة\ وأن هذا الأخير أودى شهيداً على يدي من أذاقه العذاب ألواناً لتمسكه بمبادئه وإيفائه بعهوده - ولا عجب في هذا ، فإننا لا نعرف الزمن الذي قضاه عند أبي الفتح ، ولم نعلم مقدار أمله فيه ، لكننا علمنا أنه قضى زمناً أطول عند ابن عباد بالرئى (٣٦٧ - ٣٧٠) وأنه خدمه ، وأمل فيه أملاً عظيماً . غير أن أمله ذهب هباءً ، فعاد إلى بغداد حانقاً أشد الحنق عليه .

أبو الفتح ابن العميد

يقتضى التنويه على ذكر ذى الكفائتين أبي الفتح بن العميد ، أن أبا حيان لا قد يذكر أباه قبله بكنيته (أبي الفضل) ، وهو على عهده دائماً يحاول البحث عن النقائص ما اهتدى إلى ذلك سبيلاً قال : فأما ابن العميد ^(١) فإننى سمعت ابن الجمل يقول . سمعت ابن ثوبة يقول . أول من أفسد الكلام أبو الفضل ، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظن أنه إن تبعه لحقه ، وإن تلاه أدركه ، فوقع بعيداً عن الجاحظ ، قريباً من نفسه ، ألا يعلم أبو الفضل أن مذهب الجاحظ مدبرٌ بأشياء لا تلتقى عند كل إنسان ، ولا تجتمع في صدر كل أحد ، بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق (رغبته في الكتابة) والمنافسة والبلوغ ، وهذه مفاتيح قلماً يملكها واحد ، وسواها مغالِق قلماً ينفك منها واحد .

وأما ابنه ذو الكفائتين ، فلو عاش كان أبلغ من أبيه ^(٢) كما كان أشعر منه ، ولقد تشبه بالجاحظ فافتضح في مكاتباته لإخوانه ، ومجانتة في كلامه ، ومسائله لمعلمه التي دلتنا على سرقة وغارته ، وسوء تأنيه ، في تسترّه وتغطيه ، ومن شاء حمق نفسه ، وكان مع ذلك أشد الناس ادعاءً لكل غريبة ، وأبعد الناس من كل قريبة ، وهو نزر المعانى ، وشديد الكلف باللفظ ، وكان أحسد الناس لمن خط بالقلم أو بلغ باللسان ، أو فليج في المناظرة ، أو (فكه) بالنادرة ، أو أغرب في جواب ، أو اتسع في خطاب ،

(١) الإمتاع والمؤاساة لأبي حيان ص ٦٦

(٢) المرجع السابق ص ٦٦ ، ٦٧ . (ومن أول حديثه . "فأما ابن العميد ... يتأكد لنا أنه تناول كلام من الوالد وولده بالنقد الجارح ولا سيما الابن) وهذا لا يتعارض مع القول بأن المراد بابن العميد من كتابه مثال الوزيرين هو أبو الفتح .

ولقد لقي الناس فيه الدواهي لهذه الأخلاق الخبيثة ، وقد ذكرت ذلك في الرسالة ، وإذا بِيَضَّتْ وَقَفَتْ عليها (الخطاب لابن سعدان) من أولها إلى آخرها إن شاء الله .

وحتى لا ننساق أيضا مع ابن حيَّان في تشفيِّه من أبي الفتح بن العميد ، نذكر عن الرجل نبذة من حياته دفاعاً عنه - وقد سبق أن ذكرنا شيئاً من هذا القبيل - ولد أبو الفتح بن العميد عام ٣٢٧ هـ وقتل سنة ٣٦٦ هـ . كذا ذكر ابن الصابي ، وكان أدبياً فاضلاً بليغاً ، قد اقتدى بأبيه في علو الهمة وبعد الشأو في الكرم والفضل :

إِنَّ السَّرِيَّ إِذَا سَرَى فَبِنَفْسِهِ وابن السَّريِّ إِذَا سَرَى أَسْرَاهُمَا
وكان أبوه قد أدبه فأحسن تأديبه ، وهذبه أبو حسين بن فارس اللغوى وأحسن تهذيبه ، ولما مات في الوقت الذي ذكرناه في ترجمته وهو سنة ستين وثلاثمائة (١) قام مقامه في وزارة ركن الدولة ، وذلك قبل الاستكمال وفي بُعد من الاكتهال ، وعمره حينئذ اثنتان وعشرون سنة وألقى ركن الدولة مقاليدَه إليه ، وعوّل في تدبير السيف والقلم عليه ، فلما جرى لعز الدولة بُحْتِيَار بن مُعز الدولة ببغداد ما جرى مع غلامه سُبُكْتِكَيْن ، وأرسل إلى عمّه ركن الدولة يستعين به ، تقدّم إلى إبي الفتح بالمضى إلى شيراز (٢) ، والمسير بصحبة ولده عضد الدولة لإنجاد عزّ الدولة ، وورد إلى بغداد ، وجرى ما جرى من موت سُبُكْتِكَيْن ومحاربة أصحابه حتى أنجلو عنها ، وطمّع عضد الدولة فيها ، ومكاتبته إياه بمفارقتها (أى حينما طلب منه أبوه تركها) وتسليمها إلى عزّ الدولة ، وكتب ركن الدولة إلى أبي الفتح بالقيام بذلك والتكفل به (وهذا هو أوّل شيء اختزنه عضد الدولة لأبي الفتح) حتى يفارق عضد الدولة بغداد في قصة هي مذكورة في التواريخ . فتشددّ ابن العميد على عضد الدولة في ذلك ، وخاطبه مخاطبات حقدّها عضد الدولة عليه ... » .

إلى إن وابت عضد الدولة الفرصة التي كان يمتنى نفسه للتنكيل بأبي الفتح بن العميد . " فكتب عضد الدولة إلى أخيه مؤيّد الدولة يأمره بالقبض عليه واستصفاء أمواله وتعذيبه ، فقبض عليه وحمله إلى بعض القلاع ، وبدرت منه إليه كلمات في حق عضد الدولة نُمِيتُ إليه ، فزادت في استيحاشه منه ، فأنهض من حضرته من تكفل

(١) يسه الباحث . أن هذا التاريخ ذكر خطأ في الجزء الرابع عشر من معجم الأدباء ص ١٩٢ حيث ذكر أن أبا الفصل مات سنة ٣٢٠ والصواب هو ما أشتاه (٣٦٠هـ) .

(٢) ياقوت الحموي - معجم الأدباء من ص ١٩١ - ٢٤٠ .

بتعذيبه ، واستخراج أمواله ، والتكيل به فأول ما عمل أن سَمَلَ إحدى عينيه ، ثم نَكَلَ به وجزَّ لحيته ، وجدع أنفه ، وعُدَّب بأنواع من العذاب . قال .

بُدِّلَ مِنْ صُورَتِي الْمَنْظَرِ
وَلَيْسَ إِشْفَاقاً عَلَى هَالِكِ
وَوَالِهِ الْقَلْبَ لِمَا مَسَّنِي
فَقُلْ لَنْ سُرَّ بِمَا سَاعَنِي

وَوُجِدَ عَلَى حَائِطِ مَجْلِسِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ .

مَلِكٌ شُدَّ لِي عُرا الميثاق
لَمْ يَحُلْ رَأْيُهُ وَلَكِنْ دَهْرِي
فَقَرَى الْوَحْشَ مَنْ عِظَامِي وَلَحْمِي (١)
فَعَلَى مَنْ تَرَكْتُهُ مِنْ قَرِيبِ

وفى بنى العميد يقول بعضهم .

مَرَرْتُ عَلَى دِيَارِ بَنِي الْعَمِيدِ
فَقُلْ لِلشَّامِتِ الْبَاغِي عَلَيْنَا

ومن شعره فى الحبس :

مَا بَالُ قَوْمِي يَجْفُونِي أَكَابِرُهُمْ
أَنْ تَقْصِرَ عَنِّي الْحَالُ تَقْطَعُنِي
أَغْيِرُهُمْ أَنْ هَذَا الدَّهْرُ أَسْكَنُنِي
قَبْدُمَاءَ رُمِيَتْ فَلَمْ تَبْلُغْ سَهَامُو

وَهُنَا نَتَوَقَّفُ قَلِيلاً لِنَرَى مَاذَا فَعَلَ أَبُو حَيَّانٍ إِزَاءَ هَذِهِ الْمَأْسَاةِ الَّتِي تَعْرِضُ لَهَا
أَبُو الْفَتْحِ بْنُ الْعَمِيدِ :

(١) المرجع السابق .

لقد ذكرنا أنفاً في معرض حديثنا عن أمانة أبي حيان في النقل والرواية أنه ذكر ما حدث لأبي الفتح ، بأمانة ودقة ، ونقلها عنه ياقوت في معجمه ، ولم يتزيد فيها ولم يبالغ ، بل حكاها كما وقعت فعلاً على رغم ما كان يحمل بين جنبه لابن العميد من الألم جراء مقاساته لنيل رفته وقد اتفقت روايته هذه مع الرواية التي رواها الثعالبي في يتيمة الدهر .

بعض مثالب ابن العميد

قال أبو حيان في كتاب (المحاضرات) ^(١) . وقصدت مع أبو زيد المرزوي دار أبي الفتح ذي الكفايتين ، فمُسعنا من الدخول عليه أشد منع ، وذكر حاجبه أنه يأكل ، فرجعنا بعد أن قال أبو زيد للحاجب .

أجلسنا في الدهليز إلى أن يفرغ من الأكل فلم يفعل ^(٢) ، فلما انصرفنا خزايا أنشأ يقول متمثلاً

على خُبز إسماعيل واقيةً البخلِ فقد حلّ في دار الأمان من الأكلِ
وما خُبزه إلا كَأوى ^(٣) يرى ابنه ولم ير أوى في الحُزون وفي السَّهلِ
وما خُبزه إلا كعنقاء ^(٤) مُغربٍ تُصَوِّرُ في بُسْطِ الملوك وفي المثلِ
يحدث عنها الناس من غير رؤيةٍ سوى صورة من أن تمر ولا تملئ

قال أبو حيان وأنشدنا أبو بكر القومسي الفيلسوف ، وكان بحراً عجاًبا ، وسراجاً وهّاجاً وكان من الضر والفاقة ، ومقاساة الشدة والإضافة بمنزلة عظيمة .. ثم انشدنا للعطوي .

(وذكر قصيدة عدتها ستة عشر بيتاً منها) :

مَنْ رَمَاهُ الْإِلَهُ بِالْإِقْتَارِ وَطِلَابِ الْغِنَى مِنَ الْأَسْفَارِ
هُوَ فِي حَيْرَةٍ وَضَنْكٍ وَإِفْلَا سِيبُوسٍ وَمَنْحَنَةٍ وَصَفَارِ
وقلت له يوماً : لو قصدت ابن العميد وابن عباد عسى تكون من جملة من ينفق عليهم ، وتحظى لذيهما ، فأجابني بكلام منه . معاناة الضر والبؤس أولى من مقاساة

(١) المرجع السابق الجزء (١٥) من ص ٩-١٢ إلى ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٩-١٢ .

(٣) أوى ابن أوى .

(٤) أي أن حظه مستحيل الوصول له كالعنقاء المصورة في بسط الملوك والتي تذكر في الأمثال .

الْجَهَّالِ وَالتِّيُوسِ الصَّبْرَ عَلَى الْوَحْمِ الْوَبِيلِ أُولَى مِنَ النَّظَرِ إِلَى مُحِيًّا كُلَّ ثَقِيلٍ ثُمَّ أَنْشَأَ
يَقُولُ

بَيْنِي وَبَيْنَ لُئَامِ النَّاسِ مَعْتَبَةٌ مَا تَنْقُضِي وَكِرَامُ النَّاسِ إِخْوَانِي
إِذَا لَقِيتُ لُئِيمَ الْقَوْمِ عَنَّفَنِي وَإِنْ لَقِيتُ كَرِيمَ الْقَوْمِ حَيَّانِي
فَفِي الْمَثَالِ السَّابِقِ الَّذِي سَقَنَاهُ لِأَبِي حَيَّانٍ عَنْ ابْنِ الْعَمِيدِ هُوَ لِلتَّحْدِيلِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ
يَتَّسَمُ بِالْبُخْلِ وَهُوَ اتِّهَامُ رَمَاهُ بِهِ أَبُو حَيَّانٍ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَجَرِّحْهُ كَمَا جَرَّحَ ابْنَ عَبَّادٍ إِلَى حَدِّ
الْإِسْفَافِ ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ ذَكَرَ يَاقُوتُ لِأَبِي حَيَّانٍ فِي آخِرِ كِتَابِ مَثَالِبِ الْوُزَيْرِينَ مَا يَبْنِي
عَنْ كَرَمِ ابْنِ الْعَمِيدِ وَسَخَائِهِ ، وَإِنْ كَانَ السَّخَاءُ عَلَى غَيْرِ أَبِي حَيَّانٍ وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :

" جَرَى بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي عَلَى مَسْكُوبِهِ شَيْءٌ ، قَالَ لِي مَرَّةً : أَمَا تَرَى إِلَى خَطَا
صَاحِبِنَا ^(١) - يَعْنِي ابْنَ الْعَمِيدِ فِي إِعْطَائِهِ فَلَانًا أَلْفَ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً ؟ لَقَدْ أَضَاعَ
هَذَا الْمَالُ الْخَطِيرَ فَيَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ .

فَقُلْتُ - بَعْدَ مَا أَطَالَ الْحَدِيثَ وَتَقَطَّعَ بِالْأَسْفِ ، أَيُّهَا الشَّيْخُ ، أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ وَاحِدٍ ،
فَاصْذُقْ فَإِنَّهُ لَا مَذْبَ لِّلْكَذِبِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، لَوْ غَلَطَ صَاحِبُكَ فَبِكَ بِهَذَا الْعَطَاءِ وَأَضْعَافِهِ ،
أَكُنْتَ تَتَخِيلُهُ فِي نَفْسِكَ مَخْطِئًا وَمُفْسِدًا أَوْ جَاهِلًا بِحَقِّ الْمَالِ ؟ أَوْ كُنْتَ تَقُولُ : مَا أَحْسَنَ
مَا فَعَلَ ، وَلَيْتَهُ أُرْبَى عَلَيْهِ ؟

فَإِنْ كَانَ الَّذِي تَسْمَعُ عَلَى حَقِيقَةٍ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يَرِدُ وَرَدُّ مَقَالِكَ إِنَّمَا هُوَ الْحَسَدُ ،
أَوْ شَيْءٌ آخَرُ مِنْ جَنْسِهِ ، وَأَنْتَ تَدْعِي الْحِكْمَةَ وَتَتَكَلَّفُ الْأَخْلَاقَ ، وَتُزَيِّفُ الزَّانِفَ ،
وَتَخْتَارُ مِنْهَا الْمُخْتَارَ ، فَاقْطِنِ لِأَمْرِكَ ، وَاطْلُغِ عَلَى سِرِّكَ وَشَرِّكَ .

أَبُو حَيَّانٍ يَثْنِي عَلَى أَبِي الْفَتْحِ بْنِ الْعَمِيدِ

لَمْ يَجِدْ أَبِي حَيَّانٍ فِيمَا وَجَدَ مِنْ مَا أَخَذَ عَلَى أَبِي الْفَتْحِ بْنِ الْعَمِيدِ - كَمَا زَعَمَ - إِلَّا
الْبُخْلَ وَاللَّهُوَ ، إِلَّا أَنَّهُ عَادَ فَنَفَى عَنْهُ الْبُخْلَ مِنَ الْمَثَالِ الَّذِي سَقَنَاهُ ثُمَّ إِنَّ صِفَةَ الْمَجُونِ
وَاللَّهُوَ هِيَ سِمَةٌ مِنْ سِمَاتِ الشَّبَابِ لَا سِيَّمَا الَّذِي نَشَأَ فِي النِّعَمِ الْعَمِيمِ ، عَلَى أَنَّ ابْنَ
الْعَمِيدِ قَدْ وَلِيَ الْوِزَارَةَ وَهُوَ غَضُّ السَّبَابِ بَعْدَ وَفَاةِ وَالِدِهِ فَتَنَسَّى أَيَّامَ الطَّرَافَةِ وَالْبِرَاءَةِ
وَأَعَدَّ لِلْأَمْرِ عِدَّتَهُ ، وَبَرَهَنَ عَلَى أَنَّهُ أَهْلٌ لِلْأُمُورِ الْجَسَامِ كَمَا حَكَيْنَا عَنْهُ آنَفًا ، فَإِذَا ذَكَرَ
أَبُو حَيَّانٍ عَنْهُ فِيمَا ذَكَرَ مِثْلًا شَيْنًا مِمَّا يَنْسِبُهُ إِلَيْهِ فَإِنَّمَا هُوَ تَحْصِيلُ حَاصِلِ لَا يَغْيِرُ مِنْ

(١) المرجع السابق ص ٥١ .

الحقيقة شيء قال « وهذا بالأمس ^(١) على بن محمد ذو الكفایتین اغتر بشبابه ، ولها عن حزم والأخذ بما كان أولى به ، وظن أن كفايته تحفظه ، ونسبه يكفيه .. ومشى فعثر ، وراب فخر ... » .

لكن أبا حيان ما لبث أن عاد فأعاد الحق لأهله وربما كان عن غير قصد ، صرح بهذا في قوله على لسان صديقه أبي الوفاء المهندس بعد عودته من الرى إلى بغداد ^(٢) ، « إنك تعلم يا أبا حيان إنك انكفأت من الرى إلى بغداد في آخر سنة سبعين (وثلاثمائة) بعد فوت مأموك من ذى الكفایتین - نصر الله وجهه - عابسا على ابن عباد مغيضاً منه .. » كذلك نقل عنه وهو يصف أبا الفتح في أيام وزارته حينما زار بغداد واحتشد بحضرته العلماء والأدباء والشعراء كلُّ يطرى وكلُّ يبدي إعجابه وقال " ودخل شهر رمضان ^(٣) فاحتشد وبالع ووصل ووهب ، فجرت في هذه المجالس غرائب العلم ، وبدائع الحكمة ، وخاصة ما جرى مع أبي الحسن العامرى ، ولولا طول الرسالة لرسمت ذلك كله في هذا الكتاب ... إلى أن يقول . وسمعت أبا إسحاق يقول : هو ابن أبيه لله دره ، وأخذ في تعظيم أبيه ... » .

وقال في معرض الحديث عن وفادته على دار الصاحب بن عباد حينما سألته عن ابن العميد - أبي الفتح .

« ما ذنبى إذا قال لى هل وصلت إلى ابن العميد ^(٤) أبي الفتح ؟ فأقول نعم رأيته وحضرت مجلسه ، وشاهدت ما جرى له ، وكان من حديثه فيما مدح به كذا وكذا ، وفيما تقدّم منه كذا وكذا ، وفيما تكلفه من تقديم أهل العلم واختصاص أرباب الأدب كذا وكذا . ووصل أبا سعيد السيرافى بكذا وكذا ، ووهب لأبى سليمان المنطقى كذا وكذا - فينزوى وجهه (أى الصاحب) ويُنكر حديثه ، وينجذب إلى شيء آخر ليس ممّا شرع فيه ، ولا ممّا حرك له ، ثم يقول : أعلم أنّك إنّما انتجعت من العراق ، فاقراً على رسالتك التى توسّلت إليه بها ، وأسهبّت تقرّظاً له فيها ، أفتمانع فيأمر ويشدّد فأقرؤها فيتغير ، ويذهل ، وأنا أكتبها لك (لابن سعدان) ليكون زيادة في الإفادة :

(١) الامتاع والمؤاساة (ج/٣) ص ٢١٢ .

(٢) المرحع السابق ج/١ ص ٣ .

(٣) ياقوت - معجم الأدباء ج/٥ ص ٥١ .

(٤) المرحع السابق ص ٣٦ ، ٢٧ .

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم هَيِّئْ لِي مِنْ أَمْرِي رَشْداً ، وَوَفِّقْنِي لِمَرْضَاتِكَ أَبَداً ^(١) ، وَلَا تَجْعَلْ الْحَرَمَانَ عَلَيَّ رَصِداً ، أَقُولُ وَخَيْرُ الْقَوْلِ مَا انْعَقَدَ بِالصَّوَابِ وَخَيْرُ الثَّوَابِ مَا تَضَمَّنَ الصَّدَقَ ، وَخَيْرُ الصَّدَقِ مَا جَلَبَ النِّفْعَ ، وَخَيْرُ النِّفْعِ مَا تَعَلَّقَ بِالْمَزِيدِ ، وَخَيْرُ الْمَزِيدِ مَا بَدَأَ عَنِ الشُّكْرِ وَخَيْرُ الشُّكْرِ مَا بَدَأَ عَنِ إِخْلَاصِ ، وَخَيْرُ إِخْلَاصٍ مَا نَشَأَ عَنِ اتِّفَاقٍ ، وَخَيْرُ اتِّفَاقٍ مَا نَشَأَ عَنِ تَوْفِيقٍ .

لَمَّا رَأَيْتُ شَبَابِي هَرَمًا بِالْفَقْدِ ، وَفَقْرِي غَنِيًّا بِالقِنَاعَةِ ، وَقِنَاعَتِي عَجْزًا عِنْدَ أَهْلِ التَّحْصِيلِ عَدَلْتُ إِلَى الزَّمَانِ أَطْلُبُ إِلَيْهِ مَكَانِي فِيهِ وَمَوْضِعِي مِنْهُ ، فَرَأَيْتُ طَرْفَهُ نَابِيًا ، وَعَيْنَانِهِ عَنْ رِضَايَ مَتْنِيًّا ، وَجَانِبِهِ فِي مِرَادِي خُتْنًا ... حَتَّى لَاحَتْ لِي غُرَّةُ الْاِسْتِزَادِ فَقُلْتُ . حَلَّ بِي الْوَيْلُ (المطر) وَسَلَّ بِبِي السَّيْلُ ، أَيْنَ أَنَا عَنِ مَلِكِ الدُّنْيَا وَالْفَلَكَ الدَّائِرِ بِالنُّعْمَى أَيْنَ أَنَا مِنْ مَشْرِقِ الْخَبَرِ وَمَغْرِبِ الْجَمِيلِ ، أَيْنَ أَنَا مِنْ بَدْرِ الْبَدُورِ ؟ وَسَعْدِ السَّعُودِ ؟ أَيْنَ أَنَا عَمَّنْ يَرَى الْبُخْلَ كَفْرًا صَرِيحًا ، وَالْإِفْضَالَ دِينًا صَحِيحًا ؟ أَيْنَ أَنَا مِنْ سَمَاءٍ لَا تَفْتَرُ عَنِ الْهَطْلَانِ ؟ وَعَنْ بَحْرِ لَا يَقْذِفُ إِلَّا الْوُلُوءَ وَالْمَرْجَانَ .. لِمَ لَا أَقْصِدُ بِلَادَهُ ، لِمَ لَا أَقْتَدِحُ زَنَادَهُ ؟ لِمَ لَا أَنْتَجِعَ جَبَابَهُ وَأَرْعَى مَزَادَهُ ؟ لِمَ لَا أُسْكِنُ رُبْعَهُ ؟ لِمَ لَا أَسْتَدْعِي نَفْعَهُ ؟ لِمَ لَا أَخْطُبُ جُودَهُ ؟ وَأَهْتَصِرُ عُودَهُ .

فَبِي صَيَغٍ مِنْ مَاءِ الشَّبِيبَةِ وَجْهَهُ فَالْفَاظَةُ جُودٌ ، وَأَنْفَاسُهُ مَجْدٌ

بعض مثالب الصاحب بن عباد :

قال أبو حيان (لابن سعدان) " .. وقصدت ابن عباد ^(٢) بأمل فسيح وصدر رحيب ، - فقدم إلي رسائله في ستين مجلدة على أن أنسخها له ، فقلت نسخ متله يأتي على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد (أى أتعجب لأنى تركتها ورأى في بغداد وأجدها أمامى فى الرى) فأخذ فى نفسه على من ذلك ، وما فرزت بطائل من جهته ، فقال (أى ابن سعدان) بلغنى ذلك . فقلت له : لو كان شيء يرتفع من السيد بمدة قريبة (أى لو أعطانى شئبنا ومنحنى مددة قريبة) لكنك لا تعطى وتوفر عليه ، ولو قرر معى أجز مثله لكنك أصبر عليه ، فليس لمن وقع فى شر الشباك وعين الهلاك إلا الصبر .

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع السابق ص ١٣ .

هذه الفقرة السابقة أوردها ياقوت نقلاً من المحاضرات لأبي حيان . « وقال أبو حيان في كتاب أخلاق الوزيرين من تصنيفه : طلع ابن عباد ^(١) على يوماً في داره ، وأنا قاعد في كسر إيوان أكتب شيئاً قد كان كادني به (كلفني به) فلما أبصرته (نهضت) قائماً ، فصاح بطلق مشقوق : اقعد فالورأقون أخس أن يقوموا لنا ، فهممت بكلام . فقال لي الزعفراني الشاعر . اسكت فالرجل رقيق ، فغلب على الضحك ، واستحال الغيظ تعجبا من خفته وسخفه ، لأنه قد قال هذا وقد لوى شدقه ، وشنَّج أنفه وأمال عنقه ، واعترض في انتصابه ، وانتصب في اعتراضه ، وخرج من تفكك مجنون ، وقد أفلت من دير جنون ، والوصف لا يأتي على كنه هذه الحال ، لأن حقائقها لا تدرك إلا باللحظ ، ولا يواتي عليها اللفظ ، فهذا كله من شمائل الرؤساء ، وكلام الكبراء ، وسيرة أهل العقل والرزانة ، لا والله وتربياً (خسرانا) من يقول غير هذا » .

وحدث أبو حيان قال : قال صاحب يومنا . فَعَلْ وأفعال قليل ، وزعم النحويون أنه ما جاء إلا زَنْد وأزناد ، وفرخ وأفراخ وفرد وأفراد ، فقلت له : أنا أحفظ ثلاثين حرفاً (لفظاً) كلها فعل وأفعال . فقال . هات يا مدعي ، فسردت الحروف ودلت على مواضعها في الكتب ، ثم قلت ليس للنحوي أن يلزم مثل هذا الحكم إلا بعد التبهر والسماع الواسع ، وليس للتقليد وجه إذا كانت الرواية شائعة والقياس مطرداً ، وهذا كقولهم (فاعل) : على عشرة أوجه ، وقد وجدته أنا يزيد على أكثر من عشرين وجهاً ، وما انتهيت من التتبع إلى أقصاه ، فقال خروجك من دعواك في (فعل) يدلنا على قيامك في (فاعل) ولكن ألا تأذن لي في اقتصاصك (أي في الاقتصاص منك) ولا نهب آذاننا لكلامك ، ولم يف ما أتيت به بجراؤك في مجلسنا وتبسطك في حضرتنا فهذا كما ترى . (أي تجرأت في مجلسنا وتبسطت في حضرتنا بدون استئذان) .

قال أبو حيان : وأما حديثي معه يعني ابن عباد ^(٢) ، فإنني حين وصلت إليه قال لي أبو من ؟ قلت أبو حيان ، فقال : بلغني أنك تتأدب فقلت : تأدب أهل الزمان ، فقال : أبو حيان ينصرف أولاً ينصرف ؟ قلت إن قبله مولانا لا ينصرف ، فلما سمع هذا تنمر وكأنه لم يعجبه ، وأقبل على واحد إلى جانبه وقال له بالفارسية : سفها على ما قيل لي ، ثم قال : إلزم دارنا وانسخ هذا الكتاب . (قصد صاحب بكلمة ينصرف في الإعراب فأولها أبوحيان إلى ترك المكان والانصراف) .

(١) المرجع السابق ص ٢٦ - ٢٨ .

(٢) المرجع السابق

ابن عباد يسأل أبا حيان عن أبي حيان :

" قال أبو حيان . وقال لى ابن عباد يوما : يا أبا حيان من كُنَّاك بأبى حيان ؟ قلت : أجلُّ الناس فى زمانه ، وأكرمهم فى وقته ، قال من هو وليك ؟ قلت أنت ، قال ومتى كان ذلك ؟ قلت حين قلت يا أبا حيان من كُنَّاك أبا حيان ، فأضرب عن هذا الحديث وأخذ فى غيره ، على كراهة ظهرت عليه .

قال : وقال لى يوما آخر - وهو قائم فى صحن داره والجماعة قيام ، فبينهم الزعفرانى ، وكان شيخا كثير الفضل جيد الشعر مُتَمِّع الحديث والتميمي المعروف بسطل ، وكان من مصر ، والأقطع وصالح الوراق وابن ثابت ، وغيرهم من الكتاب والندماء ، (قال) يا أبا حيان : هل تعرفُ فيمن تقدَّم مَنْ يَكْنَى بهذا الكنية قلتُ نعم ، من أقرب ذلك أبو حيان الدارمى (ثم استطرد للحديث عن سميّه) .

«حدثنا أبو بكر محمد بن محمد القاضى الدقاق قال حدثنا ابن الأنبارى قال حدثنا أبى حدثنا ابن ناصح قال : دخل أبو الهذيل العلاف على الواثق فقال له الواثق لمن تعرف هذا الشعر :

سَبَّـبَاكَ مَنْ هَاشِمٍ سَلِيلُ	ليس إلى وصلهِ سَبَّـبِيلُ
مَنْ يَتَعَاطُ (١) الصَّفَاتِ فِيهِ	فَالْقَوْلُ فِي وَصْفِهِ فَضُولُ
لِلْحُسْنِ فِي وَجْهِهِ هَلَالُ	لِأَعْيُنِ الْخُلُقِ لَا يَزُولُ
وُطْرَةٌ لَا يَزَالُ فِيهَا	لِنُورِ بَدْرِ الدُّجَى مَقْقِيلُ
مَا اخْتَالَ فِي صَحْنٍ قَصْرُ أَوْسٍ	إِلَّا لِيُسَجِّىَ لَهُ قَتِيلُ
فَإِنْ يَقِفْ فَالْعَيُونَ نُصَبُ	وَإِنْ تَوَلَّى فَهُنَّ حُـوْلُ

فقال أبو الهذيل : يا أمير المؤمنين ، هذا الرجل من أهل البصرة يعرف بأبى حيان الدارمى ، وكان يقول بإمامة المفضول (كان يفتى بجواز إمامة المفضول) فلما وُفِّيت الشعر ورويت الإسناد ، وريقى بليل (نَدَى) ولسانى طُلُق ووجهى متهلُّل وقد تكلفت هذا وأنا فى بقية من غرب الشباب (حَدَّثَهُ) وبعض ريعانه وملأت الدار صياحا بالرواية والقافية ، فحين انتهيت انكرت طرفه (أى ابن عباد) وعلمت سوء موقع ما رويتُ عنده قال : ومن تعرف أيضا (أى من يَكْنَى أيضا بأبى حيان ؟) قلت :

(١) يتعاط وصفه : يحاول وصفه .

ابن الجعابي الحافظ ، يكنى أبا حيان ، رجل صدق ، وهو يروى عن التابعين ، قال :
ومن تعرف أيضا قلت روى الصولي فيما حدثنا عنه المرزباني أن معاوية لما احتضر
أنشد يزيد عند رأسه :

لو أن حيّا نجاً لفات أبو حيّان لا عاجز ولا ولا
الحول^(١) القلب الأريب وهل يدفع صرف المنية الحية

(قال أبو حيان معلقا) وقال الصولي : وهذا (أى أبو حيان الوارد فى الشعر)
كان من المعمرين المغفلين ، وانتهى الحديث من غير هشاشة ولا هزّة ولا أريحية ، بل
على اكفرار وجه ، ونبو طرف ، وقلة تقّل ، وجرت أتياء آخر كان عقباها أنى فارقت
بابه سنة سبعين (وثلاثمائة) ، راجعا إلى دينة السلام (بغداد) بغير زاد ولا راحلة^(٢) ،
ولم يعطنى فى مدّة ثلاث سنين درهما واحدا ، ولا ما قيمته درهم واحد ، حمل هذا
على ما أردت ، ولما مال منى هذا الحرمان الذى قصدنى به وجعلنى من جميع غاشيته
فردأ أخذت ألهى فى ذلك صدق القول عنه ، وسوء الثناء عليه ، والبائى أظلم للأمور
أسباب ، وللأسباب أسرار ، والغيب لا يطّلع عليه ، ولا قارع لبابه .

وقصة لا بد منها :

قبل أن نستطرد فى سرد بعض مثالب ابن عبّاد التى ذكرها أبو حيان - لنا وقفة
مع أبى حيان نفسه ، ذلك أن القارئ قد أدرك بفطنته أن هذا الرجل قد فاته ما كان
يلحظه على غيره ، فهو - كما علمنا - استطاع أن يغوص فى أعماق النفس الإنسانية ،
وتأتى له أن يحلّل أمراض النفوس تحليلا جعله رائداً للطب النفسى ولكنّ العجب
العجاب أن يقع هو فريسة المرض الذى وصفه وشخصه . فقد علمنا من خلال أسئلته
التى وجهها لاستأنه مسكويه أنه قد أدرك ما يعنيه سؤاله . اقتران العجب بالعالم
سؤاله الذى يتعلق بمحاربة الناجح فى حياته بدافع الحسد وغيرها من الأسئلة التى
تستوضح أدواء النفس . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تبين لنا من المواقف التى
حدثت له مع ابن عبّاد أنه كان بعيدا كل البعد عن آداب مخاطبة الأمراء والوزراء ، لا
سيما أن ذلك العصر لا يعرف فيه إلا وريز واحد للدولة وقد اجتمعت فى يديه كل أمور
الدولة : الحربية والسياسية والاقتصادية والثقافية . فهل يليق بأبى حيان بعد هذا

(١) الحول : القوة والقدرة على التعرف والاريب البصير بالأمور .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢

إفحام صاحب بن عباد فى معرض الحديث عن القضية النحوية فعل وأفعال ، إذا ذكر ابن عباد أنها نادرة فى اللغة العربية كما قال النحويون فينبى له أبو حيان بالمعارضة والتدليل على أنه أعلم منه ومن النحويين ، وكذلك رده عليه الذى يتسم باسماجة . حينما سألته يا أبا حيان من كنك بأبى حيان ؟ فلم يرد عليه رداً مقنعاً ولما أعاد سؤاله عليه : أنت ، فقال ومتى كان ذلك ؟ قال : حين قلت يا أبا حيان من كنك بأبى حيان . فهل هذا أدب الحديث مع وزير الدولة وكتبتها والمؤتمن عليها ، بل إنه تجاوز حدّه فى أول لقاء معه حينما سألته بقوله : أبو من ؟ فقال أبو حيان ، فأراد أن يعلم مدى علمه بالنحو قائلاً : ينصرف أولاً ينصرف ؟ فردّ عليه بالتورية للتدليل على أنه أعلم من السائل ، إذ قال إن قبله مولانا لا ينصرف . فهو لا يقصد برده هذا عم صرف الاسم وإنما قصد عدم انصراف صاحب الاسم من دار الوزير .

مما سبق نستخلص أن النباهة المفرطة قد تكون وبالا على صاحبها إذا أسى فعلها فهل كنا نتوقع من صاحب بن عباد أن يُثنى على أبى حيان الذى أخرجته وأظهر للناس أنه أعلم منه ، أو يمتدح ذكاه وهو يتهرب من الرد الصريح عليه ، فى خروجه من الردّ (المباشر) إلى ردّ (غير مباشر) . أو كان ينتظر منه الإعجاب والإطراء وهو يسرد على الملأ ما استوعبته ذاكرته فى مباحاة وهو يملأ الدار صياحاً بالرواية والقافية.

مواقف أخرى مع ابن عباد

" قال أبو حيان ، قال لى صاحب يوماً ، وهو يحدث ^(١) عن رجل أعطاه شيئاً فتلكأ فى قبوله " (وهو يقول) ولابد من شيء يعين على الدهر ، ثم قال : سألت جماعة عن صدر هذا البيت فما كان عندهم ذلك ، فقلت ، أنا أحفظ ذاك . فنظر بغضب فقال : ما هو ؟ قلت : نسيت ، فقال . ما أسرع ذكرك من نسيانك . قلت ذكرته والحال سليمة ، فلما استحالت عن السلامة نسيت ، قال . وما حيلولتها ؟ قلت : نظر صاحب بغضب فوجب فى حسن الأدب ، ألا يقال ما يثير الغضب ؟ قال : ومن تكون حتى نغضب عليه . دع هذا وهات .

(١) المرجع السابق ص ٢٢ .

قلت قول الشاعر

أُلام على أخذِ القليلِ وإنَّما أصادفُ أقواماً أقلَّ من الذرِّ
فإنَّ أنا لم أخذْ قليلاً حُرِّمته ولأبد من شيءٍ يُعينُ على الدهرِ
فسكت

"وحكى أبو حيان قال : حضرت مائدة الصاحب بن عباد (١) ، فَقُدِّمَتْ مضيرة (مرقة تطبخ باللبن الطيب) فأمعنت فيها ، فقال لى . يا أبا حيان . إنها تضرُّ بالمشايخ فقلتُ : إن رأى الصاحب أن يدع التطبُّبَ على طعامه فَعَلْ فكأننى أَلْقَمْتُهُ حجراً وخجل واستحيا ولم ينطق إلى أن فرغنا .

" قال وكان ابن عباد شديد الحسد (٢) لمن أحسن القول وأجاد اللفظ ، وكان الصواب غالباً عليه وله رفق فى سرد حديثه ونيقة (توضيح) فى رواية ، وله شمائيل مخلوطة بالدعانة بين الاتسار والعبارة ، وهذا شيء عام فى البغداديين وكالخاص فى غيرهم " .

وحكى ابن عباد حكايات وأسندها إلى من أخبره بها . (٣)

ثم قال . فما ذنبى - أكرمك الله - إذا سألت عنه مشايخ الوقت وأعلام العصر ، فوصفوه بما جمعت لك فى هذا المكان ، على أنى قد سترت شيئاً كثيراً من مخازيه إماً هرباً من الإطالة ، أو صيانة للقلم من رسم الفواحش وبث الفضائح ، وذكراً ما يسمح مسموعه ، ويكره التحدث به . هذا سوى ما فاتنى من حديثه ، فإننى قد فارقت سنة سبعين (وثلاثمائة) .

وقال مبرراً قدحه لابن عباد " ما ذنبى ان ما ذكرت ما جرّعنيه من مرارة الخيبة بعد الأمل ، وحملنى عليه من الإخفاق بعد الطمع ، مع الخدمة الطويلة ، والوعد المتصل ، والظنُّ الحسن ، حتى كأننى خُصِمْتُ بخساسته وحدي ، أو وجب أن أعامل به دون غيرى .

(١) المرجع السابق ص ٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

خاتمة كتاب مثالب الوزيرين

لعلنا نكون أدنى إلى الصواب إذا استنبطنا من هذا الكتاب^(١) أنه لم يكن كله هج كما يفهم من اسمه ، ففيه هجاء وفيه وصف لأحوال الوزيرين وأخلاقهما ، وكفايتهما ، مع التحامل عليهما ، والجنوح إلى الغضب من شأنهما وخاصة مع ابن عباد فيها هو ذا يُثنى على عباد والد الصاحب والعميد والد أبي الفضل بن العميد قال :

" كان عباد يلقب بالأمين ، وكان ديناً خيراً ، مقدماً في صناعة الكتابة ، وكتب الأمين لركن الدولة ، كما كتب العميد لصاحب خراسان ، والأمين كان ينصر مذهب الأثنائي تديناً وطلباً للزلفى عند ربه ، والعميد كان يعمل لعاجلته .

وإن قلت كان العميد معلماً بقرية من قرى طالقان الذيل قيل : وكان والد العميد نخلاً في سوق الحنطة بقم " .

وقال عندما قارب الفراغ من كتابه هذا " ولولا أن هذين الرجلين - اعني ابن عباد وابن العميد - كانا كبيرى زمانهما ، وإليهما انتهت الأمور ، وعليهما طلعت شمس الفضل وبهما ازدانت الدنيا ، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشرا والقبیح يؤثر عنهما أثرا ، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا النسكع ، ولا أنحى عليهما بهذا الحد .

ولكن النقص ممن يدعى التمام أشنع ، والحرمان من السيد المأمول فاقرة (داهية) والجهل من العالم منكر ، والكبرة ممن يدعى العصمة جائحة (شدة وبلوى) والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب . ولو أردت - مع هذا كله - أن تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجبل والديلم ، إلى وقتك هذا المؤرخ في الكتاب لم تجد "

وختم أبو حيان في كتابه في أخلاق الوزيرين بعد أن اعتذر عن نعله ، ثم قال .

وانى لأحسد الذى يقول :

أَعُدُّ خَمْسِينَ حَوْلًا مَا عَلَى يَدِ^(٢) الْأَجْنَبِيِّ وَلَا فَضْلٌ لِّذِي رَحِمٍ
الْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا قَدْ قَنِعْتُ فَلَا أَشْكُو لئِيْمًا وَلَا أَطْرِي أَخَا كَرَمٍ
لأننى كنت أتمنى أن أكونه ، ولكن العجز غالب لأنه جنور فى الظينة ، ولقد أحسن

الآخر حين قال :

(١) د. أحمد محمد الحوفى - أبوجيان التوحيدى ج/٢ ص ٧٦ .

(٢) ياقوت / معجم الأدياء ج/١٥ ص ٤٨ .

ضَيِّقِ الْعُذْرَ فِي الضَّرَاعَةِ إِنَّا لَوْ قَنَعْنَا بِقَسَمِنَا لَكَفَانَا
مَا لَنَا نَعْبُدُ الْعِبَادَ إِذَا كَانَ إِلَى اللَّهِ فَقَرْنَا وَغَنَانَا
وَأَدْعُوهَا هُنَا بِمَا دَعَا بِهِ بَعْضُ النَّسَاكِ ، اللَّهُمَّ صُنْ وَجْهَنَا بِالْيَسَارِ ، وَلَا تَبْذُلْهَا
بِالْإِقْتَارِ ، فَتَسْتَرْزُقَ أَهْلَ رِزْقِكَ ، وَتَسْأَلَ شَرَّ خَلْقِكَ ، وَتَبْتَلى بِحَمْدٍ مَنْ أُعْطِيَ وَذِمَّ مَنْ
مُنِعَ ، وَأَنْتَ مَنْ دُونَهُمْ وَلِيُّ الْإِعْطَاءِ ، وَبِيَدِكَ خَزَائِنُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ . يَا ذَا الْجَلَالِ
وَالْإِكْرَامِ .



• خصائص أبي حيان الفكرية والفنية وموازنته بكتاب عصره :

لقد وصلت الثقافة العربية في القرن الرابع حداً عظيم الشأ، إذ تمتعت فيها ثقافات الأمم المتحضرة التي انطوت تحت لواء الإسلام ، والتي تُرجمت آثار كتابها ونُقلت فنونها إلى الحضارة العربية ، فقد صُهرت هذه الثقافات ببوتقة الثقافة العربية ، فأصبحت خصائص هذه الثقافة تدلُّ على القرن الرابع الهجري الذي يُعرف بربيع الثقافة العربية .

والكُتّاب في ذلك العصر نجدهم على ثلاثة ألوان .

١- كُتّاب جُلُّ موضوعاتهم رسائل ديوانية وإخوانية ومقامات وعهود ، وطريقتهم تعتمد على إثبات اللفظ والصناعة ، ومنهم ابن العميد وبيدع الزمان والخوارزمي وابن عباد ، وهم أشهر كُتّاب ذلك العصر .

٢- وكُتّاب يجولون في موضوعات ثقافية عديدة ، يحتفلون فيها بالمعنى أكثر من اعتنائهم باللفظ ، وجلُّهم تأثر بأساليب المناطق وتحاليل الفلاسفة وهؤلاء كاد الأسلوب العلمي يطغى على كتاباتهم الأدبية . ومن هؤلاء أبو على مسكويه وأبو الوفاء المهندس وعلى بن عيسى الرماني .

٣- وكُتّاب جمعوا بين محاسن اللونين السابقين فهم قد اعتنوا بالمعنى واللفظ معا ، وجمعوا بين الصناعة اللفظية والتحليل المنطقي ، ومن هؤلاء أبو سعيد السيرافي وأبو سليمان المنطقي وأبو حيان التوحيدي وهذه السمة بارزة في كتابات التوحيدي إذ يقول :

فإن الكلام صلف تياً لا يستجيب لكل إنسان ، ولا يصحب كل لسان ، وخطره كثير^(١) ومتعاطيه مغرور وله أرنُ (نشاط) كأرن المهر وإباء كإباء الحرون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ، وهو يتسهل مرة ، ويتعسر مرارا ، ويدل طورا ويعز أطوارا ، ومادته من العقل . والعقل) سريع الحؤول (التحول) خفي الخداع ، وطريقه على الوهم ، والوهم شديد السيلان ومجراه على اللسان ، واللسان كثير الطغيان ، وهو مركّب من اللفظ اللغوي والصوغ الطباعي ، والتأليف الصناعي ، والاستعمال الاصطلاحي ، ومستملا من الحجا ، ودريّه (دريانه وعلمه) بالتمييز ، ونسجه بالركة والحجا في غاية النشاط ، وبهذا البون يقع التباين ويتسع التأويل ويجول الذه وتتمطى الدعوى ، ويفزع إلى البرهان .

(١) الامتناع والموانسة لأبي حيان ج/١ ص ٩ .

غلبة أصحاب الصناعة اللفظية والأساليب الزخرفية فى القرن الرابع :

لا يذكر القرن الرابع الهجرى إلا ويذكر معه ما وصل إليه الكُتَّاب من التفنُّن فى الكتابة النثرية وحشدها بألوان البديع ، حتى قيل إنَّهم أوَّل من ابتكر طريقة الشعر المنثور (إن صحَّ) ، والذين أثَّروا على هذا النفر من الكُتَّاب هم أدباء العراق والشَّام ومصر وأثَّروا بوجه خاص على شعراء الجبل والديلم يقول الثعالبي : " والسبب فى تبرز القوم قديماً^(١) وحديثاً على من سواهم فى الشعر . قريهم من خطط (سنن) العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق، المجاور للفرس والنبط ولداخلتهم إياهم ، ولما جمع شعراء العصر بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة انبعثت قرائحهم فى الإجابة فقادوا محاسن الكلام بالين زمام وأبدعوا ما شاعوا . وأخبرنى جماعة من أصحاب الصاحب أبى القاسم إسماعيل بن عباد أنه كان يعجب بطريقتهم المثلَّى التى هى طريقة البحترى فى الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة " .

فكتاب الرسائل الديوانية والإخوانيات والمقامات هم الذين عنوا بالأناقة اللفظية أيَّما اعتناء وحشدوا كتاباهم بالأشعار التى عزاها صاحب يتيمة الدهر إلى مدرسة البحترى التى تمتاز بالجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة والتى جمعت بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة " فأصبح هؤلاء الكتاب بفضل تمكنهم من هذا اللون من الكتابة من الوزراء والحكام وذوى الجاه ، ولأنَّ مقاليد الحكم بأيدي الأعاجم ، وهم يجنحون إلى الزخرف والصناعة^(٢) ، ولأنَّ العربية الأصيلة كان ظلها يتقلص فى الأدب والتعبير كما تقلص سلطانها فى الملك والحكم والسياسة فنهضت اللغة بفضلهم فى هذا القرن كما ساهم مفكرو نوى الثقافات الأجنبية فى إحداث موازنة بين الثقافة الأصلية والحكمة المترجمة. ولم يكن للعرب أو المسلمين ميل لترجمة الآداب اليونانية التى تحمل أساطير عن آلهتهم ومعتقداتهم والإسلام فى غناء عن هذا بل إنَّه الدين الذى اصطفاه الله ليظهره على الدين كله ، ولم يحفل بهذه الترجمات إلا القلة من المولَّدين .

أبو حيان التوحيدى فى ميزان النقد :

إنَّ أبا حيان التوحيدى قد خرج على الموضوعات الغالبة فى عصره - على رغم ما تسنَّه كُتَّاب ذلك اللون من مراتب عالية - فلم يحفل بالكتابات الديوانية والمقامات

(١) الثعالبي يتيمة الدهر ص ٢٦ ، ٢٢ .

(٢) د أحمد محمد الحومى / أبو حيان التوحيدى ج/٢ ص ١٠٥ .

وكتابة العهود مع أنه يحسن إجادتها لو أراد ، وخرج أيضا على الأسلوب الشائع فى القرن الرابع أسلوب الإعتفال باللفظ والصناعة أكثر من الفكرة .

وهذا النحو الذي نجاه قد حدا بكثير من النقاد والدراسين أن يصفوه بأنه نسيج وحده فهذا المستشرق آدم ميتز يصفه فى كتابه الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى كما نقل ذلك عنه الدكتور الحوفى قال : «إن رسائل القرن الرابع الهجرى هى أجمل آية للفن الإسلامى (١) ، ومادتها أنفس ما اشتغل به الفنانون ، وهى اللغة ولو لم تصل إلينا آيات الفن الجميلة التى صنعتها أيدي الفنانين فى ذلك العهد من الزجاج والمعادن ، لاستطلعنا أن نرى فى هذه الرسائل مبلغ تقدير المسلمين للجمال الرقيق ، وامتلاكهم للاحية البيان فى أصعب صورته وتلاعبهم بذلك تلاعبا ..

إلى أن يقول : « هذه الطريقة بما فيها من زخاف كثيرة ، جعلت اللغة سلسلة القياد ، قوية التعبير ، وزادتها تلطيفا ، رغم الاختصار ، وهى الطريقة التى لجأ إليها كل الذين كانوا يريدون التعبير عما فى نفوسهم ، راعين فى ذلك ما أرادوا من الإيجاز والقوة والحرية فى التعبير ، وقد بلغ أبو حيان التوحيدى المتوفى عام ٤٠٠ هـ مرتبة الأستاذ لهذه الطريقة » .

«وأول ملاحظة أنه كان عالما بدقائق الأسلوب الرائع ، وقادراً عليه ، غير أننا نكاد لا نلاحظ فى أسلوبه ذلك التكلف الذى نجده عند غيره من الأدباء ، ولم يكتب فى النشر العربى بعد أبى حيان ما هو أسهل وأقوى وأشد تعبيراً عن شخصية صاحبه مما كتب أبو حيان . ولكن الجمهور يميل إلى طريقة الآخرين فى البديع ، ولقد كان أبو حيان فنانا غريباً بين أهل عصره ، وكان يعانى وحشة من يرتفع على أهل زمانه ويتقدم عليهم » .

فأبو حيان التوحيدى - كما أسلفنا القول - واحد من عمدة الثقافة العربية فى ذلك العصر الثقافى الزاهر ، حتى ليعتبره بعض المؤرخين الناطق بلسان الثقافة العربية فى القرن الرابع الهجرى ، وقد قال فيه ياقوت « وهو فى ذلك فرد الدنيا الذى لا نظير له (٢) ذكاء وفطنة وفصاحة ومكنة ، كثير التحصيل للعلوم فى كل فن حفظه ، واسع الدراية والرواية ، وكان فى ذلك محدودا محارفا (محروما) يتشكى صرف زمانه ويبكى فى تصانيفه على هرمائه » .

(١) المرجع السابق ص ١٠٦

(٢) ياقوت - معجم الأدباء ج/ ١٥ ص ٥

سمات كتابات التوحيدى :

* من أهم السمات التى تمتاز بها كتاباته معانقة الفكرة والأسلوب^(١) ، فهو لا يعتمد على جرس الكلمة ووقع الجملة فحسب بل لابد أن يكون قلبه متيقظا وعاطفته جياشة " فهو كاتب فكرة حيث يعبر عن فكرة ، وكاتب عاطف حين يصور عاطفة وخير ما يمثل مذهبه قوله : «إن البليغ ينبغي به أن يبرأ من التكلف ويتباعد عنه لأنه مفضحة، وصاحبه مذموم ، ومن استشار رأى الصحيح علم أنه إلى سلامة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ ، وأنه متى فاتته اللفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر» .

ونريد أن نستدرك ما قلناه آنفا إنه تأثر فى بعض كتاباته بمدرسة ابن العميد ، ونحن فى هذا الاستدراك لا ننفى ما قلناه ، وإنما نؤكد ، ولكنه لا ينحو هذا المنحى إلا إذا أراد الصناعة وفق ما يقتضيه المقام فلنقرأ له هذه الفقرة وهو يصف ابن عباد متحاملا عليه " تراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوى ويتسم^(٢) ويطير فرحا وينقسم ، ويقول : ثمرة السبق لهم وقصرنا أن نلحقهم أو نقفو أثرهم ، أو نشق غبارهم ، أو نرد غمارهم ، وهوافى كل ذلك يتساكى ويتحايل ، ويلوى شدقه ويبتلع ريقه ، ويرد كالأخذ ، ويأخذ كالممتنع ، ويغضب فى غرض الرضا ، ويرضى فى لبوس الغضب، ويتهاك ويتمالك ، ويتقابل ويتميل ، ويحاكى المومسات ، ويخرج فى أصحاب السماجات " .

* والسمة الثانية لكتاباته أنه قد سجل ثقافة القرن الرابع^(٣) ، كما سجل الجاحظ ثقافة القرن الثانى ، ويزيد التوحيدى عن سلفه أنه سجل أيضا ثقافة القرن الثانى والثالث ، وإن كانت الثقافة العربية فى القرنين السابقين له كانت ثقافة عربية أصيلة إلا أن امتزاج الثقافات الأخرى بها (فى القرن الرابع) جعله يتحمل عبئا أكبر فى تسجيل هذه الثقافة المطعمة بالثقافات الأخرى ، وقد امتاز بكثرة ما روى عن السابقين والمعاصرين ، نقلا عن كتبهم وما استوعبه من مناظراتهم ، وسجل ما كان يسمعه فى مجالس العلماء والأدباء من محاور ومجادلة ومناظرة ، وقد سبق ان استشهدنا له بمحاورتين سجلهما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، الأولى موضوعها : مناظرة بين النحو العربى والمنطق اليونانى والثانية محاور بين أبى سليمان المنطقى وإخوان الصفا وتوضيحه حد الفلسفة فى مناقشة الأمور الدينية .

(١) الدكتور أحمد محمد الحوفى / أبو حيان التوحيدى ، ج/٢ ص ١٠٧

(٢) الامتاع والمؤانسة - لأبى حيان التوحيدى ج/١ ص ٥٩

(٣) د. أحمد محمد الحوفى / أبو حيان التوحيدى ج/٢ ص ١٠٨ .

* لقد تفرد أبو حيان في كتاباته واصفاً أدباء وفلاسفة عصره وصفاً دقيقاً ومستوعباً^(١)، مثل وصفه لأبي سعيد السيرافي، وعلى بن عيسى الرُّماني، والصاحب بن عباد، وأبي اسحاق الصابي، وأبي على مسكويه، وأبي سليمان المنطقي فلنقرأ له هذه الفقرة في وصف مسكويه :

« وأماً مسكويه فلطيف اللفظ، رطب الأطراف^(٢)، رقيق الحواشي، سهل المأخذ، قليل السكب، بطئ السبك، مشهور المعاني، كثير التواني شديد التوقّي ضعيف الترقّي، يرد أكثر ممّا يصدر، ويتناول جهده ثم يقصر، ويطيّر بعيداً ويقع قريباً، ويسقي من قبل أن يغرس، ويمنح من قبل أن يميّه (أى يغرف قبل أن يتأكد من وجود الماء) وله بعد ذلك مأخذ كشذو (أخذ طرف) من الفلسفة وتأت (تلتطف) في الخدمة... » .

ويقول عن أبي سليمان المنطقي :

« أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقّهم نظراً وأقهرهم غرضاً^(٣)، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر وأوقفهم على الغرر، مع تقطّع في العبارة، ولكنة ناشئة عن العُجمة، وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجرأة على تفسير الرمز، وبُخل بما عنده من هذا الكنز » .

ويعتبر أبو حيان التوحيدي موسوعة جامعة أو دائرة معارف (متحركة)^(٤) قد حفلت بألوان شتى من العلم والمعرفة والدليل على ذلك مؤلفاته التي جمعت بين كثير من العلوم والأفكار والفلسفية والتصوف والاهتمام بعلم النفس وعلم الحيوان وعلم النبات .
* من السمات الفريدة لكتاباته^(٥) أنه يحسن نقل الكلام المروى عن غيره بألفاظه وأسلوبه، حتى ولو سمعه مشافهة، فإذا قارنت الكلام الذي رواه عن غيره وكلامه هو فستجد بونا شاسعاً في الأسلوبين، وروياته كثيرة ومتعددة في العلم والفلسفة والأدب، وكذلك يرويها في خطبة أو رسالة أو حوار أو مناظرة فهو في كل ذلك يجيد النقل والرواية .

(١) المرجع السابق ص ١٠٩ .

(٢) الامتاع والموانسة لأبي حيان التوحيدي ج/١ ص ١٢٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٢ .

(٤) د. أحمد محمد الحوفي - أبو حيان التوحيدي ج/٢ ص ١٠٩ .

(٥) المرجع السابق ص ١١١ .

* من سمات كتاباته أنه لا يمارى ولا يدارى^(١) فى وصف الأشخاص ، وهذا من أهم الأسباب التى أوغرت الصدور عليه ، ولقد اتخذ من أسلوبه النثرى المسجوع المصنوع سلاحاً لمحاربة أعدائه كالفقرة التى استشهدنا بها آنفاً فى وصف ابن عباد ، وفى ذات ليلة سأل ابن سعدان عن الفلاسفة ثم عن الشعراء ثم عن العلماء ، وقد كشف الغطاء عن كل واحد من هذه الفئات الثلاث بلا تحرز ولا اعتذار ، فهذا هو ذا يصف أحد العلماء وهو أبو القاسم الداركي^(٢) . فقد وصفه وصفاً يُؤدى بصاحبه إلى الحضيض ، ولا تقوم له بعد ذلك قائمة قال « وأما الداركي فقد اتخذ الشهادة مكسبه ، وهو يأكل الدنيا بالدين ويغلب عليه اللواط ولا يرجع إلى ثقة وأمانة ، وقد تهتك بنيسابور قديماً ، وببغداد حديثاً ، ولقد ندَّ بجُعل غلام (هرب بمرتب غلام) وهو اليوم قاضى الرى ، وابن عباد يَكْنُفه ويَقْرِبُه ليكون داعية له ونائباً عنه ، وليس له أصل ، وهو من سواد همدان ، وأبوه كان فلاحاً ، ولقد رأيتُه إلا أنه يأتى لابن عباد فى سمته ، ولزوم ناموسه ، حتى خفَّ عليه ، وهو اليوم قارون ، وقد علت مرتبته فى الكلام حتى لا مزيد عليها ، إلا أنه نَفَل (فاسد) الباطن خبيث الخبأ ، قليل اليقين ... » .

هنا يمكننا القول أن البراعة فى الكتابة سلاح ذو حدين ، فهذا هو ذا أبو حيان قد استخدم براعته فى استعمال الكلمات ، وحسَّ اللغوى الدقيق فى موضع غير ملائم وهو التحقير من شأن هذا العالم ، حتى ولو كان كذلك فما كان ينبغى التشهير به أمام وزير شهير قد احتشد فى مجلسه علماء أجلاء وفلاسفة كبار وأدباء مرموقون (مجلس ابن سعدان) .

* كان أبو حيان على دراية دقيقة بفن الكتابة ومتطلباته فهذا هو ذا يصف لنا الكلام الرقيق . « إن الكلام صلف تِيَّاه^(٣) ، ولا يستجيب لكل انسان ، ولا يصحب كل لسان ، وخطره كثير ومتعاطيه مغرور ، وله أَرْنُ (نشاط) كأرن المهر ، وإبَاء كإبَاء الحرون ، وزهو كزهو الملك ، وخفق كخفق البرق ، وهو يتسهل مرة ويتعسر مرارا ويذل طورا ويعز أطوارا » . وقد يسر عليه هذه البراعة علمه باللغة وحفظه لمفرداتها ، وبصره بمعانيها ، وذوقه المرهف فى معرفة مدلولاتها ومناسباتها .

(١) المرجع السابق ص ١١٢ .

(٢) الامتاع والموانسة لأى حيان التوحيدى ج/١ ص ١٤١ ، أبو القاسم الداركي (سسته إلى دارك قرية بأصفهان) أحد فقهاء الشافعية ، وهو بعداى ، أقام نيسابور مدة ، وانتهى التدريس إليه ببغداد وأخذ عنه عامة شيوخها ، مات سنة ٣٧٥ .

(٣) المرجع السابق ص ٩ ج/١) .

* ويغلب عليه إيثار الإطناب والتفريع ^(١) في الوصف كقوله في التمهيد لدح أبي الفتح بن العميد حينما قدم عليه طالبا رفته « أقول وخير القول ما انعقد بالصواب ، وخير الصواب ما تضمن الصدق ، وخير الصدق ما جلب النفع وخير النفع ما تعلق بالمزيد ، وخير المزيد ما بدا عن الشكر ، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص ، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق ، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق : لما رأيت شبابي هريء بالفقر ، وفقرى غنيا بالقناعة وقناعتي عجزاً عن أهل التحصيل : عدلت إلى الزما ، أطلب إليه مكانى فيه ، وموضعى منه ... »

* من سمات كتاباته أيضا أنه يكثر من الفصل ^(٢) بين أجزاء الجملة الواحدة بجمل معترضة للدعاء ولغير الدعاء ، وبعض هذه الجمل الاعتراضية قصيرة وبعضها طويلة كمثله قوله " فقال - أدام الله دولته وبسط لديه نعمته - قدّم هذا الفن على غيره " وكقوله :

« قلت لى - أدام الله تعالى توفيقك فى كل قول وفعل ، وفى كل رأى ونظر - إنك تعلم يا أبا حيان . » وقوله « إنك انكفأت من الرى إلى بغداد .. بعد فوات مأموك من ذى الكفايتين نضر الله وجهه - عابساً على ابن عباد ، مغيطاً منه . »

* ومن سمات كتاباته أنه برع فى إيجاد ^(٣) الوقع الموسيقى للجمال بتقسيمها إلى فقرات قصار ، متناسبة الطول يكثر فيها الازدواج ليكون أثرها على السمع وفى النفس أشبه بالشعر " كقوله على لسان أبى الوفاء المهندس .

« وبعد ، فما أطيل ، ولعل لهب الموجدة يزداد ^(٤) ، ولسان الفيظ يغلو ، وطباع الإنسان تحتد ، والندم على ما أسلفت من الجميل يتضاعف ، ولست أنت أول من برّ فعق ، ولا أنا أول من جفى فنق ، وهذا فراق بينى وبينك . »

* كثيرا ما كان يستشهد أبو حيان فى كتاباته بإيراد ^(٥) الشعر والحكم والأمثال كما كان له ميل إلى استعمال التضاد ليزيد الفكرة قوة ووضوحا لا تلاعبا باللفظ ، ومن هذا يقول :

(١) ياقوت - معجم الأدباء ص ٣٦ ١٥٥
(٢) د أحمد محمد الحوفى أبو حيان التوحيدى ج/٢ ص ١١٦ ،
(٣) المرجع السابق ص ١١٧ .
(٤) الامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ح/١ ص ٢٦١ .
(٥) د. أحمد محمد الحوفى / أبو حيان التوحيدى ج/٢ ص ١٢١ .

لما رأيت شبابي هرما بالفقر ، وفقرى غنيا بالقناعة وقناعتي عجزاً عن أهل التحصيل : عدلت إلى الزمان أطلب إليه مكانى فيه وموضعى منه ...^(١)

موازنة بينه وبين كتاب عصره :

لقد كان القرن الرابع قرن ازدهار الثقافة العربية ، حيث انصهرت فيها ثقافات أمم شتى ، والثقافة العربية قوامها اللغة . ومن شأن اللغة العربية أنها تجبُّ كل ألفاظ الحضارة وتعربها . لذا كان ذلك القرن يتسم بثقافة عربية مشربة بثقافات جديدة ، وفي إطار هذه الثقافة الجديدة ظهرت أكثر من فئة من الكتّاب - كما سبق القول - وتعددت معالجاتهم للموضوعات التالية ، التي سنذكرها باقتضاب ونذكر معالجة أبي حيان لها ، بالنظر لغيره من الكتّاب .

* تطويع الكتابة النثرية للتعبير عن المعانى العاطفية^(٢) التى كانت مجالاً للشعر وحده.

فقد سار أبو حيان فى كتاباته كما سار غيره فى ذات الطريق : طريق السجع والازدواج وحسن التقسيم والخيال والمحسنات ، أى أنه لم يتحرر تحرراً مطلقاً من سمات كتّاب ذلك العصر .

* ظهور الشعبوية فى الأدب العربى^(٣) : ظهر بعض الشعراء والكتاب الذين يعتزون بأصلهم غير العربى ، وهو ما يطلق عليه نزعة الشعبوية ، ومن هؤلاء الشاعر مهيّار الديلمى الذى يقول :

أعجبت بى بين نادى قومها	أُمُّ سَعْدٍ فَمَضَتْ تَسْأَلُ بى
سرّها ما علمت من خلقى	فأرادت علمها ما حسبى
لا تخالى نسباً يخفضنى	أنا من يرضيك عند النسب
فأبى كسرى علا إيوائه	أين فى الناس أبٌ مسئّل أبى
قد جمعت المجد من أطرافه	سؤددُ الفرس ودين العرب

وكذلك فعل الجيهانى فى تفضيل العنصر الفارسى على العنصر العربى ، فتصدّى له أبو حيان التوحيدى فكبح جماحه ، مستشهداً بما قاله المفكرون الكبار فى هذه القضية .

(١) ياقوت - معجم الأدباء ح/١٥ ص ٤٣ .

(٢) د. أحمد محمد الحوفى - أبو حيان التوحيدى ج/١ ص ٢٣٣ .

(٣) كما يتضح من المثال فإن نزعة الشعبوية كانت نزعة سياسية بحتة مع تمسكها بالإسلام ومقوماته .

* الاكثار من الازدواج والسجع وحسن التقسيم^(١) :

لم يختلف أبو حيان عن غيره من الكتّاب في هذا المضمار ولكنه لم يستعمله إلا طبقاً لما يقتضيه المقام .

* استعمال الجمل الاعتراضية للدعاء^(٢):

كذلك لم يخالف أبو حيان كتاب عصره في هذا المضمار، كما سبق لنا التنويه بذلك.

* الاحاطة بثقافة العصر واستيعاب ثقافات العصور السابقة^(٣) :

وهذه سمة تفرد بها أبو حيان التوحيدى ، فعرفه النقاد بها ، وأصبح هو مسجل هذا القرن ، وناقل ثقافته إلى جميع العصور التالية .

* الميل إلى الدُّعابة والفكاهة عند من نسميهم بظرفاء العصر^(٤) :

لم يكن أبو حيان النوحيدى من هذه الفئة لأن فقره المدقع ومعاناته المحضة ، مكابדתه المؤلمة ، جعلته يميل إلى أدب التنقى من ذوى الجاه والثراء .

* طائفة الكتاب الموضوعيين الذين غلبوا الفكرة على الصنعة اللغوية^(٥) :

وهؤلاء لم يتكفوا السجع ولا الازدواج ، ولم يهتموا بالمحسنات البديعية ، وإنما كانت كتاباتهم فى تحرر وترسل مثل · المرزبانى وأبى الفرج الأصفهاني ، وابن مسكويه ، وأحمد بن يوسف ، وأبو حيان التوحيدى من هذا القبيل فى أكثر كتاباته .



(١) المرجع السابق ص ١٢٣ .

(٢) ذات المرجع وذات الصفحة .

(٣) المرجع السابق ص ١٢٤ .

(٤) ذات المرجع وذات الصفحة .

(٥) المرجع السابق ص ١٢٥ .

ملحة الملح (أو ملحة الكتاب) (من الإمتاع والمؤانسة)^(٦)

تعود ابن سعدان أن يطلب من أبي حيان موافاته بملحة الوداع في آخر كل مسامرة من ليالى " الإمتاع والمؤانسة " ويطيب لنا أن نطلب منه ملحة الملح ونحن على وشك الانتهاء من هذا الكتاب ، واعتقد أنه سيتحف قراءه بما حفلت به الليلة الثالثة والعشرون من أحاديث نبوية شريفة ، وهذه تعد بحق إحدى حسنات أبي حيان التوحيدى على الأدب والأدباء ولا يقولن قائل : وماذا فعل أبو حيان غير أن روى هذه الأحاديث ؟ فالرد عليه : أن اختار أبي حيان لهذه الأحاديث فى موضوعات شتى دليل على سلامة نوقه، وقديما قيل : أن اختيار المرء جزء من عقله ، قال أبو حيان وكان الوزير رسم (أمر) بكتابة لمع من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فأفردت فى هذه الورقات وهى :

* قال صلى الله عليه وسلم « أشد الأعمال ثلاثة . إنصاف الناس من نفسك ، ومواساة الأخ من مالك ، وشكر الله تعالى على كل حال .

* « وقال الواقدي لما غالظ خالد بن الوليد عبد الرحمن بن عوف .. قال النبي صلى الله عليه وسلم يا خالد ذروا لى أصحابى ، لو كان لك أحد ذهباً ، تنفقه قراريط فى سبيل الله لم تدرك غدوة أو راحة من عبد الرحمن .

* « وقال عليه السلام « إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة تَبَتَّبَشَ الله إليه (رضى عنه وأكرمه) وإن أخرها أعرض عنه

* « وقال عليه السلام «إنما فدك (بلدة بخيبر) طعمة أطمعنيها الله فى حياتى ثم هى بين المسلمين «.

* وقال عليه السلام « المقوم قد يأتى ولا يغرم «.

* وقال عليه السلام فى دعائه . اللهم اجمع على الهدى أمربا ، وأخرجنا من الظلمات إلى النور ، واصرف عنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا ومعاشنا ، اللهم اجعلنا شاكرين لنعمتك ، وتب علينا إلك أمت التواب الرحيم .

* « وقيل له صلى الله عليه وسلم إن فلاناً استشهد^(٧) ، فقال : كلا إن الشملة التى خذها من الغنائم يوم حنين اشتعلت عليه ناراً .

تاع والمؤانسة من ص ٩٢ - ١٠١ ج/٢ .
* السابق .

* وقال صلى الله عليه وسلم . من اطلع من صُبُرٍ (بضم الصاد وكسرهما . ناحية) باب فُفَقُنْتُ عينه فهي هدرٌ (أى لاقصاص لها) .

* وقال صلى الله عليه وسلم لرجل يذبح شاه . أرهف شفرتك ، فإذا فَرِيتَ فَأَرْحُ ذبيحتك ودعها تخبُّ وتخبُّ فإن ذلك أمرى للدم واحلى اللحم .

* وقال عليه السلام العنى الحفى التقى

* وقال : التاجر الصدوق إن مات فى سفره كان شهيداً ، أو فى حضره كان صديقاً .

* وقال صلى الله عليه وسلم . ظهَرُ المؤمن مشجبه ، وبطنه خزانته ، ورجله مطيئه وذخيرته ربه .

* وقال صلى الله عليه وسلم ما نَفَصَ مالٌ من صدقة فتصدَّقوا ، ولا عفا رجلٌ عن مظلمة إلاَّ زاده الله عزَّ وجلَّ عزاً وعفوا ، فاعفوا ، ولا فتح رجلٌ على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر ، فاستعفوا .

* وقال عليه السلام . أجود الأعمال : الجود فى العسر ، والقصد فى الغضب والعفو عند المقدرة .

* وقال عليه السلام : إنَّ بينَ مصراعَيْ باب الجنة مسيرة مائة عام ، وليأتين عليه يوم وهو كخليط من الزحام .

* وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول قوم من بنى عامر يستأذنه فى المرعى حول المدينة ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنَّها ديار لا تضيق عن جارنا ، وإنَّ جارنا لا يظلم فى ديارنا وقد ألجأتكم الأزمة ، فنحن ناذن لكم فى المرعى ، ونشركم فى المأوى ، على أن سرحنا كسرحكم (السرح . المال السائم) وعانينا كعانيكم ، ولا تعيبوا علينا بعد اليوم ، فقال : لا نعين عدوا ما أقمنا فى جوارك ، فإذا رحلنا فإنما هى العرب تطلب آثارها (ثأرها) وتشفى ذحولها .

فقال عليه الصلاة والسلام . يا بنى عامر ، ما علمتم أنَّ اللؤم كلُّ اللؤم^(١) أن تتحاشوا عندالفاقة وتتبؤوا عند العزة ، فقال . وأبيك إن ذلك اللؤم ، ولن نبعك غائلة بعد اليوم ، فقال : اللهم فاشهد وأذن لهم .

* وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يأتية الوحى ؟ فقال . فى مثل صلصلة الجرس ثم ينفصم .

(١) المرجع السابق .

* وقد روى ابن الكلبي عن أبيه عن ابن صالح عن ابن عباس قال . لما كان يوم بدر، قال عليّ : رضى الله عنه - للمقداد . اعطنى فرسك أركبه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت تقاتل راجلاً خيراً منك فارساً ، قال : فركبه ووتر قوسه ورمى فأصاب أذن الفرس فصرّمه فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسك على فيه ، فلما رأى عليّ ضحكه غضب فسلّ سيفه ثم شد على المشركين فقتل ثمانية قبل أن يرجع ، فقال عليّ (رضى الله عنه) لو أصابنى ستر من هذا كنت أهله حين يقول أنت تقاتل راجلاً خيراً منك فارساً . فعصيته .

* وقال صلى الله عليه وسلم : إن امرءاً عرّف الله وعبدّه وطلب رضاه وخالف هواه لحقيق أن يفوز بالرحمة .

* لما ورد محمد بن مسلمة على عمرو بن العاص من جهة عمر بن الخطاب رضى الله عنه صنع له عمرو طعاماً ودعاه إليه فأبى محمد ، فقال عمرو . أتحرّم طعامي ؟ قال . لا ، ولكنى أؤمر به ، فقال عمرو لعن الله زماناً عملنا فيه لابن الخطاب ، لقد رأيته وأباه وإنهما لفي شملة ما توارى أرساغهما ، وأن العاصي بن وائل (يقصد أباه) لفي مقطّعات الديباج مزّرة بالذهب فقال له محمد : أمّا أبوك وأبو عمر ففى النار، أمّا أنت فلولاً ما وليت لعمر لرأيت معتقلاً عنزا يسرك غزرها ويسؤك بكؤها (البكاء قلة اللبن) فقال عمرو . المجالس أمانة ، فقال محمد : أمّا ما دام عمر حياً فنعم.

* دخل النبي صلى الله عليه وسلم على فاطمة -رضى الله عنها- يُعوّدها من علة فبكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك ؟ قالت . قلة الطعم وشدة السقم وكثرة الهم .

* قال عبد الله بن مسعود : شر الأمور محدثاتها^(١) ، وشر الغنى غنى الإثم ، وخير الغنى غنى النفس ، والخمر جُماع الأثم والدنيا حباله الشيطان ، والشباب شعبة من الجنون قيل له . أتقول هذا من تلقائك ؟ قال : لا بل من تلقاء من فرض الله على طاعته.

* وقال أبو ذر (رحمة الله عليه) قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) يا أبا ذر إننى أراك ضعيفاً ، وإننى أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسى ، لا تأمرنَّ على اثنين ، ولا تولين مال اليتيم . (أى لاتتأمرنَّ على اثنين ، ولاتتولين مال اليتيم) .

(١) المرجع السابق

(٢) لاتناقص فى هذا الحديث مع حديث أخر يأمر بالإمرة بين اثنين أو ثلاثة ذلك أن هذا الحديث يخص أنا ذر لما فيه من حدة ، وقوله صلى الله عليه وسلم «ما أحبُّ لنفسى» أى ولو كان - حاشاه الله - له هذه الحدة لنهى نفسه كما بهى أنادر .

* وقال أبو هريرة : عن النبي صلى الله عليه وسلم - ستحرصون على الإمارة ، وستكون حسارة وندامة يوم القيامة ، فنعمت المُرْضعة وبُست الفاطمة .

* أبو إمامة يرفعه قال : ما من رجل يلى إمرة عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً أطلقه العدل ، أو أوثقه الجور . (هذا الحديث وسابقه يوضحان عظم المسئولية) .

* قال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم أمرنى يا رسول الله فاصيب (أوردتها صاحب العقد الفريد كاملة قال : إن العباس رضى الله عنه طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عم نفسُ تحييتها خير من ولاية لا تحصيلها .

* قال عبد الله بن عمرو بن العاص . إنَّ رجلاً جاء إلى النجاشي(*) فقال له أقرضنى ألف دينار إلى أجل ، فقال له من الكفيل بك ؟ قال : الله . فأعطاه الألف ، فلما بلغ الأجل أراد الردَّ فحبسته الريح ، فعمل (الرجل) تابوتاً وجعل فيه الألف وغلفه وألقاه فى البحر ، وقال اللهم أدِّ حمالتك ، فخرج النجاشي إلى البحر فرأى سواداً ، فقال انتونى به . فأتوه بالتابوت ففتحه فإذا فيه الألف ، ثم إنَّ الرجل جمع ألفاً بعد ذلك وطابت الريح ، وجاء إلى النجاشي فسلم عليه فقال له النجاشي لا أقبلها منك حتى تخبرنى بما صنعت فيها . فأخبره بالذى صنع فقال النجاشي لقد أدَّ الله عنك وقد بلغت الألف فى التابوت فأمسك عليك ألفك . (أى وصلتنا الألف بأمر الله تعالى كما رجوته) .

* رأى أبو هريرة رجلاً (يسير) مع آخر فقال من هذا الذى معك^(١) ؟ قال . أبى قال فلا تمش أمامه ، ولا تجلس قبله ، ولا تدعه باسمه ، ولا تستب له (لا تعرّضه للسب) .

* قال أبو هريرة : كان جريج يتعبّد فى صومعته ، فأتت أمه فقالت . يا جريج أتأ أمك كلّمنى ، فقال . اللهم أمّى وصلاتى فاختر صلّاتى ، فرجعت ثم أتته ثانية فقالت يا جريج كلّمنى فصادفته يصلى فقالت اللهم إن هذا ابنى عَقْنى فلم يكلمنى فلا تُمتّه حتى تريه المومسات ، ولو دعت عليه أن يفتن لفتن قال وكان راعى ضأن يأوى إلى ديره

(*) النجاشي . هو ملك الحبشة الذى أعلن إسلامه وأكرمه الله بالإسلام .

(١) المرجع السابق

فخرجت امرأة من القرية ، فوقع عليها الراعى ، فحملت فولدت غلاماً هقيل لها . ممن هذا فقالت من صاحب هذه الصومعة فأقبل الناس إليه بفؤء وسهم ومساحيهم فبصروا به فصادفوه يصلى فلم يكلمهم فأخذوا يهدمون ديره فنزل وتبسم ومسح رأس الصبى وقال من أبوك ؟ قال أبى الراعى الضأن فلماً سمع القوم ذلك راعهم وعجبوا ، وقالوا نحن نبنى لك ما هدمنا بالذهب والفضة قال لا أعيدوها كما كانت تراباً ثم عاد . (لتنسكه) .

* وقال أبو الدرداء : لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواب .

* وقال أيضا ليس على سارق الحمام قطع

* وقال إذا اخترتم أرضاً فلا تختاروا أرمنييه فان فيها قطعة من عذاب الله (يعنى البرد)

* أبو هريرة يفعه . و . ا . يعرفاء ، ويل للأمناء ليطمئئ أقوام يوم القيامة أنهم كانوا متعلقين بين السماء والأرض ، ذنوبهم من الثريا ، وأنهم لم يلوا عملا .

* قال النبى صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سُمرة . لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها . (سبق هذين الحديثين أكثر من حديث عن عظم المسؤولية) .

* وقال النبى صلى الله عليه وسلم كلكم راع ومسئول عن رعيته^(١) ، فالأمير راع على الناس وهو مسئول أقام أمر الله فيهم أم ضيع المرأة راعية على بيتها وما وليت من زوجها ومسئولة عنهم أقيمت أمر الله فيهم أم ضيعت والخادم مسئول عن مال سيده أقام أمر الله فيه أم ضيع . هكذا رواه ابن عتبة عن نافع عن ابن عمر .

* قال عياض الأشعري قدّم أبو موسى على عمر ومعه كاتب له فرفع حسابه ، فأعجب به عمر وجاء إلى عمر بكتاب ، فقال لأبى موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ قال إنه لا يدخل المسجد . قال لم ؟ أجنب هو ؟ قال إنه نصرانى . (لم يتم الحديث) .

* قال عبد الله بن نافع . جاء رجلان من الأنصار إلى النبى صلى الله عليه وسلم يختصمان فى مواريث بينهما قد درست ليس بينهما بية ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنكم لتختصمون إلى وإنما أنا بشر ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض وإنما (١) المرجع السابق .

أَقْضَى بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْكُمْ ، فَمَنْ قَضَيْتَ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا فَلَا يَأْخُذْهُ ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ يَأْتِي بِهَا إِسْطَاطِمَا (حديدية مستعرة مشتعلة) فِي عُنُقِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ فَبَكَى الرَّجُلَانِ وَقَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا : حَقِّي لِأَخِي فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَّا إِذْ قُلْتُمَا هَذَا فَادْهَبَا فَاسْتَهْمَا ، وَتَوَخَّيَا الْحَقَّ وَلِيَحْلُلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمَا صَاحِبَهُ ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى اذْهَبَا فَاصْطَلَحَا .

* وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَتَبَ إِلَى النَّجَاشِيِّ (*) أَسْعَمَهُ . سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَكَتَبَ النَّجَاشِيُّ : إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّجَاشِيِّ أَصْحَمَهُ بْنُ أَبَجَرَ سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ رَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ .

* وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . الْكَافِرُ خَبٌّ ضَبٌّ (خَدَاعٌ وَحَاقِدٌ) وَالْمُؤْمِنُ دَعِبٌ لَعِبٌ .

* وَقَالَ رَجُلٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اْعْدِلْ فَإِنَّكَ إِلَى الْآنَ لَمْ تَعْدِلْ .

فَقَالَ وَيْلَكَ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ أَنَا فَمَنْ يَعْدِلُ ؟

* وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . إِنَّ الْوَاجِدَ يَبِيحُ ظَهْرُهُ وَعَرْضُهُ (الْمَغْضِبُ يَنْسَى حِفْظَ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ) .

* وَقَالَ عُمَرُ . رَدِّ الْخُصُومَ كَيْ يَصْطَلَحُوا .

* وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : لَا تَحْلِفُوا بِأَيْمَانِكُمْ ، وَمَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصِقْ ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ فَلْيَقْبَلْ .

* وَقَالَ مَنْ حَلَفَ يَمِينًا كَاذِبَةً يَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانِ

* وَقَالَ : مَنْ حَلَفَ يَمِينًا وَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ ، وَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ .

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا تَسَافِرِ الْمَرْأَةُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ .

(*) المراد من هذا الحديث هو تواضع الرسول صلى الله عليه وسلم وشهادته بالأنبياء الذين سبقوه وتواضع النجاشي في مخاطبته للرسول صلى الله عليه وسلم بتقديمه على اسم النجاشي في أول الخطاب .

* حَدَّثَنَا أَبُو السَّائِبِ الْقَاضِي عَتَبَةُ بْنُ عُبَيْدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَرْزَبَانِ قَالَ : حَدَّثَنَا الْمَغِيرَةُ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْمَنْقَرِيُّ قَالَ : كَانَ شَرِيكَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الْقَضَاءِ بِالْكُوفَةِ ، فَقَضَى عَلَى وَكَيْلٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَصْعَبٍ بِقَضَاءٍ لَمْ يُوَافِقْ عَبْدَ اللَّهِ ، فَلَقِيَ (عَبْدَ اللَّهِ) شَرِيكَاً بِبَغْدَادٍ فَقَالَ لَهُ قَضَيْتَ عَلَى وَكَيْلٍ قَضَاءً لَمْ يُوَافِقِ الْحَقَّ ، قَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مَنْ لَا تُنْكِرُ قَالَ : قَدْ نَكَرْتُكَ أَشَدَّ النِّكَارِ ، قَالَ : أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَصْعَبٍ قَالَ : فَلَا كَبِيرَ وَلَا طَيْبَ قَالَ : كَيْفَ لَا تَقُولُ هَذَا وَأَنْتَ تَشْتُمُ الشَّيْخَيْنِ قَالَ : مَنْ الشَّيْخَانِ ؟ قَالَ : أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ . وَقَالَ وَاللَّهِ لَا أُشْتَمُ (أَبَاكَ) وَهُوَ دُونَهُمَا ، فَكَيْفَ أُشْتَمُهُمَا ، وَهُمَا فَوْقِي وَأَنَا دُونَهُمَا ؟

* وَقَالَ عَقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ رَجُلٍ يُوْتَى الدُّنْيَا وَيُوسَّعَ لَهَا فِيهَا وَهُوَ لَا عَلَى غَيْرِ مَا يَنْبَغُ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ (فَلَمَّا نَسُوا مَا دُكِّرُوا لَهُ فَفَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ . فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِلَّا وَهُوَ مُسْتَدْرَجٌ . مَعْنَاهُ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَدْعٍ هَلَكْتَهُ ، مَأْخُوذٍ مِنَ الدَّارِجِ ، وَهُوَ الْهَالِكُ يُقَالُ هُوَ أَعْلَمُ مِنْ دَبٍّ وَدَرَجٍ وَيُرَادُ بِدَرَجٍ : هَلَكٌ ، وَبَدَبٌ مَشَى .



خاتمة

ها هو ذا أبو حيان التوحيدى أديب القرن الرابع الهجرى ، صاحب الإمتاع والمؤانسة ، والهوام والشوامل والصدقة والصدى ومثالب الوزيرين - ها هو ذا أبو حيان التوحيدى الأديب الذى اختلفت فيه الآراء فبينما رآه بعضهم متنسكا صوفياً ، رآه الآخرون زنديقا وجوديا ، ولكن الجميع اتفقوا على أنه كان الموسوعة العلمية والأدبية التى نقلت لنا ثقافة القرن الرابع ، هو ذلك الأديب الذى لاقى ما لاقى من البؤس والحرمان ، وفقد الصحب والخلان . والذى أختتم الحديث عنه بهذه الواقعة التى رواها فى كتابه (المحاضرات) .

قصدت أنا والنصيبى رجلا من أبناء النعم والموصوفين بالكرم ، لا يرد سائليه ، ولا يخيب آمليه ، والألسن متفقة على جوده وتطوله والعيون شاحصة إلى عطاياه وفضله ، له فى السنة مبارٌ كثيرة على أهل العلم وأهل البيوتات ، ومن قعد به الزمان وجفاه الإخوان ، فلم نصادفه فى منزله وقصدناه ثانيا فمُنعنا من الدخول إليه ، وقصدناه ثالثا فذكر أنه ركب ، وقصدناه رابعا ففيل هو فى الحمام ، وقصدناه خامسا ففيل إنه نائم ، وقصدناه سادسا ففيل عنده صاحب البريد وهو مشغول معه بهمهم ، وقصدناه سابعا فذكر أنه يأكل ولا يجوز الدخول إليه بوجه ولا سبب ، (حتى يقول) وقصدناه الخامس عشر فسُهل لنا الإذن ودخلنا فى غمار الناس ، والناس على طبقاتهم جلوس ، وجماعة قيام يرتبون الناس ويخدمونهم ، وقد اتفق له عزاء ، وشغل بغيرنا ، وبقينا فى صورة احتقان البول والجوع والعطش ، وما أقمنا فى جملة من يُقام . فقال النصيبى : هذا اليوم الذى ظفرنا به وتمكنا من دخول داره ، صار عظيم المصيبة علينا ، ليس لنا إلا مهاجرة بابه والإعراض عنه وقمع النفس الدنيئة بالطمع فى غيره .. (ولكن أبا حيان أقنعه بمعاودة قصده مرة أخرى ، فقصدناه أكثر من عشرين مرة) حتى قال النصيبى : لو علمت أن داره الفردوس والحصول على ما عنده الخلود فيها ، وكلامه رضا الله تعالى وفوز الأبد ما قصدته بعد ذلك وأنشأ يقول .

طَلَبُ الكَرِيم نَدَى يدِ المَنكُودِ كَالغَيْثِ يُسْتَسْقَى مِنَ الجُلُودِ
فَاقْزَعْ إِلَى عِزِّ الفَرَاغِ وَلُذْ بِهِ إِنَّ السُّؤَالَ يَرِيدُ وَجْهَ حَدِيدِ

(١) ياقوت الحموى - معجم الأبياء ج/١٥ ص ٤٩ ، ٥٠ .

فأجبتُه أنا وعيناي بالدموع تترقرقان لما بان لى من صرفتى ،ونبو الدهر بى ، وضيا ع
سعى ، وخيبة أملى فى كل من أرجيه للمم أومهم أو هادية أو نائبة :
دنيا دنت من عاجز وتباعدت عن كل ذى لب له خطر
سلمت على أربابها حتى إذا وصلت إلى أصابها الحصر
وبعد فهذا أبو حيان التوحيدى الذى لم يأنس بحياة هادئة أو عيشة راضية فراح
يطلب الرزق فى كل مكان إلى أن عاد كاسف البال ، مهدود القوى ، ولم يلبث أن عمد
إلى كتبه فأحرقها وهى أعز شيء لديه ، ناقما على أولئك الناس الذين لم يقدرُوا أدبه
ولا موهبته وهكذا كل موهوب لاقى فى عصره مثلما لاقى هذا الرجل هو أبو حيان
زمانه ، والمعاناة والضجر دائماً يلان زمانه .

وهنا نقول : الحمد لله فى الأولى والآخرة وفى البداية والنهاية

* * *

وبهذا تم الانتهاء من كتاب أبى حيان التوحيدى :

فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة

لمؤلفه : أحمد محمد عبد الهادى

=====

المراجع

- أبو حيان التوحيدي : **الإمتاع والمؤانسة** ، تحقيق الأستاذين : أحمد أمين وأحمد الزين ، بيروت - منشورات مكتبة دار الحياة
- أبو حيان التوحيدي : **الهوامل والشوامل** ، تحقيق الأستاذين أحمد أمين والسيد أحمد صقر ، القاهرة ، ١٩٥١ .
- أبو حيان التوحيدي : **الإشارات الإلهية** ، القاهرة ، مطبعة جامعة فؤاد الأول ، ١٩٥٠ ، تحقيق الدكتور / عبد الرحمن بدوي
- أبو منصور الثعالبي : **يَتِيْمَةُ الْدَّهْرِ فِي مُحَاسِنِ أَهْلِ الْعَصْرِ** ، بيروت ، تحقيق وشرح ايليا الحاوي .
- أبو جعفر أحمد (المحب الطبري) **الرياض النضرة في مناقب العشرة** - القاهرة - مكتبة الجندی - تحقيق الشيخ محمد مصطفى أبو العلا .
- ابن تغري بردی - جمال الدين أبو المحاسن - **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** ، القاهرة - وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، سلسلة تراثنا .
- أحمد محمد الحوفي (دكتور) **أبو حيان التوحيدي (جزءان)** ، القاهرة ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، سلسلة قادة الفكر في الشرق والغرب .
- حامد حفني داود (دكتور) **الآداب الإقليمية في العصر العباسي الثاني (٢٢٤ - ٦٥٦ هـ)** القاهرة - مطبعة السنة المحمدية ، ١٩٧٧ .
- خيرى شلبى ، أبو حيان التوحيدي ، **ربيع الثقافة العربية** ، القاهرة ، مؤسسة الروم للطباعة والنشر ، ١٩٩٠ .
- ياقوت الحموى : **معجم الأدباء - الجزء الرابع عشر والجزء الخامس عشر** ، القاهرة ، مطبوعات دار المأمور ، تحقيق الدكتور / أحمد فؤاد رفاعى .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
• المقدمة	٧
من هو أبو حيان التوحيدى ؟	٩
اختلاف المؤرخين فى تحديد تاريخ ميلاده ووفاته ومكان مولده	١١
الاختلاف على من وجه إليه أشهر كتبه " الإمتاع والمؤانسة "	١٣
لماذا كان المرجح هو أبو عبد الله بن سعدان	١٣
الاختلاف على المقصود بابن العميد فى كتابه " مثالب الوزيرين "	١٥
موضوعات الدراسة وينابيعها	١٦
١ - عصر أبى حيان	٢١
عصر أبى حيان السياسى والعلمى والأدبى	
أولاً: عصره السياسى	٢٣
من هم بنو بويه ؟	٢٤
ثانياً : عصره العلمى والأدبى	٢٦
ثالثاً . الحالة الثقافية	٤٠
استيعابه لمعارف وعلوم عصره	٤١
فى الفلسفة - وفى الفقه - وفى اللغة والنحو - وفى علم	
الكلام - وفى التصوف - هل قال الشعر ؟	٤٢
رابعاً . صلة أبى حيان بمنشئ الكتابة الديوانية	٤٦
نشأة الكتابة الديوانية	٤٦
تطور الكتابة فى القرن الرابع الهجرى	٤٧
ابن العميد زعيم كتاب المشرق (طريقته - تأثر معاصريه به)	٤٨
نموذج لأبى حيان يحاكى فيه ابن العميد	٤٩

الصفحة

الموضوع

٢ - أبو حيان التوحيدى فيلسوف الأدباء وأديب

٥١ الفلاسفة ...

معالم حياته وصلاته بوزراء عصره

فيلسوف الأدباء وأديب الفلسفة

فيلسوف التوحيد ورائد علم النفس التحليلي

٥٣ معالم حياته وصلاته بوزراء عصره

٥٣ معالم حياته

٥٧ صلته بوزراء عصره

٥٧ أولا أبو الفتح ذى الكفائتين

٦٠ صلته بذى الكفائتين بن العميد

٦٤ ثانياً صاحب بن عباد

٦٤ نشأته وثقافته - حياته السياسية - الإقرار بفضلته

٦٦ ما أمكننا الاستشهاد به على فضلته

٦٧ ماذا قال أبو حيان عن صاحب

٦٩ فقرات من كتاب مثالب الوزراء

٧٣ ثالثاً . أبو عبد الله العارض

(أو أبو عبد الله حسين بن أحمد بن سعدان)

٧٣ أبو الوفاء المهندس وحديثه مع أبي حيان

٧٥ خلاصة حديث أبي الوفاء

٧٦ الملك صمصام الدولة بن بويه

٧٧ الوزير أبو عبد الله العارض

٧٨ اتصال أبي حيان التوحيدى بالوزير ابن سعدان

هل اتصل أبو حيان بأحد من وزراء عصره بعد أبي عبد الله

٧٨ بن العارض

٨١ فيلسوف الأدباء وأديب الفلسفة

٨١ أولا المرحلة الثقافية التى وصل إليها القرن الرابع الهجرى

٨١ العصر العباسى الأول من عام ١٣٢ إلى عام ٣٣٤هـ

الموضوع	الصفحة
العصر العباسي الثاني من عام ٢٣٤ إلى عام ٦٥٦ هـ	٨٢
ما يهمننا من هذا التمهيد	٨٢
مكانة أبي حيان بين مثقفي القرن الرابع	٨٤
ثانياً . نقل الفلسفة اليونانية وتأثير أبي حيان بها	٨٥
مناظرة بين النحو العربي والفلسفة اليونانية	٨٦
الحوار	٨٨
الخلاصة	٩٣
أبو حيان يوضح أقدار الرجال	٩٤
فيلسوف التوحيد ورائد علم النفس التحليلي	٩٨
فيلسوف التوحيد	٩٨
صفات السمع والعلم والبصر والحياة والمقدرة	١٠٠
تعقيب	١٠١
عودة على بدء	١٠١
محاولة تفسير أبي حيان بعض الصفات الإلهية	١٠٢
تحليله للسلوك البشري والنزوع النفسي	١٠٢
أهم الموضوعات الفلسفية عند أبي حيان	١٠٣
التفكير والطبيعة والزمان	١٠٣
مراتب الإنسان في العلم	١٠٤
النفس والفن والتذوق الفني	١٠٤
الحقائق السيكلوجية الكبرى	١٠٤
تحليله للمرض النفسي عند الإنسان	١٠٥
نماذج للسلوكيات في الهوامل والشوامل	١٠٧
غرور العالم بعلمه - الحياء من القبيح - الادعاء بالعلم	١٠٧
الفرح بالجميل - قبح الثناء في الوجه .	١١٠
حلم البخيل وحدة الكريم	١١١
الاسرار وافشاؤها .	١١٢
الشهرة بعد الموت	١١٤

الصفحة

الموضوع

١١٥ تعقيب على المسألة السابقة

١١٧ ٣- أبو حيان التوحيدي (ماله وما عليه)

١١٧ الطعن في عقيدته على رغم تصوفه

١١٧ اتهامه بالوضع على رغم أمانته في النقل

١١٧ دفاع عن أبي حيان التوحيدي ..

١١٩ * الطعن في عقيدته على رغم تصوفه

١٢٠ تعقيب

١٢١ رد الدكتور الحوفي على اتهام أبي حيان بالزندقة

١٢٤ أخيرا ماذا نقول بعد كلام الدكتور الحوفي

١٢٦ * اتهامه بالوضع على رغم أمانته في النقل

١٢٦ أولا . اتهامه بالوضع

١٢٦ لماذا اتهم بالوضع إذن ؟

١٢٨ ماذا قال الدكتور الحوفي عن الرسالة ؟

١٢٩ ثم ماذا نقول بعد هذه الآراء ؟

١٣١ ثانيا : امانته في الرواية والنقل والوصف

هل يمكن التوفيق بين اتهامه بوضع رسالة السلف الصالح

١٣٢ والامانة العلمية في النقل ؟

هل يمكن التوفيق بين سخف لسانه وذم بعض الناس وبين

١٣٢ امانته العلمية في النقل ؟

١٣٣ شهادة الحوفي والقفطي وياقوت الحموي له بالامانة في النقل

١٣٧ جزء من الرسالة السلفية التي اتهم أبو حيان بوضعها ..

١٣٨ * دفاع عن أبي حيان التوحيدي

١٣٨ مقدمة كتاب الاشارات الإلهية

١٤٠ الرد على ما جاء في المقدمة ..

١٤٥ * إحراقه كتبه تبرما من حياته البائسة

١٤٥ مثال للبؤس والفاقة والحرمان عند أدباء ذلك العصر

الموضوع الصفحة

- ١٤٧ رسالة أبي حيان إلى القاضي أبي سهل
١٥٠ ملخص الرسالة والملاحظات عليها
١٥١ لماذا وصلتنا أهم مكتبه بعد أن أحرقت أغلبها

٤- أبو حيان التوحيدى (نماذج من مؤلفاته) ١٥٣

تمهيد - مؤلفات أبي حيان التى أوردها صاحب معجم الأدباء ١٥٥

• الهوامل والشوامل ١٥٨

تفسير الهوامل والشوامل ١٥٨

من الذى اختار اسم هذا الكتاب وما طريقته ؟ ١٥٨

موضوعات كتاب الهوامل والشوامل ١٦٠

ملاحظات الدكتور الحوفى على اسئلة أبي حيان ١٦١

- أمثلة من الهوامل والشوامل ١٦٣

اتصال النفس بالبدن ١٦٣

إخفاء العمر الحقيقى ١٦٤

الولع بالتبذير ١٦٥

الشباب والشيخوخة ١٦٥

• الإمتاع والمؤانسة ١٦٧

طريقة كتاب الإمتاع والمؤانسة ١٦٩

رؤوس موضوعات بعض ليالى الكتاب ١٧٠

الليلة الأولى ١٧١

الليلة الثانية ١٧١

الليلة الثالثة ١٧٢

الليلة الرابعة ١٧٢

الليلة الخامسة ١٧٢

الليلة السادسة ١٧٢

الليلة السابعة ١٧٣

الليلة الثامنة ١٧٣

الموضوع	الصفحة
الليلة التاسعة	١٧٣
الليلة العاشرة	١٧٣
ليلة من ليالى الإمتاع والمؤانسة / الليلة السابعة عشرة	١٧٤
• مثالب الوزيرين	١٩١
ابن سعدان يسأل أبا حيان عن ابن عباد	١٩١
أبو حيان يسوق الشواهد من النقاد فى تقييم ابن عباد	١٩٣
عود إلى كتاب مثالب الوزيرين	١٩٤
أبو الفتح بن العميد	١٩٥
بعض مثالب ابن العميد	١٩٨
أبو حيان يثنى على أبى الفتح بن العميد	١٩٩
بعض مثالب الصاحب بن عباد	٢٠١
ابن عباد يسأل أبا حيان عن أبى حيان	٢٠٣
وقفه لابد منها	٢٠٤
مواقف أخرى مع ابن عباد	٢٠٥
خاتمة كتاب مثالب الوزيرين	٢٠٧
• خصائص أبى حيان الفكرية والفنية وموازنته	
بكتاب عصره	٢٠٩
غلبة أصحاب الصناعة اللفظية والأساليب الزخرفية فى القرن	
الرابع	٢١٠
أبو حيان التوحيدى فى ميزان النقد	٢١٠
سمات كتابات التوحيدى	٢١٢
موازنة بينه وبين كتاب عصره	٢١٦
ملحة الملح (أو ملحة الكتاب)	٢١٨
خاتمة	٢٢٤
المراجع	٢٢٧
فهرس الكتاب	٢٢٩

نبذة عن الكاتب والكتاب



الكاتب : هو الشاعر الأديب أحمد محمد عبد الهادي صاحب دواوين : أحاسيسي (١٩٦٨) وأغاني الغرباء (ثلاث طبعات آخرها في سنة ١٩٨٧) - ومن وحى الإسلام (١٩٨٤) - وإسلاميات (١٩٨٨) والحن الضائع (١٩٩٣) وآلام وأنغام (١٩٩٦).

وله من الكتب الثرية والدراسات الأدبية :

* المنفلوطي حياته ومؤلفاته (صدر في عام ١٩٨١)

* الأم في القرآن الكريم (صدر في عام ١٩٨٣) .

* تأملات في شعر العقاد (صدر في عام ١٩٨٤) .

* كما صدر له مسرحية شعرية بعنوان : الحنساء الشاعرة أم الشهداء في صيف عام ١٩٧٥ . وهو عضو اتحاد الأدباء بالقاهرة وعضو نادي القصيد وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية والمشرّف الثقافي بهيئة خريجي الجامعات بالقاهرة .

أما الكتاب : فهو عن أبي حيان التوحيدى : فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، كما قال عنه ذلك ياقوت الحموى في كتابه (معجم الأدباء) ، وقد عاش التوحيدى من أول القرن الرابع الهجرى حتى نهايته . وربما يكون قد جاوزه (من ٣١٢ إلى ٤١٤) وهو القرن الذى ازدهرت فيه الثقافة العربية ازدهاراً بالغاً حيث انصهرت فيها ثقافات أمم وشعوب شتى ، منها ما أصبح تحت لواء الإسلام ومنها ما تفتحت عليه الحضارة الإسلامية ، فأثّرت فى تلك الثقافات وتأثرت بها .

ويعتبر التوحيدى الذى عاش فى ظل الدولة البويهية التى استولت على بغداد عاصمة الخلافة العباسية فى سنة ٣٣٤هـ - يعتبر مسجلاً للقرن الرابع بكل ما فيه من أدب وأدباء ، وفلاسفة وبلغاء ، وحوارات ومساجلات ومناظرات بلاغية وفلسفية . وقد ساعده فى ذلك احترافه للوراقة (نسخ الكتب فى شتى العلوم والآداب والفنون) وتلقيه علوماً وآداباً شتى ، بتبلمذه على جهاذة الأدب والفقه وأساطين الفلسفة فى ذلك العصر من أمثال : أبو سعيد السيرافى وأبو سليمان المنطقى ومسكويه وعلى بن عيسى الرمانى وأبو بكر القومسى وغيرهم . ورغم ذلك عاش فقيراً محروماً يتشكى جور زمانه ويبكى فى تصانيفه على حرمانه . ومن تصانيفه : الإمتاع والمؤانسة - والهوامل والشوامل والمقابسات والصدّاقة والصديق ومثالب الوزيرين .